

تأليف

حمدي بن محمد نور الدين آل نوفل

مكتبة المورد




قصص القرآن

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مكتبة المورد

القاهرة: ٠٢/٢٧١٢٥٤٢ - ٠١٢٢٦٩٧٦٧٤

الطائف: ٠٢/٧٤٣٥٩٤٢ - ٠٥٥٧٩٠٩٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلي أمي وأبي.

إلى من ربياني صغيرًا، وآزروني كبيرًا.

إلى من يفرحان لفرحي، ويألمان لترحي.

إلى من تكبدا الصعاب لأعيش بغير نصب ولا تعب.

إلى من طعما الكدر؛ لأطعم اللين اللطيف.

إلى من لو حزت لهما الدنيا؛ لم أوف حقهما.

فاللهم أسبغ عليهما نعمة العافية، وارزقهما طمأنينة النفس، وصلاح البال، وخير الدنيا، وجنة الآخرة؛ إنك وليّ ذلك والقادر عليه، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حمدي بن محمد نور الدين آل نوفل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحيّ القيوم الذي لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ منـــزلُ القرآن، والخالقُ للإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا ﷺ ما ٱختلف الْمَلَوان، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين؛ الذي أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعْيَت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيرًا.

جعل أمثاله عِبَرًا لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن ٱستبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ .

خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا. فَحملة القرآنِ هم حَمَلَةُ سرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه؛ فما أَحَقَّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر ما شُرِح له فيه، ويخشى الله ويتّقيه، ويراقبه ويستحييه . فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيدًا يوم القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

ألا وإنّ الحجة على من علِمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجَهِله. ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع؛ وٱرتكب من المآثم قبيحًا، ومن الجرائم فضوحًا؛ كان القرآن حجةً عليه، وخَصْمًا لديه، قال رسول الله ﷺ: « **القرآن حجة لك أو عليك** » خرّجه مسلم.

هذا وقد حثني بعض إخواني - أكرمهم الله - على جمع بعض من قصص القرآن؛ فاستعنت بالله الذي يهدي من يشاء لما يشاء، فكلٌّ ميسر لما خلق له؛ كما صح عن الصادق

المصدوق عليه الصلاة والسلام.

فما كان مني غير أني جمعت النصوص من كتب التفسير والتأريخ، وألفت بينها؛ وعزوت قدر المستطاع، وليعلم القاريء الكريم أن جل ما كتبته؛ قد استقيته من الكتب التالية:

١- تاريخ ابن اسحاق.

٢- جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري.

٣- الجامع لأحكام القرآن لإمام القرطبي.

٤- كتب السنن التسعة.

٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.

فالله أسأل أن يتقبل مني، وأن يجعله نافعًا، وأن يعلمنا القرآن ويزيننا به ويُطيب به نفوسنا، ويشرح به صدورنا ويزيل به غمومنا وهمومنا ويجعله يوم القيامة حجة لنا ويلبسنا به يوم القيامة الحلل، ويظللنا به خير الظلل، ويعلمه ذرياتنا، ويجعله بعد رضاه غاية غايتنا، والله الموفق، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وصلى اللهم على محمد وعلى آله وسلم.

وكتبه

أبوإسماعيل

حمدي بن محمد نور الدين آل نوفل

القصص في القرآن

من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن كتاب الله نـــزل به ملك الوحي جبريل عليه السلام على نبينا محمد ﷺ، وقد ورد في كتب السنن أن هناك سور وآيات كانت لها خصوصيات – إن جاز التعبير – في النـــزول ؛ فغالب القرآن نـــزل به جبريل عليه السلام مفردًا بلا تشييع، وهناك سور وآيات نـــزل مع جبريل عليه السلام ملائكة يحفونه ويحفون ما نـــزل به على نبينا محمد ﷺ.

فأما المشيع كما ورد في كتب السنن[1] : ففاتحة الكتاب قد نـــزلت ومعها ثمانون ألف ملك ، وسورة الإنعام شيعها سبعون ألف ملك، وآية الكرسي نـــزلت ومعها ثلاثون ألف ملك، وسورة يونس نـــزلت ومعها ثلاثون ألف ملك، وآية ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نـــزلت معها عشرون ألف ملك، قيل وسورة الكهف أيضًا شيعها سبعون ألف ملك.

و لم يكن هذا التشييع والاحتفاء إلا لخصوصية آية أو سورة بعينها وفضلها؛ فليعلم.

وإلى جانب الشرائع والأحكام؛ فقد حوى كتاب الله أخبار الأمم، وشريعة الخلق؛ بل والخبز، والطبخ، وما إلى ذلك من الأمور الحياتية التي لا يعلم كثير ممن غفلوا عن كتاب الله أنها بين جنبات هذا الكتاب الأقوم .

ومثال ذلك من الأمور الحياتية – للاعتبار – ما ورد في كتاب الله قوله تعالى عن صاحب يوسف عليه السلام في السجن : ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾.والطبخ: ﴿ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾. والغسل : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ، والجزارة : ﴿ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾. والبيع، والشراء في آيات كثيرة. والصبغ صبغة الله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ و: ﴿بِيضٌ﴾ و﴿وَحُمْرٌ﴾. والحجارة: ﴿تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾. والكيالة، والوزن في آيات كثيرة. والرمي: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ ، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾. وفيه من أسماء الآلات، وضرب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع، ويقع في الكائنات،

---

(١) بعضها على اختلاف بين العلماء .

ما يحقق معنى قوله: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ .

وأما أنواع العلوم، فليس منها باب، ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه علم عجائب المخلوقات، وملكوت السموات، والأرض، وما في الأفق الأعلى، وتحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل، والملائكة.

وأما القصص فالقرآن جمع من عيون أخبار الأمم السابقة، وأخبار النبيين والمرسلين، والصالحين:

كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة. وفي الولد الذي سمى عبد الحارث، ورفع إدريس، وغرق قوم نوح.

وقصة عاد الأولى والثانية، وقوم تبع، ويونس، وأصحاب الرس، وثمود، والناقة، وقوم لوط، وقوم شعيب الأولين والآخرين، فإنه أرسل مرتين.

وقصة موسى في ولادته، وإلقائه في اليم، وقتله القبطي، ومسيره إلى مدين، وتزوجه ابنة شعيب، وكلامه تعالى بجانب الطور، ومجيئه إلى فرعون، وخروجه، وإغراق عدوه، وقصة العجل، والقوم الذين خرج بهم، وأخذهم الصاعقة، وقصة القتيل، وذبح البقرة، وقصته في قتل الجبارين، وقصته مع الخضر، والقوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين.

وقصة طالوت، وداود مع جالوت، وفتنته، وقصة سليمان، وخبره مع ملكة سبأ، وفتنته، وقصة القوم الذي خرجوا فرارًا من الطاعون، فأماتهم الله، ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في مجادلة قومه، ومناظرة نمرود، وقصة وضعه ابنه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة الذبيح، وقصة يوسف، وما أبسطها، وأحسنها قصصًا.

وقصة مريم، وولادتها عيسى، وإرساله، ورفعه، وقصة زكريا، وابنه يحيى، وقصة أيوب، وذي الكفل، وقصة ذي القرنين، ومسيره إلى مطلع الشمس، ومغربها، وبناء السد، وقصة أهل الكهف، الرقيم، وقصة بخت نصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة، وقصة مؤمن آل يس، وقصة أصحاب الفيل، وقصة الجبار الذي أراد أن يصعد إلى السماء.

وقصة قتل قابيل أخاه هابيل، وقصة دفن هابيل بدلالة الغراب، وقصة وصية يعقوب بنيه، ودعوة إبراهيم، وبشارة عيسى بنبينا محمد ﷺ، وبعثه، وهجرته. وغزواته: غزوة بدر

في سورة الأنفال، وأحد في آل عمران، وبدر الصغرى فيها، والخندق في الأحزاب، والنضير في الحشر، والحديبية في الفتح، وتبوك في براءة، وحجة الوداع في المائدة. ونكاحة زينب بنت جحش، وتحريم سرية، وتظاهر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود.

وفي كتاب الله بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح، وما يفعل بها بعد عودها إلى السماء، وفتح الباب للروح المؤمنة، وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر، والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشراط الساعة الكبرى العشرة، وهي: نــزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج، ومأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وغلق باب التوبة، والخسف وأحوال البعث: من نفخ الصور للفزع، وللصعق، وللقيام، والحشر، والنشر، وأهوال الموقف، وشدة الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم، ونجاه آخرين. ومنه: شهادة الأعضاء، وإيتاء الكتب بالأيمان، والشمائل، وخلف الظهر، والشفاعة أي بالإذن، والجنة، وأبوابها، وما فيها من الأنهار، والأشجار، والثمار، والحلي، والأواني، والدرجات، ورؤية الله تعالى. والنار، وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب وأصناف العذاب، والزقوم ، والحميم، إلى غير ذلك، مما لو بسط لجاء في مجلدات.

وفي القرآن أيضًا جميع أسماء الله الحسنى، وفيه أسمائه مطلقًا. وفيه: من أسماء النبي ﷺ. وفيه: شعب الإيمان البضع والسبعون. وفيه: شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمسة عشر، وفيه: أنواع الكبائر، وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث صح عن النبي ﷺ .

قال الله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنــزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِه**﴾ [ص: ٢]. وقال الله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**﴾ [محمد: ٢] .

هذا وقد سأل نفر من الصحابة رسول الله ﷺ أن يقصّ عليهم القصص ؛ فقد ورد عن ابن عباس، قال: قالوا : يا رسول الله، لو قصصت علينا. قال: فنــزلت : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَص** ﴾. أي نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِه لَمِنَ الغافلينَ.فالقصص في القرآن قصص حق ورواية صدق في كتاب الله للعبرة والاتعاظ، فيه تنبية للمسلمين وايقاظ .

وفي قصص القرآن الكريم ما فيه من بليغ الحكم، وروائع السير، ولفت الأنظار إلى ما فيه الاعتبار والاستبصار؛ فالقاص هو الله جل وعلا الذي يأتي بالقصة على حقيقتها. قال سبحانه: ﴿ **بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾ أي: بوحينا إليك هذا القرآن.الذي فيه من أسرار البيان ما يعجز عن البيان، فأماط اللثام عن قصص كانت قد اندثرت ، وروايات عملت فيها أيدي أهل الكتاب فحرفت وبدلت ، وقدمت وأخرت ؛ لكن الله قص القصص وأنباء الأولين في كتابه للاعتبار بها، وتسلية للنبي ﷺ وتبصرة لأولي النهى.



أحوال القصص في كتاب الله

※ الحالة الأول غيوب الماضي:

وتتمثل في تلك القصص الرائعة التي يفيض بها التنـــزيل، و لم يكن لعلم محمد ﷺ بها من سبيل. منها قصة نوح التي قال الله فيها: ﴿**تلك من أنباء الغيبِ نوحيهَا إلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أنتَ ولا قومُكَ من قبل هذا**﴾[هود: ٤٩] .

ومنها قصة موسى التي يقول الله فيها: ﴿ **وَمَا كُنتَ بجانب الغربِيّ إذ قضينَا إلى موسى الأمْرَ، وما كنتَ من الشاهدينَ، ولكنَّا أنشأنا قرونًا فتطاولَ عليهمُ العُمرُ وما كنتَ ثاويًا في أهلِ مدينَ تتلوا عليهم آياتنا، ولكنَّا كُنَّا مُرْسِلِيْنَ، ومَا كُنْتَ بجانبِ الطُّوْر إذ نادينَا ولكنْ رَحْمَةً مِنْ ربك لِتُنْذِرَ قَوْمًا ما أَتَاهُمْ مِنْ نَذيرٍ من قبلكَ لعلهم يتذكَّرون** ﴾ [القصص: ٤٤ – ٤٦].

ومنها قصة مريم وفيها يقول : ﴿**ذلكَ من أنباءِ الغيبِ نوحيهِ إليك وما كنتَ لديهِمْ إذْ يُلقونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفَلُ مريم وما كنتَ لَدَيْهِمْ إذْ يَخْتَصِمون**﴾[آل عمران: ٤٤] .

※ الحالة الثانية غيب الحاضر:

أما غيب الحاضر فنريد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك، مما لم يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به، فضلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح، الذي أيده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام. وأمثلة هذا الضرب كثيرة في القرآن، لا تحتاج إلى عرض ولا بيان.

ومنه أيضًا ما فضح الله به المنافقين في عصر الرسول مما كان قائمًا بهم وخفى أمره عليه كقوله:

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قلبه وهو أَلَدُّ الخِصَامِ ※ وإذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ※ واللَّه لا يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾ [البقرة : ٢٠٤ – ٢٠٥]. وكقوله في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾، وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شيء كثير.

ومن غيب الحاضر أو الماضي ما جاء في طي القرآن من حقائق ومنافع ومبادىء لم يكشف عنها إلاّ العلم الحديث.

*** الحالة الثالثة غيب المستقبل:**

وأما غيب المستقبل، فنمثل له بأحدى عشرة مثل:

- **المثال الأوّل**: إخبار القرآن عن الروم بأنّهم سينتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذي يقول الله فيه:

﴿غُلِبَت الروم * في أدْنَى الأرضِ * وهُمْ مِنْ بَعْد غَلَبِهِمْ سَيُغْلَبُونْ * في بِضْعِ سِنِين، لِلَّه الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ * ويومئذ يَفْرَحُ المؤمنُونَ * بنَصْرِ اللَّه يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وهُوَ العَزِيزُ الرَحِيمُ* وَعْد الله لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَه ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾

[الروم : ٢ – ٦].

وبيان ذلك أنّ دولة الرومان وهي دولة نصرانية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية، في حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتم المسلمون بسبب أنّها هزيمة لدولة متدينة أمام دولة وثنية، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين في شماتة العدو: إنّ الروم يشهدون أنّهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنــزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم، فنــزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأنّ هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين، أي في مدة تتراواح بين ثلاث سنوات وتسع، ولم يك مظنونًا وقت هذه البشارة أنّ الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة. بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها؛ لأنّ الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت في عقر دارها، كما يدل عليه النص الكريم: **﴿ في أَدْنَى الأَرْض ﴾**[الروم : ٣] . ولأنّ دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة. حتى إنّه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة، راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقيق هذه النبوّة.

ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ ميلادية الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية.

ومما هو جدير بالذكر أنّ هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى، وهي البشارة بأنّ المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في هذا الوقت الذي ينتصر فيه الروم؛ **﴿ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ**

المُؤمِنُونَ بَنَصْرِ اللَّه ﴾[الروم : ٤ – ٥] .

ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعًا في الظرف الذي ظفر فيه الرومان. وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم كما علمت، ومع تقطع الأسباب أيضًا في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة؛ لأنّهم كانوا أيامئذ في مكة في صدر الإسلام والمسلمون في قلة وذلة، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة. ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نـــزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بها عن التكهنات والتخرصات. وإن كنت في شك فأعد على سمعك هذه الكلمات:

﴿ **ينصرُ مَنْ يَشَاء وهو العَزيزُ الرَّحيمُ، وَعْد اللَّه لا يُخْلفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ولكنَّ أكثر النَّاسِ لا يَعْلَمُون** ﴾[الروم : ٥ –٦]. ثم ألست ترى معي أنّ هذه العبارة الكريمة : في ﴿ **بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ [الروم : ٤] قد حاطت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند؛ لأنّ البضع كما علمت من ثلاث إلى تسع.

والناس يختلفون في حساب الأشهر والسنين: فمنهم من يؤقت بالشمس ومنهم من يؤقت بالقمر. ثم إنَّ منهم من يجبر الكسر ويكمله إذا عد وحسب، ومنهم من يلغيه.

يضاف إلى ذلك أنّ زمن الانتصار قد يطول حبله، فتبتدىء بشائره في عام ولا تنتهي مواقعه الفاصلة إلاّ بعد عام أو أكثر. ونظر الحاسبين يختلف تبعًا لذلك في تعيين وقت الانتصار: فمنهم من يضيفه إلى وقت تلك البشائر ومنهم من يضيفه إلى يوم الفصل، ومنهم من يضيفه إلى ما بينهما. لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته: ﴿ **سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ [الروم : ٣ – ٤] من الدقة البيانية والاحتراس البارع بحيث لا يدع مجالاً لطاعن ولا حاسب. وظهر أمر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات في كل اصطلاح من الاصطلاحات. ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّه قِيلاً** ﴾ [النساء: ١٢٢].

● **المثال الثاني** : إنباء القرآن بأنّ الله عاصم رسوله ﷺ وحافظه من الناس، لا يصلون إليه بقتل، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال، وذلك في قوله عز وجل: ﴿**واللَّهُ يَعْصِمُكَ من النَّاس** ﴾ [المائدة : ٦٧] .

ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ومع أنّهم كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أضعف منهم استعدادًا وأقل جنودًا. فمن الذي يملك هذا الوعد وتنفيذه إذن إلاّ الله الذي يغلب ولا يغلب، والذي لا يقف شيء في سبيل تنفيذ مراده ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨] . واقراء التاريخ وسل المؤرخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرجت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم؟، وهذا مشاهد حديثًا ايضًا؛ فليعتبر!!.

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذي احتوى ذلك الضمان من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وهو من قد علمت ضعفه وقوة أعدائه يومئذ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نـــزول هذه الآية، فلما نـــزلت إذا ثقته واعتداده بها أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يحرسونه. وسرعان ما صرف حراسه وسرحهم عند نـــزول الآية قائلاً: « **أيُّها النَّاسُ انْصَرِفُوا فقد عصَمَني اللَّهُ** » كما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري.

وكذلك روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: كُنَّا إذا أتينا في سَفَرِنا على شجرةٍ ظليلة تَرَكْنَاهَا لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلما كنا بذاتِ الرِّقاع نـــزل نَبي اللَّه تحتَ شجرةٍ وعلَّق سَيْفَه فيها.

فجاء رجل من المشركين فأَخَذَ السيفَ فاخترطَهُ وقال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أَتَخَافُني؟ قال: « **لا** » ، قال : من يَمْنَعُكَ مني؟ قال : « **اللَّهُ يمنعني مِنك، ضَعِ السَّيْفَ** » فوضعه. ومما يجدر التنبيه له أنّ هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف .

ومن شواهد حماية الله لرسوله ﷺ وإنجازه له هذا الوعد، ما ورد عن علي رضي الله عنه قال: كنا إذا احمر البأس وحمى الوطيس اتقينا برسول الله فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك أيضًا ما ثبت من أنّه في يوم حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم وأدبهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنـــزل سبحانه سكينته على رسوله، حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها بكفها إرادة ألا

تسرع. فأقبل المشركون إلى رسول الله . فلما غشوه لم يفر و لم ينكص، بل نــزل عن بغلته كأنّما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: « **أنَا النَّبي لا كَذِب، أنا ابنُ عبد المطلب** » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه. فوالله ما نالوا منه نيلاً، بل أيده الله بجنده، وكف أيديهم عنه بيده.

● **المثال الثالث**: ما جاء في معرض التحدي بالقرآن، من قوله سبحانه: ﴿ **فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولنْ تَفْعَلُوا** ﴾[البقرة : ٢٤] ، وقوله: ﴿ **قُلْ لَئنْ اجْتَمَعَتْ الإنْسُ والجنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بمِثْلِ هذا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بمثْلِه ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْرا** ﴾[الإسراء: ٨٨]، فإن ما تراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين وجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قد تناول أطواء المستقبل (والمستقبل غيب) لا يملكه محمد ولا مخلوق غيره ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة، حيث انقرضت طبقة المخاطبين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه، ومضت بعدهم أجيال وأجيال من عرب وأعجام، وكلهم قد باءوا بالعجز و لم يستطيعوا المعارضة إلى اليوم، مع وجود أعداء للإسلام في هذه العصور المتأخرة، أكثر وأقدر وأحصر على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين.

لاحظ مع هذا ما يثيره مثل هذا التحدي الطويل العريض الجريء، من الحمية الأدبية التي تبعث روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم. ثم لاحظ أنّ المتأخرين من الناقدين لا يعييهم في العادة أن يستدركوا على السابقين، إمّا نقصًا يعالجونه بالكمال، أو كمالاً يعالجونه بما هو أكمل منه. وإذا فرضنا أن واحدًا قد عجز عن هذا فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة. وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أمة. وإذا عجزت أمة فمن البعيد أن يعجز جيل. وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدي عن رجل يعرف ما يقول، فضلاً عن رجل عظيم، فضلاً عن رسول كريم، فضلاً عن محمد أفضل المرسلين ﷺ ؟.

وهل يمكن أن يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض إلاّ بأنّه استمداد من وحي السماء، واستناد إلى من يملك السمع والأبصار، وحديث عمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟

● **المثال الرابع** : ما جاء في التنبؤ بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحًا باهرًا، فقد أخبر

القرآن والمسلمون في مكة قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس؛ بأن الإسلام سيظهر ويبقى، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفردًا بهذه الميزة عن سائر كتب الله. اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ **كذلك يضربُ اللَّهُ الحقَّ والباطلَ فأمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكُثُ في الأرض** ﴾ [الرعد : ١٧] ، وفي سورة إبراهيم: ﴿ **ضربَ اللَّهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة أصلُها ثابتٌ وفَرْعُهَا في السَّمَاء، تُوءتِي أُكُلَهَا كُلَّ حيْنٍ بإذْنِ رَبِّهَا** ﴾ [إبراهيم : ٢٤ –٢٥] ، وفي سورة الحجر: ﴿ **إنَّا نَحْنُ نــزلنا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لحافظُون** ﴾ [الحجر : ٩].

أجل في هذه السور الثلاث المكية، قطع القرآن هذه العهود المؤكدة بتلك اللغة الواثقة، والإسلام يومئذ في مكة مدفوع مضطهد، والمسلمون قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وليس هناك من بواسم الآمال ما يلقي ضوءاً على نجاح هذا الدين الوليد، ولئن التمست هذه الآمال في نفس الداعي من طبيعة دعوته، فما كانت لتصل إلى هذا الحد من اليقين والتأكيد. ولئن وصلت إلى هذا الحد ما دام صاحبها حيًا يتعهدها بنفسه ويغذيها بنشاطه، فليس لديه من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح بعد موته، مع ما هو معروف بأنّ المستقبل مليء بشتيت المفاجآت، والليالي من الزمان حبالي مثقلات، والتاريخ لا يزال يقص علينا وعلى الناس نبأ من قتل من الأنبياء، وما ضاع أو حرف من كتب الله ووحي السماء وما حبط من دعوات الحق ونهض من دعوات الباطل... كل ذلك قد كان ومحمد لم يكن في يوم من الأيام بالرجل الأخرق الذي يسير مع الأوهام، أو يطير مع الخيال، أو يطلب المجد عن طريق الأحلام المكذوبة والآمال المعسولة. بل كان معروفًا منذ نشأته، بتواضعه ورجاحة عقله واتزانه ودقته، حتى لقد كان يتثبت في كلامه ويتحرى إلى أن لقب واشتهر بأنّه الصادق الأمين، وجاء القرآن نفسه يشهد بأنّه كان قبل نبوته لا يطمع في نبوة ولا يأمل في وحي؛ ﴿ **ومَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّك** ﴾ [القصص: ٨٦].

وكذلك لم يكن بعد نبوته بالذي يضمن بقاء هذا الوحي وحفظه؛ ﴿ **ولَئِنْ شِئْنَا لنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ بهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرا** ﴾ [الإسراء : ٨٦ – ٨٧].

فلا مناص إذن من أن تكون تلك البشارات المؤكدة والعهود الموثقة، صادرة من أفق

غير أفقه، آنية من ملك قاهر لا راد لحكمه، معبرة عن مراد من يملك العالم ويحكمه في ماضية وحاضره ومستقبله.

ومما يؤيد صدق هذه التنبؤات، أنّ الإسلام لقى من ضروب العنت مرارًا وتكررًا، في أزمان متطاولة وعهود مختلفة، ما كان بعضه كافيًا في محوه وزواله، ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقي ثابتًا يسامي الجبال، شامخًا يطاول السماء. وكذلك لقى كتابه العزيز ولا يزال يلقى من الهمز واللمز والطعن والسباب والمحاولات القاتلة، ما لا يتصوره إنسان في أي زمان، وما لم يلق كتاب قبله من الكيد والتضليل والبهتان، ومع ذلك كله فالقرآن، لا يزال جالسًا على عرشه في سمائه، يمد العالم كله بحرارته وضيائه، و لم تنل منه هذه المحاولات.

● **المثال الخامس**: تنبؤ القرآن بأنّ المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية، ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتي على نحو ما أخبر القرآن، في أقصر ما يكون من الزمان أجل، إنّنا لنقرأ في سورة الصافات المكية: ﴿ **وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُون** ﴾ [الصافات : ١٧٣] ، وفي سورة غافر المكية أيضًا ﴿ **إنَّا لَنَنْصُر رُسُلَنَا والذينَ آمَنُوا في الحياة الدُّنْيَا ويَوْمَ يَقُومُ الأشْهَاد** ﴾ [غافر : ٥١] ، وكذلك نقرأ في سورة النور المدنية: ﴿ **وعدَ اللهُ الذين آمنوا منْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الأرْضِ كما اسْتُخْلفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ * وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمْ الذي ارْتَضَى لَهُمْ * ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ [النور : ٥٥].

على حين أنّ السيرة النبوية لا تزال تحفظ بين طياها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول وأتباعه في مكة والمدينة، على عهد نـــزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة. حتى لقد كان أكبر أماني المسلمين بعد هجرهم وتنفسهم الصعداء قليلاً، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبي ابن كعب قال: لما قَدِمَ رسولُ اللّه وأصحابُهُ المدينةَ وآوَتْهُمْ الأنصارُ، رَمَتْهُمْ العربُ عن قوسٍ واحدة، وكانوا لا يَبِيتُونَ إلاّ بالسلاح ولا يُصْبِحُون إلا فيه، فقالوا: « أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف؟ » فنـــزلت الآية.

وكذلك روى ابن أبي حاتم عن البراء قال : «نـــزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد» أي قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ ... الخ.. هكذا كان

حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا يا لها نبوءة تأبي عادة أن يتحدّث بها إلاّ من يملك تحقيقها، ومن يخرق - إن شاء - عادات الكون ونواميسه من أجلها. ﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم** ﴾[محمد : ٧] . ﴿ **ولَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرهُ، إِنَّ اللَّهَ لقويٌّ عزيز** ﴾[الحج : ٤٠] .

● **المثال السادس:** ماورد في القرآن بأنّ الرسول وأصحابه وقد كانوا بالمدينة، سيدخلون مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، إذ قال سبحانه:

﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرؤيَا بالحَقِّ؛ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شاءَ اللَّه آمِنِينَ مُحَلِّقِين رُؤُوسَكُمْ ومُقَصِّرِين لا تَخَافون** ﴾[الفتح : ٢٧] ، ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر، مع أنّ ظروفه لم تكن تسمح به في مجرى العادة فدل ذلك على أنّ هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه، بل هو القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العاده .

ولزيادة البيان نذكر أن رسول اله رأى في نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين فقص رؤياه على أصحابه فرحوا وحسبوا أنّهم من عامهم. ثم خرجوا يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حربًا وإنّما يقصدون عمرة ونسكًا ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدتهم قريش وأبت عليهم ما أرادوا. وكادت تكون حرب لولا أنّ الرسول رضي بصلح بينه وبينهم وإن كان قاسيًا.

ثم قفل راجعًا على أن يؤدي نسكه في العام القابل نــزولاً على مواد هذا الصلح القاسي. وعز ذلك على أصحابه، واتخذ المنافقون منه حطبًا لنفاقهم ومادة لدسهم ولمزهم، فقال عبد الله بن أبي رأسهم: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام. ولكن على رغم هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام، نــزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة، وهي دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة. وقد أنجز الله وعده فتم الأمر على أكمله في العام الذي بعد عام الحديبية. ﴿ **ويَأْبَى اللَّهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُون** ﴾[التوبة : ٣٢].

● **المثال السابع** : تنبؤ الكفار بهزيمة جموع الأعداء في وقت لا مجال فيه لفكرة الحرب، فضلاً عن التقاء الجمعين وانتصار المسلمين وانهزام المشركين وذلك قوله سبحانه في سورة القمر المكية: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾[القمر : ٤٥] والجهاد لم يشرع إلاّ في السنة الثانية للهجرة. فأين ما يتنبأ به القرآن إذن؟ إنّه لا بد أن يكون كلامًا تنـــزل ممن يعلم الغيب في السموات والأرض. أمّا محمد الرجل الأمّي فأنى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم؟.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه أنّ عمر رضي الله عنه جعل يقول حين نـــزلت هذه الآية: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولها.

● **المثال الثامن**: تنبؤ القرآن في مكة بهذا المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش، ثم وقوع ذلك كما تنبأ. اقرأ قوله سبحانه: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ** ﴾[الدخان : ١١ – ١٦] .

وسبب نـــزول هذه الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول الله واستعصوا، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، أي بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا با ورسوله. فأجابه الله بهذه الآيات. وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات:

– **أوّلها**: الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان.

– **ثانيها**: الإخبار بأنّهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة: ﴿ **هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴾ [الدخان : ١٢] .

– **ثالثها**: الإخبار بأنّ الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

– **رابعها**: الإخبار بأنّهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم.

– **خامسها**: الإخبار بأنّ الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر.ولقد حقّق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام، وجعل

الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده. ثم قالوا متضرعين ذلك الذي حكاه الله عنهم:

﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : ١٢] . ثم كشف الله عنهم هذا العذاب قليلاً، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم. ثم انتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون .

أرأيت ذلك كله؟ وهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم.

● **المثال التاسع:** ما ورد في كتاب الله عن المستقبل المظلم الأسود، المضروب على اليهود بوجه مؤكد مؤبد، ثم تحقق هذا النبأ كاملاً عامًا يتناول القرون والأجيال من عهد نـــزول القرآن لم ينخرم مرة من المرات في يوم واحد من الأيام.

اقرأ ما نـــزل في شأنهم من قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ **لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذَى * وإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُم الأَدْبَارَ * ثُمَّ لا يُنْصَرُون** ﴾، ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ** ﴾

[آل عمران : ١١١ – ١١٢] .

ثم انظر كم ورد في هذا النظم الكريم، وضعه الله كأنّه الأغلال في عنق هذا الشعب الماكر اللئيم؟ ألست ترى فيه أنّهم لا يستطيعون أن ينالوا من المسلمين بالحرب والقتل والأسر؟ إنّما ضررهم أذى بالغدر وبسوء الاستغلال والمكر. وعلى فرض أنّهم يقاتلون المسلمين، فسيلوذون حينئذ بالفرار، ويولون الأدبار، ولا سبيل لهم في المستقبل إلى الانتصار ثم إنّ الذلة قد ضربت عليهم كما يضرب الحجر على السفهاء لا يستطيعون الفكاك إلاّ إن دخلوا في عهد من الله أو عهد من الناس. ثم إن المسكنة وهي خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك، فهم أشد الشعور خوفًا من الفقر، ولذلك كانوا أشدها طمعًا وشرهًا في جمع الدنيا، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال إلى أم رؤوسهم، ولا يتورعون عن الجري وراء الدنايا بأحط الوسائل، وإن كانوا يملكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم، وإعلام ودعاية تدندن لهم صباح مساء؛ حتى غدا قتلهم لأطفال الحجارة في فلسطين من الأمور المشروعة– زعموا– ، وأن يُمس أخس قرد فيهم قيامة تقام لها الدنيا ولا تقعد.

ثم اقرأ في شأن هذه الطائفة قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ**

عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوْءَ العَذَابِ ﴾[الأعراف: ١٦٧] .

في هذا النص الكريم، صكًا مسجلاً بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد؟ وتداول القرون والأحقاب من لدن نـــزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا التنبؤ إلاّ تصديقًا وتحقيقًا، ما خرمه مرة وإنّما أشبعه إعجازًا وتأييدًا؟. رغم ما يبدوا من علوهم في الأرض؛ إلا أن من ابتلي برؤية تلك الوجوه الممسوخة وهو على بصيرة من ربه ليرى - والله - كم هم إذلاء جبناء، الخسة طبعهم والدناءة نسيج جلودهم.

ومن كان في شك فلينظر في التاريخ قديمه وحديثه، أو فاستمع إلى صوت المآسي الماثلة القريبة، ثم قل: صدق الله. ما القرآن إلاّ كلامه، وما محمد إلاّ عبده ورسوله.

وإليك مثالاً آخر في شأن هؤلاء أبدع في الإعجاز وأروع.

● **المثال العاشر**: تحدى القرآن لأعداء الله اليهود في شيء يظهر أنّه سهل بسيط، وأنه وكان في متناول قدرهم وفي دائرة استطاعتهم، ومع ذلك انصرفوا عنه. وعجزوا. فدل هذا التحدي مع الانصراف والعجز، على أنّ القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسنة، وهو الله وحده. أمّا محمد صلوات الله وسلامه عليه فمحال أن يقامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر الظاهرة سهولته، وهو بشر لا يعلم الغيب ولا يستطيع أن يقلب القلوب ولا أن يعقد الألسنة.

وبيان ذلك أنّ اليهود زعموا أنّهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق، وادّعوا أنّ الدار الآخرة وقف عليهم وخالصة لهم من دون الناس، فخاطب الله رسوله ﷺ في سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله:

﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّه خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[البقرة: ٩٤] ، ثم قال: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾[البقرة: ٩٥] ، وها قد مضى على نـــزول القرآن مايزيد عن أربعة عشر قرنًا، وما تمنى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين. بل أعلن القرآن في السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال:

﴿**ولَتجدَنَّهُم أَحْرَصَ النَّاسِ على حياة. ومنَ الذينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَة، ومَا هُوَ بِمُزَحْزِحِه منَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، واللَّهُ بَصِيْرٌ بما يَعْمَلُون** ﴾[البقرة: ٩٦] . فكان ذلك علمًا جديدًا من أعلام النبوّة، لأنّه تنويه بغيب حاضر، لم يكن يعلمه محمد ولا قومه.

فهل يتصوّر عاقل أنّ محمدًا عليه الصلاة والسلام وهو في موقف الخصومة الشديدة من اليهود، تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدي من عنده في لغة الواثق الذي لا يتردد، والآمن الذي لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول: إني أتمنى الموت؟

وهنا تكون القاضية فتنقطع - لا قدر الله - حجة الرسول، ويظهر عجزه، وتفشل دعوته، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومن أحرصهم على إفحام الرسول وتعجيزه.

فصدور هذا التحدي من رجل عظيم كرسول الله محمد ﷺ ، ثم استخذاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو في مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم في الحال بقوله: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**﴾ [البقرة: ٩٦] ، وفي الاستقبال بقوله: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا** ﴾ [البقرة: ٩٥]

كل أولئكَ أدلة ساطعة على أنّ القرآن كلام علام الغيوب، قاهر الألسنة ومقلب القلوب. وهي أيضًا براهين قاطعة على أنّ محمدًا عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون مصدر هذا الكتاب ولا منبع هذا الفيض، بل قصاراه أنّه مهبط هذا التنــزيل، وأنّه يتلقاه من لدن حكيم عليم.

● **المثال الحادي عشر**: وهو من عجائب هذا الباب، أنّ القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية، تقع في المستقبل لشخص معين، ثم تحقق الأمر كما أخبر. هذا هو الوليد ابن المغيرة المخزومي يقول الله فيه: ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾، أي سنجعل له علامة على أنّفه يعرف بها وقد كان، ففي غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف أي ضرب به أنفه، وبقي أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له، وكان الوليد هو الذي نــزل فيه: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴾[المدثر: ١١] ، وما بعدها من الآيات التي ذكرناها قبلاً. وهو أيضًا الذي نــزلت فيه هنا هذه الآيات من سورة القلم:

﴿**وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾ [القلم: ١٠ - ١٦] .

تلكم المعجزات والآيات ليست كل مافي كتاب الله من معجزات قصها الله على رسوله ﷺ ، ولا جلها؛ ففي قصص القرآن آيات ومعجزات لا تنقضي بالأيام أو تداول الزمان ؛ بل تبقى معجزات قصص القرآن باقية لمن يسر الله له استنباط معانيه، ودُل على عظيم ما فيه .

ونشير هنا إلى أن هناك من القصص ما كان يرويه الرسول ﷺ عن بني إسرائيل وقال عليه الصلاة والسلام « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ** » رواه الإمام أحمد. وقد اعتمد أهل العلم هذا الحديث كقاعدة في الحديث عن بني إسرائيل؛ نوضح فيما يلي معنى هذه القاعدة :

❋ ❋ ❋

بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا هَمَّامُ، حدثنا زيد بن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد الخُدَري، عن النبي ﷺ قال: قال: « **حَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ** » . وقال أيضًا: حدثنا عَفَّانُ، حدثنا هَمَّامَ، أنبأنا زيد بن أَسْلَمَ عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: « **لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ القُرْآن فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ القُرآن فَلْيَمْحُهُ** » وقال: « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ حَدِّثُوا عَنِّي وَلاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ** » قال: « **وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ** » قال همام: أحسبه قال « **مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث هَمَّام ورواه أبو عُوَانة الأَسْفَرَايني عن أبي داود السِّجِسْتَانِي، عن هُدْبَةَ، عن هَمَّامٍ، عن زيد بن أَسْلَمَ به. ثم قال: قال أبو داود أخطأ فيه هَمَّامُ، وهو من قول أبي سعيد كذا قال، وقد رواه الترمذي عن سفيان، عن وَكِيع، عن سفيان بن عُيَينَةَ، عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعًا فالله أعلم.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أنه سمع رسول الله يعني يقول: « **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ وَمَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » .

وهكذا رواه البُخَاري عن أبي عَاصِمٍ النَّبِيل عن الأَوْزاعِي به، وكذا رواه الترمذي عن بَنْدَارٍ، عن أبي عَاصِمٍ، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذُّهْلِي. وقال: حسن صحيح.

وروى أبو بكر البَزَّارُ عن عبد الله بن عمر، وقال كَانَ نَبِيُّ اللَّه يُحَدِّثُنَا عَامَّة لَيْلَةً عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى نُصْبِحَ مَا نَقُومُ فِيهَا إِلاَّ لِمُعْظَمِ صَلاَةٍ ، ورواه أبو داود عن محمد بن مُثَنَّى ثم روى البَزَّار بسنده. قال:

كان رسول الله ﷺ يحدّثنا عَامَّةَ لَيْلَة عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يَقُومُ إلاَّ لِمُعْظَمِ صَلاَةٍ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى هو القَطَان، عن محمد بن عَمْرٍو، وحدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ** » إسناد صحيح و لم

يخرجوه. وروى الحافظ أبو يَعْلَى بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : « **حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمُ الأَعَاجِيبُ** » .

ثم أنشأ يحدث قال: « **خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَتُوا مَقْبَرَةً مِنْ مَقَابِرِهِمْ فَقَالُوا لَوْ صَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ وَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَيُخْرِجَ لَنَا رَجُلاً قَدْ مَاتَ نُسَائِلُهُ يُحَدِّثُنَا عَنِ الْمَوْتِ، فَفَعَلُوا. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَطْلَعَ رَجُلٌ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرٍ مِنْ تِلْكَ الْقُبُورِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُجُود فَقَالَ: يَا هَؤُلاَءِ مَا أَرَدْتُمْ إِلَيَّ فَقَدْ مِتُّ مُنْذُ مِائَةِ عَامٍ فَمَا سَكَنَتْ عَنِّي حَرَارَةُ الْمَوْتِ حَتَّى الآنَ فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ** » ، وهذا حديث غريب إذا تقرّر جواز الرواية عنهم، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحًا، فأما ما يعلم أو يظنّ بطلانه لمخالفته الحقّ الذي بأيدينا عن المعصوم، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه. ثم مع هذا كلّه لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحّته لما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرّونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: « **لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّه وَمَا أُنـزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** » تفرّد به البخاري من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من طريق الزُّهْري عن أبي نَمْلَةَ الأنْصَاري، عن أبيه أنه كان جالسًا عند رسول الله ﷺ فقال: إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَتَكَلَّمُ هَذِهِ الجَنَازَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **اللَّهُ أَعْلَمُ** » فَقَالَ اليَهُودِي: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهَا تَتَكَلَّم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « **إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلاَ تُصَدِّقُوهُمْ وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّه وَكُتُبِه وَرُسُلِه فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ** » تفرّد به أحمد.

وروى الإمام أحمد بسنده أن عمر بن الخطاب أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ قال فَغَضِبَ وقال: « **أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِه لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِه بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لاَ تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتْبَعَنِي** » .

فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدّلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرّفوها وأوّلوها، ووضعوها على غير مواضعها، ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علمًا، وهي بلغتهم فكيف يعبرّون عنها بغيرها، ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير،

ووهم كثير، مع مالهم من المقاصد الفاسدة والآراء الضالة، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم، وتأمل ما فيها من سوء التعبير، وقبيح التبديل والتغيير، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير. وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيرًا فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه، وما أبدوه وما أخفوه، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب، باطلة من حيث معناها وألفاظها. وهذا كَعْبُ الأحبارِ من أجود من ينقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئًا عن أهل الكتاب، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق، وتأليفًا لقلبه، فتوسّع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضًا هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده. ومنها ما هو باطل لا محالة. ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا.

وقد قال البخاري وقال أبو اليَمَان: حدثنا شُعَيْبُ عن الزُّهْرِي، أخبرني حُمَيْدُ بن عبد الرحمن أنه سمع معاوِيَة يحدث رهطًا من قريش بالمدينة. وذُكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذبَ ، يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري من حديث الزُّهْرِي عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: كيف يسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنــزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضًا لم يُشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً إلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنــزل عليكم .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، إما أن تكذّبوا بحق أو تصدّقوا بباطل والله أعلم.

فتلكم بعض ماورد في شأن التحديث عن اليهود والرواية عنهم سقناه هنا ليعلم الحكم في ذلك ابتداءً؛ ثم ليعلم أن هناك من الأئمة الأعلام المنقول عنهم لرويات بعض القصص انما استقوا روايتهم من بعض الروايات التي من هي روايات أهل الكتاب، ولكن يبقى حكمها لانصدقه إلا ما وافق كتاب الله (القرآن الكريم) ، ولا نكذبه إلا ما عارض كتاب الله.

ذلك ويبقى كتاب الله محفوظًا بما حوى من شرائع وقصص وأنباء وأخبار، وآيات وسور

وآثار. إلى أن يأذن الله جل وعلا برفعه، والرفع للحفظ أيضًا والله أعلى وأعلم . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبّره حق تدبّره؛ ويقوم بقسطه، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهُدَى في غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

ونبدأ بعون الله بقصة أهل الكهف والرقيم؛ فالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❊ ❊ ❊

قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا * وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا * وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا

رَشَدًا ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مائَة سنينَ وَازْدَادُوا تسْعًا ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

[الكهف: ٩ - ٢٦].

كان سبب نـــزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن قريشًا بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها، فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهّر فلا يدري ما صنعوا، وعن رجل طوّاف في الأرض وعنِ الروح.

فأنـــزل الله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾[الاسراء: ٨٥] ﴿ ويسأَلُونَكَ عَنْ ذي القَرْنين ﴾ [الكهف: ٨٣] وقال ههنا ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَاب الكَهْفَ والرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتنَا عَجَبًا ﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة.ثم قص عليه ربه القصص ليؤيده ويكبت الكافرين والمشركين .

أما الكهف فهو الغار في الجبل. والكهف: النقب المتسع في الجبل، فإن لم يك واسعًا فهو غار. وقيل: كل غار في جبل: كهف. وما يروى عن أنس من أن الكهف نفس الجبل غريب، غير معروف في اللغة. قال شُعَيْبُ الجِبَائِي: اسم كهفهم (حيزم).

واختلف في مكان الكهف فالذي تضافرت به الأخبار أنه في بلاد الروم، وأما الرقيم فقد قيل في بعض الروايات أنه الكتاب المرقوم فيه أسماء الفتية الذين فروا بدينهم ودخلوا الكهف، وما جرى لهم، وكتب من بعدهم، وقداختار هذا القول ابن جرير وغيره. وقيل: هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم. قاله ابن عباس وشُعَيْب الجَبائي: اسمه (بناجلوس). وقيل: هو اسم واد عند كهفهم، وقيل: اسم قرية هنالك، وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمرهم ثم وضع على باب الكهف، وقيل لوح من حجارة كتب فيه أسماؤهم وجعل في سور المدينة وروي ذلك عن السدي. وقيل لوح من رصاص كتب فيه شأنهم ووضع في تابوت من نحاس في فم الكهف وقيل لوح من ذهب كتب فيه ذلك وكان تحت الجدار الذي أقامه الخضر عليه السلام .

وروي عن ابن عباس أنه كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى

عليه السلام، وقيل من دين قبل عيسى عليه السلام فهو لفظ عربي وفعيل بمعنى مفعول.

وأظهر الأقوال بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن: أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول،من رقمت الكتاب إذا كتبته،ومنه قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾. سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم.فهو كتاب مكتوب بما يعلمه الله، والعلم عند الله تعالى.

أما ما قيل في كلبهم؛ فقد وردت به أخبار لم أقف على شيء منها يستحق التحقيق والبيان وإن كان له اسم كما ذكر ذلك شُعَيْبُ الجبائي: واسم كلبهم (حمران).فلا يفيد كثيرًا في هذه القصة .

❊ ❊ ❊

ذكر فتية الكهف

قال لله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾[الكهف: ١٣- ١٥].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة لنبيه ﷺ ، أنه يقص عليه نبأ أصحاب الكهف بالحق. ثم أخبره مؤكدًا له أهم فتية آمنوا برهم، وأن الله جل وعلا زادهم هدى. فإنه من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى. لأن الطاعة سبب للمزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبينًا في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد وينقص أيضًا، كما استدل بها البخاري رحمه الله على ذلك[1]. وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه؛ فالإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية. والعلم عند الله تعالى.

وقد ثبت الله قلوب هؤلاء الفتية وقواها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به، ولا ماء ولا طعام. فمن كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوي قلبه، ويثبته على تحمل

---

(١) كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/٢٤).

الشدائد،والصبر الجميل.كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ﴾وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله في أهل بدر مخاطبًا نبيه ﷺ وأصحابه: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، وكقوله في أم موسى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ويفهم من هذه الآية الكريمة: أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوي قلبه، ويثبته على تحمل الشدائد، والصبر الجميل.

وكان عدد الفتية فيما ذكر ابن عباس : سبعة وثامنهم كلبهم .

وقال في قوله تعالى ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾قال : أنا من القليل ،كانوا سبعة. وقال: وكان اسم أحدهم وهو الذي كان يلي شراء الطعام لهم الذي ذكره الله عنهم أنهم قالوا إذ هبوا من رقدهم ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾ كان اسمه(يمنيخ).

وكان ابن إسحاق يسميهم فيقول :كان أحدهم وهو أكبرهم والذي كلم الملك عن سائرهم (مكسملينا) والآخر (محسملينا) والثالث (يمليخا) والرابع (مرطوس) والخامس (كسوطونس) والسادس (بيرونس) والسابع (رسمونس) والثامن (بطونس) والتاسع (قالوس) وكانوا أحداثا .

وقد اعتزل الفتية قومهم لما فشا فيهم من أصناف الشرك والوثنية والكفر بالله جل وعلا. ﴿ وإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ١٦] أي وإذ فارقتموهم في دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله، وذلك لأنهم كانوا يشركون بالله كما قال النبي إبراهيم الخليل ﷺ : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم : إذ قد فارقتم قومكم في دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يصلوا إليكم بشر، فيسبل عليكم الله ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير .

فأوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هربا بدينهم إلى الله، فقالوا إذ دخلوه:

﴿ رَبَّنا آتنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾رغبة منهم إلى ربهم، في أن يرزقهم من عنده رحمة. ﴿ وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أمْرِنا رَشَدا﴾ فيسِّر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعونا إليها قومنا، والرَشَدا: سَداد العمل بالذي يحب الله ويرضى.

* * *

زمان الفتية

أما ما قيل عن زمان الفتية . هل كانوا قبل المسيح عليه السلام أم بعده؛ فالراجح أهم كانوا بعد المسيح عليه السلام، وغاية ما لدى المعارضين لهذا أهم قالوا :إن اعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خبرهم يدل على أن زمانهم متقدّم على ما ذكره بعض المفسّرين أهم كانوا بعد المسيح، وأهم كانوا نصارى.

ولكن الظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام. قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم: كانوا في زمن ملك يقال له (دقيانوس)، وكانوا من أبناء الأكابر. وقيل من أبناء الملوك، واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان، فنظروا بعين البصيرة، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة، وألهمهم رشدهم، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد، انحاز عن الناس، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « **الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَما تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ** » [1] فكلٌّ منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه. واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور.

❊ ❊ ❊

(١) البخاري برقم (٢٢٣٦) .

ذكر من قال: أن الفتية كانوا على شريعة عيسى ﷺ

اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف الذي ذكره الله في كتابه، فقال بعضهم: كان سبب ذلك، أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملك عابد وَثَن، دعاهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستخفَوا منه في الكهف.

روى الطبري [1] بسنده عن عمرو: كانت الفِتية على دين عيسى على الإسلام، وكان ملكهم كافرا، وقد أخرج لهم صنما، فأبَوا، وقالوا: ﴿ **رَبُّنا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلها لَقَدْ قُلْنا إذا شَطَطا** ﴾ ؛ قال: فاعتزلوا عن قومهم لعبادة الله، فقال أحدهم: إنه كان لأبي كهف يأوي فيه غنمه، فانطلقوا بنا نكن فيه، فدخلوه، وفُقدوا في ذلك الزمان فطُلبوا، فقيل: دخلوا هذا الكهف، فقال قومهم: لا نريد لهم عقوبة ولا عذابا أشدّ من أن نردم عليهم هذا الكهف، فبنوه عليهم ثم ردموه. ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى، ورفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم، فقال بعضهم لبعض: كَمْ لَبِثْتُمْ؟ فقالُوا لَبِثْنا يَوْما أوْ بَعْضَ يَوْمٍ... حتى بلغ فابْعَثُوا أحدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلى المَدِينَةِ وكان ورِق ذلك الزمان كبارا، فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام وشراب فلما ذهب ليخرج، رأى على باب الكهف شيئا أنكره فأراد أن يرجع، ثم مضى حتى دخل المدينة، فأنكر ما رأى، ثم أخرج درهما، فنظروا إليه فأنكروه، وأنكروا الدرهم، وقالوا: من أين لك هذا؟ هذا من ورق غير هذا الزمان، واجتمعوا عليه يسألونه، فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم، وكان لقومهم لوح يكتبون فيه ما يكون، فنظروا في ذلك اللوح، وسأله الملك، فأخبره بأمره، ونظروا في الكتاب متى فقد، فاستبشروا به وبأصحابه، وقيل له: انطلق بنا فأرنا أصحابك، فانطلق وانطلقوا معه، ليريهم، فدخل قبل القوم، فضرب على آذانهم، فقال الذين غلبوا على أمرهم: ﴿ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدا** ﴾.

وروى رواية مشابهة أيضًا فقال : مَرِج أمر أهل الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا وطغت

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن (١٥/١٣٢) .

فيهم الملوك، حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم على ذلك بقايا على أمر عيسى ابن مريم، متمسكون بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم، ملك من الروم يقال له: دَقْيَنوس، كان قد عبد الأصنام، وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه في ذلك ممن أقام على دين عيسى ابن مريم. كان ينـــزل في قُرى الروم، فلا يترك في قرية ينـــزلها أحدا ممن يدين بدين عيسى ابن مريم إلا قتله، حتى يعبد الأصنام، ويذبح للطواغيت، حتى نـــزل دقينوس مدينة الفِتية أصحاب الكهف فلما نـــزلها دقينوس كبر ذلك على أهل الإيمان، فاستخْفَوا منه وهَربوا في كلّ وجه. وكان دقينوس قد أمر حين قدمها أن يتبع أهل الإيمان فيُجمعوا له، واتخذ شُرَطا من الكفَّار من أهلها، فجعلوا يتبعون أهل الإيمان في أماكنهم التي يستخفون فيها، فيستخرجونهم إلى دقينوس، فقدمهم إلى المجامع التي يذبح فيها للطواغيت فيخيرهم بين القتل، وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب في الحياة ويُفْظَع بالقتل فيَفتتن، ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الصلابة من أهل الإيمان بالله، جعلوا يُسْلمون أنفسهم للعذاب والقتل، فيقتلون ويقطعون، ثم يربط ما قطع من أجسادهم، فيعلَّق على سور المدينة من نواحيها كلها، وعلى كلّ باب من أبوابها، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فمنهم من كفر فُترك، ومنهم من صُلب على دينه فقُتل فلما رأى ذلك الفِتية أصحاب الكهف، حزنوا حزنا شديدا، حتى تغيرت ألوانهم، ونَحِلت أجسامهم، واستعانوا بالصلاة والصيام والصدقة، والتحميد، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، والبكاء، والتضرّع إلى الله، وكانوا فتية أحداثًا أحرارًا من أبناء أشراف الروم.

قال مجاهد: لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة أسنانهم وضح الورق وكانوا من قوم يعبدون الأوثان من الروم فهداهم الله للأسلام وكانت شريعتهم شريعة عيسى في قول جماعة من سلف علمائنا.

وقال عمرو بن قيس الملائي في دين الفتية أصحاب الكهف والرقيم: كانت الفتية على دين عيسى بن مريم على الإسلام وكان ملكهم كافرا وكان بعضهم يزعم أن أمرهم ومصيرهم إلى الكهف كان قبل المسيح وأن المسيح أخبر قومه خبرهم فإن الله عز وجل ابتعثهم من رقدهم بعد ما رفع المسيح في الفترة بينه وبين محمد والله أعلم أي ذلك كان.

وهذا الذي ذهب إليه طائفة من أهل الإسلام أي أن أمرهم كان بعد المسيح فأما أنه كان في أيام ملوك الطوائف فإن ذلك مما لا يدفعه دافع من أهل العلم بأخبار الناس القديمة. هكذا نقله غير واحد من أهل العلم .

❊ ❊ ❊

وصف الكهف

ذكر تعالى صفة الكهف الذي آوى إليه الفتية وإن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبليا وبابه نحو الشمال فقال: ﴿ **وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ** ﴾ وقرىء: « **تَزْوَرُّ** » ﴿ **عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ** ﴾ فالشمس في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً. وهو ازورارها ذات اليمين، أي: ناحية اليمين، وهي الجهة المسماة باليمين، فترتفع في جو السماء، وتتقلص عن باب الغار، ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب، كما هو المشاهد بمثل هذا المكان، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه ﴿ **وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ** ﴾ والقرض: القطع. قال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو عبيدة: تعدل عنهم وتتركهم، وقرضت المكان: عدلت عنه، تقول لصاحبك: هل وردت مكان كذا؟ فيقول: إنما قرضته إذا مرّ به وتجاوز عنه، والمعنى: أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين أي: يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ ﴿ **ذَاتَ الشِّمَالِ** ﴾ أي شمال الكهف لا تصيبه. بل تعدل عن سمته إلى الجهتين، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

مقدار لبثهم في الكهف

إذا تتبعنا سرد القصة فإننا نلحظ أن ذكر نومهم ومدة لبثهم في الكهف كان من العلامات البارزة في سياق الآيات. فقد ضرب الله على آذانهم بالنوم في الكهف وضرب أي ألقى عليهم النوم.

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى ﴿ **فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ** ﴾أي: أنمناهم. والمعنى: سد الله آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، و ضرب على آذانهم الحجاب تشبيهًا للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها ؛ فمن المعلوم أن أقرب طرق الاستيقاظ للنائم تكون باسماعه صوتًا نداءًا كان أم ضجيجا .

وقد أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وكان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد ثلاثمائة وازدادوا تسعًا. وقوله: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ** ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا﴿ **ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه.

قال الطبري : إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبيّ ﷺ ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيّه أن هذه المدّة في كونهم نيامًا، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه. قال ابن عطية: فقوله على هذا « لبثوا » الأول يريد في نوم الكهف، و« لبثوا » الثاني يريد بعد الإعثار إلى مدة محمد ﷺ ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء .

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ** ﴾ قيل بعد موهم إلى نـــزول القرآن فيهم، على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك. أو إلى وقت تغيّرهم بالبِلَى؛ وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانًا. أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك.

ثم بعثهم الله وأيقظهم من تلك النومة ليظهر ﴿ **أَيُّ الْحِزْبَيْنِ** ﴾ أضبط لما لبثوا. وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، أي: أحصى للبثهم. وكان بقاؤهم على هذه الصفة دهرًا طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة . وقد أثنى سبحانه عليهم بقوله: ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ** ﴾ أي: إلى الحق ﴿ **فَهُوَ الْمُهْتَدِ** ﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ **وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ أي: ناصرًا يهديه إلى الحق.

كما حكى سبحانه طرفًا آخر من غرائب أحوالهم فقال: ﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا** ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿ **وَهُمْ رُقُودٌ** ﴾ أي: نيام، وهو جمع راقد كقعود في قاعد. قيل: وسبب هذا لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ﴿ **لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا** ﴾ ، والفرار: الهرب أي من حالهم وهيئتهم ﴿ **وَلَمُلِئْتَ** ﴾ قرىء بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ **مِنْهُمْ رُعْبًا** ﴾ قرىء بسكون العين وضمها أي: خوفًا يملأ الصدر ، قيل سبب الرّعب : الهيبة التي ألبسهم الله إياها.

وقيل: طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكانهم، وهذا القول غريب يدفعه قوله تعالى مخبرًا عنهم أنهم — الفتية — قد قدروا مدة لبثهم باليوم أو بجزء منه: ﴿ **لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئًا، ولم يجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدّة .

وقد بعثهم الله بقدرته ببعثهم من نومهم، وقدرته على الإماتة والبعث جميعًا، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال: ليتساءلوا بينهم أي: ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ** ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل أي: كم مدّة لبثكم في النوم؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة ، وإن ظنوا أن الأمر لم يكن إلا يومًا أو بعض يوم ﴿ **قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ أي: قال بعضهم جوابًا عن سؤال من سأل منهم، قال بعض المفسرين: إنهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يومًا، فلما

رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم، وكان قد بقيت بقية من النهار، ثم بعثهم الله مرة أخرى وأحياهم بعد طول رقاد كما قال سبحانه ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى** ﴾ هؤلاء الفتية الذين أوَوْا إلى الكهف بعد ما ضرب الله على آذاهم فيه سنين عددا من رقدهم، لينظر في عباده فيعلموا بالبحث، أيُّ الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مُكْث الفتية في كهفهم رقودا أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمَدا وأيهم أصوب لتقدير لبثهم فيه .

ومن عظيم رحمة الله بهم وكرامة منه سبحانه لهم أنه جل وعلا كان يقلبهم على حالتهم في تلك النومة كي لا تبلى أجسادهم أو يصيبها قرح كما هو معروف لمن أصابه مرض يلزمه الفراش فإنه يقلب من جنب إلى آخر محافظة على لحمه وجلده. كما قال تعالى ﴿ **وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ** ﴾ قيل في كل عام يتحولون مرّة من جنب إلى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم.

هذا وقد صحبهم كلب لم يدخل معهم الكهف وإنما رقد أمامه . ﴿ **وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** ﴾ قال شُعَيْبُ الجَبَائي :اسم كلبهم (حمران)، والوصيد اسكفة الباب. وقالوا الوصيد عتبة الباب، والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم، لزمهم و لم يدخل معهم في الكهف، بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به، فإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب، كما صح هذا عن رسول الله ﷺ ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقيًا معهم ببقائهم، لأن من أحب قومًا سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للاكرام. وقد ذكر كثير من القصّاص والمفسّرين لهذا الكلب نبأ وخبرًا طويلاً أكثره متلقى من الاسرائيليات، وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه كاختلافهم في اسمه ولونه.[١]

وأما الرقيم الذي اقترن بأصحاب الكهف فالراجح أنه الكتاب الذي كان القوم الذين منهم كان الفتية كتبوه في لوح بذكر خبرهم وقصصهم ثم جعلوه على باب الكهف الذي

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

أووا إليه أو نقروه في الجبل الذي أووا إليه أو كتبوه في لوح وجعلوه في صندوق خلفوه عندهم إذ أوى الفتية إلى الكهف.

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم: طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين: أحدهما معطوف على الآخر، خلافًا لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى وأن الله قص على نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف و لم يذكر له شيئًا عن أصحاب الرقيم: وخلافًا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف الذي هم فيه، فدعو الله بأعمالهم الصالحة: وهم البار بوالديه، والعفيف، والمستأجر. وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد في هذا المقام فهذا بعيد والله أعلم.

ونرجع إلى الفتية ؛ ففي رواية أنه قدكان لهم في ذلك الزمان ملك يقال له (دقينوس) يعبد الأصنام فيما ذكر عنه، وأكثر المفسرين على أن قوله ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ أي بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان، يزعمون أن اسمه: دقيانوس. فبلغه عن الفتية خلافهم إياه في دينه فطلبهم فهربوا منه بدينهم حتى صاروا إلى جبل لهم يقال له (نيحلوس).

وكان سبب إيمانهم وخلافهم به قومهم فيما رواه عبدالرزاق قال حدثنا معمر قال أخبرني إسماعيل بن سدوس أنه سمع وهب بن منبه يقول جاء حواري عيسى بن مريم إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له إن على بابها صنما لا يدخلها أحد إلا سجد له فكره أن يدخلها فأتى حماما وكان فيه قريبا من تلك المدينة فكان يعمل فيه يؤاجر نفسه من صاحب الحمام ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة ودر عليه الرزق فجعل يعرض عليه الإسلام وجعل يسترسل إليه وعلقه فتية من أهل المدينة وجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة وكان يشرط على صاحب الحمام أن الليل لي لا تحول بيني وبين الصلاة إذا حضرت فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيره الحواري فقال أنت ابن الملك وتدخل ومعك هذه الكذا فاستحيا فذهب فرجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك وسبه وانتهره و لم يلتفت حتى دخل ودخلت معه المرأة فماتا في الحمام جميعا فأتي الملك فقيل له قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه فهرب قال من كان يصحبه فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة

فمروا بصاحب لهم في زرع له وهو على مثل أمرهم فذكروا أنهم التمسوا وانطلق معهم ومعه الكلب حتى أواهم الليل إلى الكهف فدخلوه فقالوا نبيت ها هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله فترون رأيكم فضرب على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف فكلما أراد رجل أن يدخل أرعب فلم يطق أحد أن يدخل فقال قائل أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف فدعهم فيه يموتوا عطشا وجوعا ففعل فغبروا بعدما بنى عليهم باب الكهف زمانا بعد زمان.

ثم إن راعيا أدركه المطر عند الكهف فقال لو فتحت هذا الكهف فأدخلته غنمي من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتحه ودخل فيه ورد الله إليهم أرواحهم في أجسادهم من الغد حين أصبحوا فبعثوا أحدهم بورق يشتري لهم طعاما فكلما أتى باب مدينتهم رأى شيئا ينكره حتى دخل على رجل فقال: بعني بهذه الدراهم طعاما قال ومن أين لك هذه الدراهم قال: خرجت وأصحاب لي أمس فآوانا الليل حتى أصبحوا فأرسلوني فقال: هذه الدراهم كانت على عهد الملك فلان فأنى لك بها فرفعه إلى الملك وكان ملكا صالحا فقال من أين لك هذه الورق قال: خرجت أنا وأصحاب لي أمس حتى أدركنا الليل في كهف كذا وكذا ثم أمروني أن أشتري لهم طعاما قال وأين أصحابك قال في الكهف قال فانطلقوا معه حتى أتوا باب الكهف فقال دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم فلما رأوه ودنا منهم ضرب على أذنه وآذانهم فجعلوا كلما دخل رجل أرعب فلم يقدروا على أن يدخلوا إليهم فبنوا عندهم كنيسة واتخذوها مسجدا يصلون فيه.

هذا وقد جاءت بعض الروايات الأخرى لأصحاب الكهف كما أوردها الطبري أيضًا وغيره فقال: حدثنا الحسن بن يحيى قال حدثنا عبدالرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن عكرمة قال كان أصحاب الكهف أبناء ملوك الروم رزقهم الله الإسلام فتفردوا بدينهم واعتزلوا قومهم حتى انتهوا إلى الكهف فضرب الله على سمعهم فلبثوا دهرا طويلا حتى هلكت أمتهم وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلما واختلفوا في الروح والجسد فقال قائل تبعث الروح والجسد جميعا وقال قائل تبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئا فشق على ملكهم اختلافهم فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد ثم دعا الله عز وجل فقال: يا رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم ما يبين لهم فبعث الله أصحاب الكهف فبعثوا أحدهم

يشتري لهم طعاما فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق ويرى الإيمان بالمدينة ظاهرًا .

فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلا يشتري منه طعاما فلما نظر الرجل إلى الورق أنكرها قال حسبت أنه قال كأنَّها أخفاف الربع يعني الإبل الصغار، قال له الفتى أليس ملككم فلان قال بل ملكنا فلان فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك فسأله فأخبره الفتى خبر أصحابه فبعث الملك في الناس فجمعهم فقال : إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد وإن الله عز وجل قد بعث لكم آية فهذا رجل من قوم فلان يعني ملكهم الذي مضى، فقال الفتى انطلقوا بي إلى أصحابي فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهى إلى الكهف فقال الفتى دعون أدخل إلى أصحابي فلما أبصرهم ضرب الله على أذنه وعلى آذانهم فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئا غير أنها لا أرواح فيها فقال الملك هذه آية بعثها الله لكم.

واتفق أن موت الفتية إنما كان بالكهف بعد ما عثر عليهم ثم: ﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾.

لم يبين الله هنا من هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم، هل هم من المسلمين أو من الكفار؟ وذكر ابن جرير وغيره فيهم قولين: **أحدهما** – أنهم كفار، **والثاني** – أنَّهم مسلمون، وهي قولهم: ﴿ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾ لأن اتخاذ المساجد من صفات المؤمنين لا من صفات الكفار. هكذا قال بعض أهل العلم. ولكن اتخاذ المساجد على القبور من فعل الملعونين على لسان رسول الله ﷺ ، لا من فعل المسلمين.

هذا وقد وقع لكثير من الناس خلط في مسألة اتخاذ مساجد على قبور صالحيهم وقد عمد بعضهم إلى الآية التي مرت معنا في سورة الكهف فاتخذها حجة في بناء المساجد على القبور ، ولا شك أن بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين عين الذي نهى عنه رسول الله ﷺ ، ومما يدل على ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « **إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا**

وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » . اه هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري قريب منه.

والتحقيق الذي لا شك فيه: أنه لا يجوز البناء على القبور ولا تجصيصها. كما رواه مسلم في صحيحه وغيره عن أبي الهياج الأسدي: أن عليًا رضي الله عنه قال له: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**ألا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**» .ولما ثبت في صحيح مسلم وغيره أيضًا عن جابر رضي الله عنه قال: « نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه » . فهذا النهي ثابت عنه ﷺ . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « **وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه** » . وقال جل وعلا: ﴿**وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ**﴾.

وأقول والعلم عند الله : أن اتخاذ المسجد عليهم إنما كان كنيسة كما روى أهل التفسير قد بناها قوم فتية الكهف مظنة تخليد ذكراهم ، وفعلهم هذا جاء في القرآن تقريرًا لعمل القوم لا رضًا بما فعلوا .

❊ وخلاصة القول :-

أن الله أوحى لنبيه محمد ﷺ ليطلعه على قصة أصحاب الكهف وأنّها وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئًا عجبًا بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا، فإن خلقنا للسموات والأرض، وجعلنا ما على الأرض زينة لها، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيدًا جرزًا - أعظم وأوجب مما فعلنا بأصحاب الكهف، ومن كوننا أنمناهم هذا الزمن الطويل، ثم بعثناهم، ويدل لهذا الذي ذكرنا آيات كثيرة: منها أنه قال: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا**﴾ إلى قوله ﴿ **صَعِيدًا جُرُزًا**﴾، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ** ❊ فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلقنا مما هو أعظم منها.

ومنها : أنه يكثر في القرآن العظيم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك، كقوله تعالى: ﴿ **لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ**﴾، وكقوله: ﴿ **ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا**﴾ إلى قوله ﴿ **مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ**﴾ . فالله الذي خلق هذه المخلوقات العظام: كالسماء والأرض وما فيهما فلا عجب في إقامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة، ثم بعثه إياهم، كما هو

واضح. والله أعلم بمراده ومعناه .

فهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى قالوا : إن ربهم هو رب السموات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهًا، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططًا.

فيعلم مما سبق أن أهل الكهف كانوا فتية قد أسلموا لله واتبعوا رسله وكتبه، ولا يعنينا من قريب أو بعيد أي رسول كانوا يتبعون ؛ لأن الدين عند الله الإسلام وإن تعددت الرسل واختلفت أسماء الكتب؛ فدعوة الرسل واحدة وهي عبادة الله وحده لا شريك له هذه هي دعوة الأنبياء والرسل أجمعين؛ فمن آمن بها واعتقدها فعليه أن يتأهب للمشاق والابتلأت .



بعض الفوائد من قصة أهل الكهف

١- إن المرء ليقف طويلاً مسبحًا لله ؛ ممجدًا له حينما يرى المعجزات الربانية تترى؛ وكل منها يقف العقل أمامه عاجزًا غير أن يقول: سبحانك يارب رفعت السماء بغير عمد وبسطت الأرض بلا عون ولا مدد، وأنمت فتية الكهف فلا ينتظرون وأيقظتهم كأنهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، وقلت مُجدت خير قائل ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** ﴾ . فهل قصة أهل الكهف وما فيها من معجزات أعظم من غيرها ؟.: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ** ﴾يعني يامحمد ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتنا عَجَبًا** ﴾ فليس أمرهم عجيبًا في قدرة الله وسلطانه فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

٢- أن التوحيد هوالدين؛ فلا يستقيم دين إمريء إلا بترك ما يعبد من دون الله أحياءًا كانوا أم أمواتا، وما ترك فتية الكهف قومهم وديارهم إلا خوفًا على معنى لا إله إلا الله في قلوبهم وحياتهم ﴿ **إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِه إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هٰؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ﴾ .

٣- أن الإيمان بالله طريق الهداية والإيمان يحصل بالاتباع لسنة محمد ﷺ ؛ فلا يكفي أن يولد المرء من أبوين مسلمين ليحصل له الإيمان وإنما يحصل الإيمان بتصديق القلب وعمل الجوارح بصحيح الاعتقاد. ﴿ **يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِيۤ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلاۤئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا** ﴾. [النساء : ١٣٦] .

٤- أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية؛ فكما هو عليه اعتقاد أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعات وتهذيب النفس ، وإكراهها على ترك المعاصي وتعويدها العبادات فبذلك يحصل إن شاء الله الزيادة الربانية للإيمان ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾. [الكهف : ١٣-١٤] .

٥- إذا بلغ الأمر الإكراه على الكفر فاعتزال الكفار وهجرهم مخافة الفتنة في الدين والفرار إلى الله يعد من الواجبات المتحتمات، وقد يقول القائل ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ الآية . نقول وبالله التوفيق: نعم . ولكن لما الانتظار حتى يبلغ المرء هذا المبلغ .خاصة إذا كان حرًا طليقًا وأرض الله واسعة!! .

٦- إذا بلغ الأمر الإكراه على الكفر فاعتزال الكفار وهجرهم مخافة الفتنة في الدين والفرار إلى الله يعد من الواجبات المتحتمات، وقد يقول القائل ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ الآية . نقول وبالله التوفيق: نعم . ولكن لما الانتظار حتى يبلغ المرء هذا المبلغ.خاصة إذا كان حرًا طليقًا وأرض الله واسعة!!. ﴿ **إِنَّهُم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُم يَرْجُمُوكُم أَوْ يُعِيدُوكُم فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ الآية .

أما إذا كان الأمر معاصي قدكثرت، وفواحش أعلن بها ومحرمات استهين بها. فكل نفس بصيرة عليها ؛ فمن وجد في نفسه لين فليجتنب أهل المعاصي ، ومن كان به جلد فليمض بين الناس داعيًا للخير آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، روى البغويّ عن ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنه قال : « **المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم** » .

وقد ورد عن النبيّ ﷺ أنه قال: العبادة في الهَرْجِ، كهجرةٍ إلىَّ [1].وفي رواية: العبادة في الفتنة... [2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢١٣/٢٠) وقد صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٣٦/٢).

٧- استحباب الهجرة من الأرض التي يجهر فيها بالمعاصي

(لا شك أن الخبثَ إذا ظهر وانتشرت المعاصي وعمت الفتن الطالح منهم والصالح عياذاً بالله!.

فعند هذا استحب السلف الهجرة من أرضٍ تظهر فيها المعاصي جهارًا!.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن نبي الله ﷺ قال: كان في من كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَ على راهبٍ فآتاه فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا. فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله !. فَكَمَّلَ به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَ على رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس. فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا . فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم . ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نَصَفَ (بلغ نصفها) الطريق أتاه الموت . فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مُقبلاً بقلبه إلى الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قطُّ. فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي . فجعلوه بينهم . فقال : قيسوا مابين الأرضين . فإلى أيتها كان أدنى فهوله . فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد . فقبضته ملائكة الرحمة .

قال قتادة : فقال الحسن : ذكر لنا ؛ أنه لما أتاه الموت نأى (نهض) بصدره. متفقٌ عليه[١] .

فدل هذا الحديث على استحباب هجر الأراضي والديار التي تظهر فيها المعاصي والمنكرات ، وفيه استحباب التائب لأخدان وأصحاب السوء المساعدين على ارتكاب المعاصي ، ومقاطعتهم واعتزالهم ما داموا على حالهم السيئة ، واستبدالهم بأصحاب الخير والصلاح . وبهذا ذهب أهل العلم كافة .

يقول النووي - رحمه الله - عند شرحه لهذا الحديث : قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب،والأخدان المساعدين له على ذلك ، ومقاطعتهم ماداموا على حالهم ، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٥٩١) ، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

والمتعبدين الورعين ،ومن يقتدى بهم وينتفعُ بصحبتهم ،وتتأكد بذلك توبته [(١)].

وكذا قال ابن حجر – رحمه الله – : وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية ، لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك، إما لتذكرة لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها ، وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه ، ولهذا قال له الأخير : ولا ترجعً إلى أرضك فإنها أرض سوء ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها والإ شتغال بغيرها... [(٢)].

وأورد القرطبي – رحمه الله – نحوًا من ذلك ثم نقل أقوال العلماء في ذلك فقال: الفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر، وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة، والهرب منها، وهكذا كان الحكم فيمن قبلنا من الأمم كما في قصة السبت حين هجروا العاصين. وقالوا: لا نساكنكم؛ وبهذا قال السلف – رضي الله عنهم – [(٣)].

ثم ذكر ما رواه ابن وهب عن مالك قال: تهجر الأرض التي يُصنع فيها المنكر جهارًا، ولا يستقر فيها.

وقال مالك : لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير حق ، والسب للسلف.

قال أبو عمر ابن عبد البر– رحمه الله– : أما قول مالك هذا، فمعناه إذا وجد بلدًا يعمل فيه الحق في الأغلب، وقد قال عمر بن عبد العزيز: فلان في المدينة، وفلان بمكة، وفلان بالعراق، وفلان بالشام، أمتلئت الأرض والله جورًا وظلمًا !.

قال ابن عبد البر : فأين الهرب إلا إلى السكوت ولزوم البيت، والرضى بأقل قوت؟ [(٤)].

ثم نقل القرطبي أيضًا قول سفيان الثوري، وهو غاية النفاسة، فقال: وكان سفيان الثوري يقول: هذا زمان سوء، لا يؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟ هذا زمان ينتقل فيه الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن!.

---

(١) انظر «شرح مسلم » للنووي (٨٣/١٧) .

(٢) انظر « فتح الباري » لابن حجر (٥٩٨/٦).

(٣) انظر « التذكرة » للقرطبي (٢٠٨/٢).

(٤) انظر «التذكرة » (٢٠٩/٢).

ويُحكى عنه أنه قال: والله مأدري أي البلاد أسكن فقيل له:خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، فقيل : الشام، فقال: يشار إليكم بالأصابع- أراد الشهرة- فقيل له: فالعراق، قال: بلد الجبابرة، فقيل له: فمكة، قال: مكة تُذيب الكيس والبدن [(١)].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي قال: « **يُهْلِكُ أمتي هذا الحيُّ من قريش**» قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: « **لو أن الناس اعتزلوهم** » [(٢)]. متفق عليهم.

وفي شرح هذا الحديث يقول ابن حجر- رحمه الله- : ويؤخذ من هذا الحديث استحباب هجران البلدة التي يقع فيها إظهار المعصية فإنها سبب وقوع الفتن التي ينشأ عنها عموم الهلاك، قال بن وهب عن مالك: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارًا، وقد صنع ذلك جماعة من السلف [(٣)].

وهناك الكثير والكثير من أقوال وأحوال سلفنا القاطعة باستحباب الهجرة من بلاد أهل المعاصي المجاهرين!.

هذا إذا علمنا أن الأرض قد أظلمت بالجور والظلم، ورقة الدين، وقلة الحياء، وانتشار المعاصي ، وتعالن أهل الفساد، وانتشار الرذائل وسفاسف الأمور!.

والحاصل: أنه من خلال ما سبق يتبين لنا استحباب اعتزال وهجر الديار التي تظهر فيها المعاصي والفتن، واستبدالها بديار الإيمان والصلاح ديار المؤمنين الصالحين. والله أعلم)[(٤)] .

تلكم كانت بعض الفوائد انتخلتها من قصة أصحاب الكهف .

(والحمد لله رب العالمين) .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٨/٦) ، ومسلم (٢٩١٧) واللفظ له.

(٣) انظر « فتح الباري » لابن حجر (١٣/١٣)، « والتذكرة » للقرطبي (٢٠٨/٢).

(٤) منقول – بتصرف يسير- من كتاب أحكام المجاهرين بالكبائر للشيخ ذياب الغامدي .

قصة يأجوج ومأجوج وذي القرنين

قال الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۞ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۞ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۞ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۞ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾. وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ .

إن خبر يأجوج ومأجوج قد ذكر في كتب الصحاح والتاريخ بروايات عدة. ماجاء في كتب الصحاح بسند صحيح؛ فهو صحيح إن شاء الله، وماكان ضعيفًا فالذي رواه قد اعتمد على روايات أهل الكتاب.

لا نصدقه كاملاً، ولا نكذبه. إلا ما كان مخالفًا لكتابنا وسنة نبينا فهو واجب الإنكار والتكذيب.

وقد ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ فزع ذات ليلة من نومه لما أوحي إليه في نومه من حالهم ومدى بلوغهم لنقب ردمهم ، واللافت للنظر أن الرسول ﷺ فزع من نومه عندما أوحي إليه أن النقب الذي نقبه يأجوج ومأجوج بلغ مقدار ما حلق بين إصبعية السبابة والإبهام. أي ما بين الأربعة والستة سنتيمترات؛ فماذا لو كان هذا النقب أكبر من هذا

القياس؛ فالله أعلم مبلغ هذا النقب الأن .

فالرواية التي وردت عن رسول الله ﷺ كانت قبل حوالي ألف وأربعمائة عام . وهذه هي الرواية .

فقد روى البخاري في صحيحه قال:حدّثنا أبو اليمان أخبرَنا شعيبٌ عنِ الزُّهريِّ قال: حدَّثني عُروة بنُ الزُّبيرِ أن زينبَ ابنةَ أبي سلمةَ حدَّثَتْهُ أنَّ أمَّ حَبيبة بنتَ أبي سفيانَ حدَّثَتْها عن زينبَ بنتِ جَحش: « أنَّ النبيَّ ﷺ دَخل عليها فزعًا يقول: « **لا إلهَ إلا الله، ويلٌ للعرَبِ من شرٍ قد اقترَب: فُتِحَ اليومَ من رَدم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذا. وحلَّقَ بإصبعه وبالتي تليها** » . فقالت زينبُ: فقلتُ يا رسولَ الله أنَهلكُ وفينا الصالحون ؟ قال: « **نعم، إذا كثرَ الخَبَث** » ».[1]

المتأمل في الحديث السابق يلحظ أن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها لما رأت فزع الرسول ﷺ عند ذكر نقب يأجوج ومأجوج؛ لم تسأله أم المؤمنين رضي الله عنها عن كثير إيضاح ولكن علمت أنهم من علامات الهلاك ومن علامات فتنة هذه الأمة؛ فسألته مباشرة « أنهلك وفينا الصالحون » .

فقد استيقظ النبي ﷺ من النوم محمرا وجهه فزعا، وكانت حمرة وجهه من ذلك الفزع، وخص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالت الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة كما وقع في الحديث الآخر « **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها** » وأن المخاطب بذلك العرب، قال القرطبي: ويحتمل أن يكون المراد بالشر ما أشار إليه في حديث أم سلمة « ماذا أنـــزل الليلة من الفتن وماذا أنـــزل من الخزائن » فأشار بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده فكثرت الأموال في أيديهم فوقع التنافس الذي جر الفتن، وكذلك التنافس على الإمرة، فإن معظم ما أنكروه على عثمان تولية أقاربه من بني أمية وغيرهم حتى أفضى ذلك أن قتله، وترتب على قتله من القتال بين المسلمين ما اشتهر واستمر.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٣٥٢٠) .

هل الترك من يأجوج ومأجوج؟

اختلف في أصل الترك، فقال الخطابي: هم بنو قنطوراء أمة كانت لإبراهيم عليه السلام وقال كراع: هم الديلم وتعقب بأهم جنس من الترك، وكذلك الغز وقال أبو عمرو: هم من أولاد يافث وهم أجناس كثيرة وقال وهب بن منبه، هم بنو عم يأجوج ومأجوج، لما بنى ذو القرنين السد كان بعض يأجوج ومأجوج غائبين فتركوا لم يدخلوا مع قومهم فسموا الترك وقيل أهم من نسل تبع، وقيل من ولد أفريدون بن سام بن نوح، وقيل ابن يافث لصلبه، وقيل ابن كومي بن يافث ذكر فيه حديثين أحدهما حديث عمرو بن تغلب بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام بعدها موحدة، والحسن هو البصري، والإسناد كله بصريون. حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَان حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ قَالَ : سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ قَالَ :قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا يَنْتَعِلُونَ نِعَالَ الشَّعَرِ وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا عِرَاضَ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ** » .

فالصحيح أهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاهم. وقد قال النبي ﷺ: « **إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُه سِتُّونَ ذِرَاعًا** » ثم « **لَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ** » وهذا فيصل في هذا الباب.

وفي الحديث المروي في المسند والسنن أن نوحًا ولد له ثلاثة وهم: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان ويافث أبو الترك، فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك، وهم مغل المغول، وهم أشدّ بأسًا وأكثر فسادًا من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه. فلهذا قيل لهم الترك.

❊ ❊ ❊

هيئة القوم وسمتهم

ورد في جمع من كتب السنن أوصاف لخلقة يأجوج ومأجوج ، وأن خلقتهم تختلف عن الخلقة المألوفة للعرب أو الفرس أو الروم ؛ فقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب إصبعه من لدغة عقرب، فقال: « **إنكم تقولون لا عدوّ، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوًّا حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه، صغار العيون، شهب الشعاف، من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة** » .

فلا شك أن يأجوج ومأجوج في زمان خروجهم يشكلون فتنة كبيرة وابتلاءً عظيمًا للمسلمين؛ وإليك أخي الكريم بعض الروايات التي وردت في ذكرهم .

ورد عن أبي سعيد أنه قال : تُفْتَحُ يأْجُوجُ ومأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ على النَّاسِ كما قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴾ فَيَغْشَوْنَ النَّاسَ وَيَنْحازُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إلى مَدائنِهِمْ وَحُصونِهِمْ ويَضُمُّونَ إلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ وَيَشْرَبونَ مياهَ الأَرْضِ حَتَّى إنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَ ما فيه حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَبَسًا حَتَّى أنَّ مَنْ يَمُرُّ مِنْ بَعْدِهِمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرَ فَيَقُولُ قَدْ كانَ هٰهنا ماءٌ مَرَّةً حَتَّى إذا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أحَدٌ إلاَّ أحَدٌ في حِصْنٍ أوْ مَدينَة قالَ قائلُهُمْ هٰؤلاءِ أهْلُ الأَرْضِ قَدْ فَرَغْنا مِنْهُمْ بَقِيَ أهْلُ السَّماءِ ثُمَّ يَهُزُّ أحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بها إلى السَّماءِ فَتَرْجِعُ إلَيْه مُخْتَضَبَةً دَمًا لِلبَلاءِ والفِتْنَة فَبَيْنَما هُمْ على ذَلِكَ إذْ بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دُودًا في أعْنَاقِهِمْ كَنَغَفِ الجَرَادِ الَّذي يَخْرُجُ في أعْنَاقِه فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لا يُسْمَعُ لَهُمْ حِسٌّ فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ ألاَ رَجُلٌ يَشْري لنا نَفْسَهُ فَيَنْظُرُ ما فَعَلَ هَذا العَدُوُّ فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسبا نَفْسَهُ قَدْ أَوْطَنَها على أنَّهُ مَقْتُولٌ فَيَنـــزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ فَيُنادي يا مَعْشَرَ الْمُسْلِمينَ ألا أَبْشِرُوا إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قَدْ كَفاكُمْ عَدُوَّكُمْ فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائنِهِمْ وحُصُونِهِمْ ويُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ فَما يَكُونُ لَهُمْ مَرْعًى إلَّا لحومَهُمْ فَتَشْكَرُ عَنْهُ كَأَحْسَنِ ما شَكِرَت عن شَيْءٍ مِنَ النَّباتِ أصابَتْهُ قَطُّ .

ويأجوج ومأجوج من أمارات الساعة وعلامات القيامة التي تواترت كتب السنة بها؛ بل من العلامات الكبرى والأشراط العظمى، تلكم العلامات التي إذا استوفت أجلها قامت

القيامة ولا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل ؛ فأول الآيات ظهور الدجال ثم نـــزول عيسى عليه الصلاة والسلام ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها وذلك لأن الكفار يسلمون في زمان عيسى عليه السلام حتى تكون الدعوة واحدة فلو كانت الشمس طلعت من مغربها قبل خروج الدجال ونـــزل عيسى لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدًا.

وهؤلاء القوم – يأجوج ومأجوج – ينسلون نسلاً كثيرًا ويتكاثرون تكاثرًا لم يعهد أن عُرف عبر تاريخ الأمم والشعوب ، فقد ورد عن أوس بن أَوْس رضيَ اللَّهُ عنهُ أنه قال : قالَ النَّبيُّ ﷺ : « **إنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَهُمْ نساءٌ يُجَامِعُونَ مَا شَاؤُوا ، وَشَجَرٌ يُلقحُونَ مَا شَاؤُوا ، فَلاَ يَمُوتُ مِنهُمْ رَجُلٌ إلاَّ تَرَكَ مِنْ ذُرِيَتِه أَلْفًا فَصَاعِدًا** » (1).

ومن هنا كان قول الله تبارك وتعالى ﴿ **مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ** ﴾ ، فنسلهم له وظيفة دنيوية قد قدرها المولى تبارك وتعالى؛ لعل هذه الحكمة في أهم من فتن آخر الزمان؛ فيكون حالهم وهيئتهم ونسلهم وبأسهم غير المألوف والمعتاد، وقد يستعلمهم الله جل وعلا ويسخرهم لإنفاذ أقداره وما كتبه على البلاد والعباد، وقد يكون هذا وذاك؛ فالله أعلم بمراده ومقصده.

فقد جاء في« الأوسط » للطبراني من حديث حذيفة رفعه قال : « يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعمائة ألف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح » .

ولكن من الثابت أن هذا النسل هو غالب أهل النار – عفانا الله والمسلمين – الذين يملئون جهنم وهم بعثها، وهم فداء المؤمنين والمسلمين؛ فكما ورد في الحديث النبوي عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : « **يقول اللَّهُ تعالى : يا آدم ! فيقول : لبَّيْك وسعديك ، والخير كله في يديك . قال : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّار . قال : وما بَعثُ النار ؟ قال : من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعةً وتسعينَ ، فعنده يشيب الصغير ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾** » . قالوا : يا رسولَ اللَّه؟ وأيُّنا ذلكَ الواحدُ؟ قال : «**أبشِروا فإنَّ منكم رجلاً ، ومَنْ يأجوجَ ومأجوجَ ألف**» . ثمَّ قال : « **والذي**

---

(1) جامع الأحاديث والمراسيل (٢ / ٣٨٢) .

نفْسي بيدِه أرجو أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجنَّة » فكبَّرنا. فقال : « أرجو أنْ تكونوا ثُلثَ أهل الجنةِ » فكبَّرنا. فقال : « أرجو أن تكونوا نصفَ أهلِ الجنَّة » . فكبَّرنا. قال : « ما أنتم في الناسِ إلاَّ كالشَّعرةِ السَّوداءِ في جلدِ ثورٍ أبيضَ ، أو كشعرة بَيضاءَ في جلدِ ثورٍ أسوَد » [1] .

* * *

---

(١) مشكاة المصابيح (٥/ ٩٤٤) .

خبر يأجوج ومأجوج وذي القرنين

روى الطبري عن عقبة بن عامر قال: كنت يوما أخدم رسول الله ﷺ ، فخرجت من عنده، فلقيني قوم من أهل الكتاب، فقالوا: نريد أن نسأل رسول الله ﷺ ، فاستأذن لنا عليه، فدخلت عليه، فأخبرته، فقال: « **مالي وما لهم، مالي علم إلا ما علمني الله** » ، ثم قال: « **اسكب لي ماء** » ، فتوضأ ثم صلى، قال: فما فرغ حتى عرفت السرور في وجهه، ثم قال: « **أدخلهم عليّ، ومن رأيت من أصحابي** » فدخلوا فقاموا بين يديه، فقال: « **إن شئتم سألتم فأخبرتكم عما تجدونه في كتابكم مكتوبا، وإن شئتم أخبرتكم** » ، قالوا: بلى أخبرنا، قال: « **جئتم تسألوني عن ذي القرنين، وما تجدونه في كتابكم: كان شابا من الروم، فجاء فبنى مدينة مصر الإسكندرية فلما فرغ جاءه مَلَك فعلا به في السماء، فقال له ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي ومدائن، ثم علا به، فقال: ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي، ثم علا به فقال: ما ترى؟ قال: أرى الأرض، قال: فهذا اليم محيط بالدنيا، إن الله بعثني إليك تعلم الجاهل، وتثبت العالم، فأتى به السدّ، وهو جبلان لينان يَزْلَق عنهما كل شيء، ثم مضى به حتى جاوز يأجوج ومأجوج، ثم مضى به إلى أمة أخرى، وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج، ثم مضى به حتى قطع به أمة أخرى يقاتلون هؤلاء الذين وجوههم وجوه الكلاب، ثم مضى حتى قطع به هؤلاء إلى أمة أخرى قد سماهم** » .

كما جاء عن حُذيفة بن اليمان أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **أوَّلُ الآيات: الدَّجَّالُ، وَنــزولُ عيسَى، وَنارٌ تَخرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ أَبْيَنَ، تَسُوق النَّاسَ إلى المَحْشَرِ، تَقيلُ مَعَهُمْ إذا قالُوا. والدُّخانُ، والدَّابَّةُ، ثُمَّ يَأْجُوجُ ومَأْجَوجُ** » قال حُذيفة: قلت: يا رسول الله، وما يأجوج ومأجوج؟ قال: « **يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ أُمَمٌ، كُلُّ أُمَّة أرْبَعُ مئَة ألف، لا يَمُوتُ الرَّجُلُ منْهُمْ حتى يَرَى ألْفَ عَيْنٍ تَطْرِفُ بينَ يَدَيْه منْ صُلْبه، وَهُمْ وَلَدُ آدَمَ، فَيَسيرُونَ إلى خَرَابِ الدُّنْيا، يَكُونُ مُقَدِّمَتُهُمْ بالشَّامِ وَساقَتُهُمْ بالعِرَاق، فَيَمُرُّونَ بأنهار الدُّنيا، فَيَشْرَبُونَ الفُرَاتَ والدَّجْلَةَ وبُحَيْرَةَ الطَّبَرِيَّة حتى يَأْتُوا بَيْتَ المَقْدسِ، فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنا أَهْلَ الدُّنْيا فَقاتلُوا مَنْ في السَّماء، فَيَرمَونَ بالنُّشَّابِ إلى السَّماء، فَترْجِعُ نُشابُهُمْ مُخَضَّبَةً بالدَّم، فَيَقُولُونَ قَدْ قَتَلْنا مَنْ في السَّماء، وَعِيسَى والمُسْلِمُونَ بِجَبَلِ طُورِ سِينِينَ، فَيُوحِي اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ إلى عِيسَى: أنْ أحْرِزْ عِبادي بالطُّورِ وَما**

يَلي أيْلَةَ ثُمَّ إنَّ عيسَ يَرْفَعُ رأسَهُ إلى السَّماء، وَيُؤَمِّنُ المُسْلمونَ فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَابَّةً يُقالُ لَهَا النَّغَفُ، تَدْخُلُ منْ مَناخِرِهِمْ فَيُصْبِحونَ مَوْتَى مِنْ حاقِ الشَّام إلى حاقِ العِراق، حتى تَنْتَنَ الأَرْضُ مِنْ جيفهِمْ ويَأْمُرُ اللَّهُ السَّماءَ فتُمْطِرُ كأفْوَاهِ القِرَبِ، فَتَغْسِلُ الأَرْضَ مِنْ جِيَفِهِمْ وَنَتْنِهِمْ، فَعِنْدَ ذلكَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها » .

والنَّغَفُ بفتحتين وغين معجمة الدود الذي يكون في أُنوف الإبل والغنم الواحدة نَغَفَةٌ بفتحتين أيضا قال أبو عبيد وهو أيضا الدود الأبيض الذي يكون في النوى إذا أُنقع[1].

❊ ❊ ❊

(١) مختار الصحاح ن غ ف .

لماذا سمي بذي القرنين؟

واختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله قيل لذي القرنين: ذو القرنين، فقال بعضهم: قيل له ذلك من أجل أنه ضُرِب على قَرنه فهلك، ثم أُحْيِي فضُرب على القرن الآخر فهلك. سأل ابن الكوّاء عليًا عن ذي القرنين، فقال: هو عبد أحبّ الله فأحبه، وناصح الله فنصحه، فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قَرْنه فقتلوه، ثم بعثه الله، فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين.

❊ ❊ ❊

هل ذو القرنين نبي أم ملك؟

جاءت بعض الروايات أن ذا القرنين من الأنبياء ، وبعض الروايات جاء فيها أنه كان عبدًا صالحًا؛ فقد روى الطبري حديثًا بهذا الشأن فقال: حدثنا محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد ابن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّة، عن أبي الطفيل، قال: سمعت عليًّا وسألوه عن ذي القرنين أنبيًّا كان؟ قال: كان عبدًا صالحًا، أحبّ الله فأحبه، وناصَحَ الله فنصحه، فبعثه الله إلى قومه، فضربوه ضربتين في رأسه، فسمي ذا القرنين، وفيكم اليوم مثله.

أخرج الحاكم من حديث أبي هريرة قال النبي ﷺ: « **لا أدري ذو القرنين كان نبيا أو لا** »، وذكر وهب في « المبتدأ » أنه كان عبدًا صالحًا وأن الله بعثه إلى أربعة أمم أمتين بينهما طول الأرض وأمتين بينهما عرض الأرض وهي ناسك ومنسك وتأويل وهاويل، فذكر قصة طويلة حكاها الثعلبي في تفسيره.

وقال الزبير في أوائل: « كتاب النسب » حدثنا إبراهيم بن المنذر عن عبد العزيز بن عمران عن هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل سمعت ابن الكوا يقول لعلي بن أبي طالب: أخبرني ما كان ذو القرنين قال: كان رجلاً أحب الله فأحبه، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله إليهم فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله فسمي ذو القرنين، وزاد: وناصح الله فناصحه، وفيه لم يكن نبيا ولا ملكًا.

وقيل: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها، وقيل: لأنه ملكهما وقيل: رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس، وقيل: كان له قرنان حقيقة، وهذا أنكره علي في رواية القاسم بن أبي بزة، وقيل: لأنه كان له ضفيرتان تواريهما ثيابه، وقيل: لأنه كانت له غديرتان طويلتان من شعره حتى كان يطأ عليهما، وتسمية الضفيرة من الشعر قرنا معروف ومنه قول أم عطية : « وضفرنا شعرها ثلاثة قرون » ومنه قول جميل : « فلثمت فاها آخذا بقرونها » وقيل: لأنه عمر حتى فني في زمنه قرنان من الناس، وقيل: لأن قرني الشيطان عند مطلع الشمس وقد بلغه، وقيل: لأنه كان كريم الطرفين أمه وأبوه من بيت شرف، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعًا.

وقال الطبري: هو إسكندروس بن فيلبوس وقيل فيلبس وبالثاني جزم المسعودي، وقيل: اسمه الهميسع ذكره الهمداني في كتب النسب قال: وكنيته أبو الصعب وهو ابن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وقيل: ابن عبد الله بن قرين بن منصور بن عبد الله بن الأزد، وقيل: بإسقاط عبد الله الأول، وأما قول ابن إسحاق الذي حكاه ابن هشام عنه أن اسم ذي القرنين مرزبان بن مردية، بدال مهملة وقيل: بزاي فقد صرح بأنه الإسكندر، ولذلك اشتهر على الألسنة لشهرة السيرة لابن إسحاق.

وقد ورد عن ابن عبَّاس، قال: كان ذو القرنين ملكًا صالحًا رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه، وكان منصورًا وكان الخَضِر وزيره . وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدّمة جيشه، وكان عنده بمنـــزلة المشاوِر الذي هو من الملك بمنـــزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم. وقد ذكر الأزْرَقِي وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرّمة هو وإسماعيل عليه السلام.

وذو القرنين المذكور في القرآن المذكور في ألسنة الناس بالإسكندر ليس الإسكندر اليوناني، فإنه مشرك ووزيره أرسطاطاليس، والإسكندر المؤمن الذي ذكره الله في القرآن اسمه: عبد الله بن الضحاك بن معد، قاله ابن عباس، ونسب هذا القول أيضًا إلى علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن قحطان، وقد جاء في حديث: أنه من حمير وأمه رومية، وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله، وذكر ابن هشام: أن اسمه الصعب بن مراثد وهو أول التبابعة وقال مقاتل من حمير وفد أبوه إلى الروم فتزوج امرأة من غسان فولدت له ذا القرنين عبدًا صالحًا، وقال وهب بن منبه: اسمه الاسكندر.

قلت: ومن هنا يشارك الإسكندر اليوناني في الاسم، وكثير من الناس يخطئون في هذا ويزعمون أن الإسكندر المذكور في القرآن هو الإسكندر اليوناني، وهذا زعم فاسد، لأن الإسكندر اليوناني الذي بنى الإسكندرية كافر مشرك، وذو القرنين عبد صالح ملك الأرض شرقًا وغربًا.

وحكى السهيلي أنه قيل: إنه رجل من ولد يونان بن يافث اسمه هرمس ويقال هرديس، وحكى القرطبي المفسر تبعا للسهيلي أنه قيل إنه أفريدون، وهو الملك القديم للفرس الذي قتل

الضحاك الجبار الذي يقول فيه الشاعر: فكأنه الضحاك في فتكاته بالعالمين وأنت أفريدون وللضحاك قصص طويلة ذكرها الطبري وغيره.

والذي يقوي أن ذا القرنين من العرب كثرة ما ذكروه في أشعارهم، قال أعشى بني ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاويا   بالحنو في جدث هناك مقيم

والحنو بكسر المهملة وسكون النون في ناحية المشرق، وقال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه   ألفين أمسى بعد ذاك رميما

وقال قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا   باللحد بين ملاعب الأرياح

وقال تبع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما   ملكا تدين له الملوك وتحشد

من بعده بلقيس كانت عمتي   ملكتهم حتى أتاها الهدهد

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذي القرنين من اليمن يخاطب قوما من مضر:

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه كالتبعين   في الجاهلية لاسم الملك محتملا

وذي القرنين يقبله   أهل الحجا وأحق القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي ابن الصحابي:

ومن ذا يعادينا من الناس معشر   كرام وذو القرنين منا وحاتم

ووقع ذكر ذي القرنين أيضا في شعر امرئ القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد وغيرهم، وأخرج بسنده عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران، سليمان النبي عليه السلام وذو القرنين ونمرود وبختنصر، ورواه وكيع في تفسيره عن مجاهد قال: ملك الأرض أربعة هم : سليمان النبي عليه السلام وذو القرنين ونمرود وبختنصر.

❊ وخلاصة القول :-

أن ذا القرنين اسمًا كان أم صفة فقد كانت له سمات خاصة وقدرات فائقة، وقد رزقه الله ما لم يعط لغيره – في زمانه — من أسباب القوة والغلبة والانتصار، وهو من عباد الله الصالحين نبيًا كان أم ملكًا؛ مؤمنًا مسلمًا. وفي عهده انتشر العدل والصدق وكثرت الخيرات. وقد أورد البخاري في صحيحه ما يدل على أن عهده كان زمان خير وصلاح ما رواه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : « **اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عقَارًا لَهُ فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذي اشْتَرَى العقَارَ فِي عُقَارِه جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ: لَهُ الَّذي اشْتَرَى العقارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي إنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْض وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَال الَّذي لَهُ الأَرْضُ : إنَّمَا بعْتُكَ الأَرْضَ وَما فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذي تَحَاكَمَا إلَيْه: بأَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قال أَحَدُهُمَا : لِي غُلاَمٌ، وَقَالَ الآخَر : لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: انْكِحُوا الغُلاَمَ الجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أنْفُسِهِمَا مِنْهُ، وَتَصَدَّقَا** » . هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. وقد روى أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين.

وقال إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدأ » : أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملكه وعماله بنفسه، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلاّ أنكر ذلك عليه، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه. قال فبينما هو يسير متنكرًا في بعض المدائن، فجلس إلى قاضٍ من قضاهم أيامًا لا يختلف إليه أحد في خصومة، فلما أن طال ذلك بذي القرنين و لم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضي، وهمّ بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه، فادعى أحدهما فقال: أيها القاضي إني اشتريت من هذا دارًا عمّرتها ووجدت فيها كنـــزا، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليّ، فقال له القاضي: ما تقُول؟ قال: ما دفنت وما علمت به، فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي: أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث أجبت، فقال القاضي: تفر من الشر وتدخلني فيه ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك. فقال القاضي: هل لكما أمرًا نصفًا مما دعوتماني إليه، قالا: نعم. قال: للمدعي ألك ابن؟ قال: نعم، وقال للآخر ألك ابنة؟ قال: نعم. قال: اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزّهما من هذا المال، وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا مليا بخيره وشره. فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك، ثم قال للقاضي: ما ظننت أن في الأرض أحدًا يفعل مثل هذا، أو قاضٍ يقضي بمثل هذا. فقال القاضي وهو لا

يعرفه: وهل أحد يفعل غير هذا؟ قال ذو القرنين : قال نعم ، قال القاضي : فهل يمطرون في بلادهم فعجب ذو القرنين من ذلك ، وقال : بمثل هذا قامت السموات والأرض .

وقد آتاه الله خيرًا كثيرًا وعلمًا وفيرة وسخر له من أسباب الفوة ما لم يسخر لغيره فقد بلغ ذو القرنين المشق والمغرب وسخر له الله السحاب و بسط له النور.

❊ ❊ ❊

هل رأسه من نحاس؟

روى الطبري بسنده عن وهب بن منبه اليماني، قال: إنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس. والله أعلم بصحة تلك الرواية.

وقد مَكَّن الله لَهُ في الأرْضِ وآتاه مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سبَبا، وقد اختلف في معنى كلمة: سببًا فقيل: يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به، وقيل: وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سبَبا: أي علمًا.

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة أن الله مد لذي القرنين من أسباب القوة ما تمكنه من بلوغ أسباب النصر والتمكين. قيل لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كيف بلغ ذو القرنين المشرق والمغرب، قال: سخر له السحاب وبسط له النور ومدّ له الأسباب، ثم قال: أزيدك؟ قال: حسبي.[١]

وقيل: علم كلّ شيء. وقوله: فَأَتْبَعَ سبَبا اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة: « فاتَّبع » بوصل الألف، وتشديد التاء، بمعنى: سلك وسار، من قول القائل: اتَّبعتُ أثر فلان: إذا قفوته وسرت وراءه ،ثم سار ذو القرنين طرقا ومنازل.

حتى إذَا بَلَغَ ذو القرنين مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ، فاختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قرّاء المدينة والبصرة: في عَيْنٍ حَمِئَةٍ بمعنى: أنها تغرب في عين ماء ذات حمأة، وقرأته جماعة من قراء المدينة، وعامَّة قرّاء الكوفة: « في عَيْنٍ حَامِيَةٍ » يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة. واختلف أهل التأويل في تأويلهم ذلك على نحو اختلافَ القرّاء في قراءته.

قال ابن عباس وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ أي: في طين أسود.

وروي أن عبد الله بن عباس سمع قرأة معاوية هذه الآية، فقال: « عَيْن حامِيَة » فقال ابن عباس: إنها عين حمئة، قال: فجعلا كعبا بينهما، قال: فأرسلا إلى كعب الأحبار، فسألاه، فقال كعب: أما الشمس فإنها تغيب في ثأط، فكانت على ما قال ابن عباس، والثأط: الطين. وقال كعب الأحبار: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة حديث برقم (٢٧٦٥٠).

وقال آخرون: بل هي تغيب في عين حارّة. فقد روي عن الحسن البصري قوله: « **فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ** » قال: حارّة. أي ساخنة

وأقول والله أعلم: أن (حمئة) و (حامية) إنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار، ولكلّ واحدة منهما وجه صحيح ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مفسد أحدهما صاحبه، وذلك أنه جائز أن تكون الشمس تغرب في عين حارّة ذات حمأة وطين، فيكون القارىء في عين حامية وصفها بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارىء في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها وهي أنها ذات حمأة وطين. وقد رُوي بكلا صيغتيها.

وقد نظر رسول الله ﷺ ذات يوم إلى الشمس حين غابت ، فقال : «**فِي نارِ اللَّهِ الحامِيَةِ، فِي نارِ اللَّهِ الحامِيَةِ، لَوْلا ما يَزَعُها مِنْ أمْرِ اللَّهِ لأَحْرَقَتْ ما عَلى الأَرْضِ**».

وروى خيثمة بن سليمان من طريق جعفر الصادق عن أبيه: أن ذا القرنين كان له صديق من الملائكة، فطلب منه أن يدله على شيء يطول به عمره فدله على عين الحياة وهي داخل الظلمة، فسار إليها والخضر على مقدمته فظفر بها الخضر ولم يظفر بها ذو القرنين،والرواية هذه فيها نظر والله أعلم.

﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ**﴾ أي: إما أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويذعنوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم ﴿ **وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**﴾ أي: وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد.

ثم سار وسلك ذو القرنين طرقا ومنازل، ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۞ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا**﴾.

وجد ذو القرنين الشمس تطلع على قوم لم يجعل الله لهم من دونها سترا، وذلك أن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يَسْرُبون في الأسراب. وكانت أرضهم لا تحتمل البناء، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تغوروا في الماء، فإذا غربت خرجوا يتراعون، كما ترعى البهائم،

وعن ابن جريج قال: لم ينوا فيها بناء قَطّ، ولم يُبْنَ عليهم فيها بناء قَطّ، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس دخلوا أسرابا لهم تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل، وجاءهم جيش مرّة، فقال لهم أهلها: لا تطلُعَنّ عليكم الشمس وأنتم بها،

فقالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جِيفَ جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا، قال: فذهبوا هاربين في الأرض.

وقد أحاط الله بما عند مطلع الشمس علما، لا يخفى عليه مما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم، شيء.

فقد كان مكانهم ومعيشتهم فيما ذُكر؛ بين جبلان سدّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادّ غوائلهم وعيثهم عنهم. قال ابن عباس: « حَتَى إذَا بَلَغَ بينَ السَّدَّيْنِ » قال: الجبلين الردم الذي بين يأجوج ومأجوج، أمتين من وراء ردم ذي القرنين، قال: الجبلان: أرمينية وأذربيجان.

فوَجَدَ مِنْ دُونهما- السدّين- قَوْما لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْل على اطلاقه، وقيل لا يكادون يفقهون قول القائل سوى كلامهم.

فمن الجائز أن يكونوا لا يكادون يفقهون قولاً لغيرهم عنهم، فيكون صوابا القراءة بذلك. وجائز أن يكونوا مع كونهم كذلك كانوا لا يكادون أن يفقهوا غيرهم لعلل: إما بألسنتهم، وإما بمنطقهم، فتكون القراءة بذلك أيضا صوابا.

فلما بلغ ما بين السدين قال له اتباعه، القوم الذين طلبوا منه النصرة: إن يأْجُوجَ ومَأْجُوجَ يُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ.

اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى : **﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْض﴾** فاختلفوا في معنى الإفساد الذي وصف الله به هاتين الأمتين، فقال بعضهم: كانوا يأكلون الناس، وقيل أنه الزنا الذي استشرى بينهم وفشوا الفواحش فيهم واستحلالهم المحارم، وقيل أنه الظلم والبغي والعدوان والطغيان إما بينهم، وإما على غيرهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن يأجوج ومأجوج سيفسدون في الأرض، لا أنهم كانوا يومئذ يفسدون. أي أن سوف يفسدون .

فقال لهم ذو القرنين: الذي مكنني وقد أدغمت إحدى النونين في **(ما مكني)** في الأخرى، وإنما هو ما مكنني فيه من عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم هو ربي، فمهده لي، ووطأه لي، وقوّاني عليه، خير من عطائكم ومالكم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوّة، وأعينوني بفَعلة وصناع يُحسنون

البناء والعمل، وبرجال أجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْما، أي أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما. والردم: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع منه وأشدّ.

هذا وقد ورد عن عمرو بن قيس أنه قال: بلغنا أن ملكا دون الردم يبعث خيلاً كل يوم يحرسون الردم لا يأمن يأجوج ومأجوج أن تخرج عليهم.

فلما انتهى ذو القرنين واتباعه إلى المكان الذي وجدوا فيه يأجوج ومأجوج، واستقر له أمر بناء الردم ليمنع استشراء فسادهم، وجورهم؛ فوضع تصميمًا الردم، أوقل الحاجز المنيع الذي لم يعهد مثله من قبل، ولا من بعد إلى يومنا هذا؛ فالسدود والحواجز المعهودة منذ القدم إلى الأن لم تبلغ مبلغ الردم الذي بلغه ردم ذي القرنين؛ ولعل ذلك من الأسباب التي منحها الله جل وعلا، والعلم الذي علمه ربه له؛ وبدأ العمل وشمر كل عن ساعديه آخذًا بأسباب القوة التي يجب أن يسلكها كل مؤمن .

وقد وقفت عند هذه المرحلة من مراحل مواجهة ذي القرنين واتباعه ليأجوج ومأجوج بالنظرة والاعتبار؛ فإنه كان من السهل اليسير على عبد صالح أو نبي — في أحد الأقوال– أن يلزم الدعاء ويتضرع إلى الله بأن يهلك عدوه خاصة وأن يأجوج ومأجوج أهل طغيان وفساد، وأن ذا القرنين واتباعه من أهل الإسلام والإيمان، ولكن المؤمن يستعن بالله (الأسباب الشرعية)،ويَجدُّ ويجتهد بعقله وأركانه (الأسباب الكونية)، وقد ورد عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: « **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللّه مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلَ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللّه. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا لم يُصبني كذا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللّهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ** » [1].

ونرجع إلى ذي القرنين؛ فلما سألوه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا أمر من معه بأن يجمعوا له زُبَر الحديد، وهي جمع زُبْرة، والزُّبْرة: القطعة من الحديد. حتى إذَا ساوَى بينَ الصَّدفَيْنِ أي حتى إذا ساوى بين الجبلين وهما من قبل أرمينية وأذربيجان بما جعل بينهما من زُبر الحديد،. ويقال: سوّى. والصدفان: ما بين ناحيتي الجبلين ورؤوسهما.

وقوله: حتى إذَا جَعَلَهُ نارا فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارا قالَ آتونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قطْرا.أي أصبّ عليه قطرا، والقِطْر: النُّحاس أي ليقوي الحديد بالنحاس

---

(١) صحيح مسلم حديث برقم (٦٧٢٥) .

وليلزمه به.

﴿ آتوني زُبَرَ الْحَديد حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾

ذكر ابن عساكر خبرًا مطوّلاً جدًا فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناقيل فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عينًا يقال لها عين الحياة؟ فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها، وجعل الخضر على مقدّمته، فانتهى الخضر إليها في واد في أرض الظلمات، فشرب منها و لم يهتد ذو القرنين إليها. وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك، وأنه أعطاه حجرًا، فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزنها، حتى سأل الخضر فوضع قباله حجرًا وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به. وقال هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريمًا له وإعظامًا والله أعلم.

ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٦ - ٨٧] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٨] فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة، وعطف عليه الإحسان منه إليه. وهذا هو العدل والعلم والإيمان قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٩] أي سلك طريقًا راجعًا من المغرب إلى المشرق، فيقال إنه رجع في ثنتي عشر سنة ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أي سلك طريقًا راجعًا من المغرب إلى المشرق، فيقال إنه رجع في ثنتي عشر سنة ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [الكهف : ٩٠] أي ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حرّ الشمس. قال كثير من العلماء: ولكن كانوا يأوون إذا اشتدّ عليهم الحرّ إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور، قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف : ٩١] أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كلّه من مغارب الأرض إلى مشارقها. وقد رُوِيَ عن عُبَيْدِ بن عُمَيْر وابنه عبد الله وغيرهما من

السلف: أن ذو القرنين حجّ ماشيًا. فلّما سمع إبراهيم الخليل بقدومه تلقّاه، فلّما اجتمعا دعا له الخليل ووصّاه بوصايا، ويقال إنه جيء بفرس ليركبها فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فسخّر الله له السحاب وبشّره إبراهيم بذلك، فكانت تحمله إذا أراد . وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سببًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** ﴾ يعني غشمًا.

وقيل أهم لايفقهون قول القائل أي كان هو ، وقيل لا يفقهون غير لغتهم ولساهم، والله أعلم .

ويقال إهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدّوا عليهم، وأفسدوا في بلادهم، وقطعوا السبل عليهم، وبذلوا له حملاً وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزًا يمنعهم من الوصول إليهم، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خيرٌ** ﴾ [الكهف : ٩٥] ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبني بينهم وبينهم سدًّا، وهو الردم بين الجبلين، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلاّ من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة، فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب. وقيل الرصاص، والصحيح الأول فجعل بدل اللبن حديدًا، وبدل الطين نحاسًا. ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظهَرُوه** ﴾ أي يعلوا عليه بسلالم ولا غيرها ﴿ **وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ [الكهف : ٩٧] أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها، فقابل الأسهل بالأسهل، والأشدّ بالأشدّ ﴿ **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي** ﴾ أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي** ﴾ أي الوقت الذي قدّر خروجهم على الناس في آخر الزمان ،أي الوقت الذي قدّر خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿ **جَعَلَهُ دَكَّاء** ﴾ أي مساويًا للأرض، ولا بدّ من كون هذا. ولهذا قال: ﴿ **وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًا** ﴾ [الكهف: ٩٨] كما قال تعالى: ﴿ **حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسلُونَ واقْتَرَبَ الوَعْد الحَق** ﴾ [الأنبياء : ٩٦ - ٩٧] الآية. ولذا قال ههنا ﴿ **وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** ﴾ يعني يوم فتح السدّ على الصحيح ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا** ﴾ [الكهف : ٩٩] .

وورد أن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعامًا وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن، وتأذن لهن فيه إلاّ من كانت ثكلى، فلا تأكل منه شيئًا.

فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه، فقالت لهن: سبحان الله كلكن ثكلى؟ فقلن: أي والله ما منّا إلاّ من اثكلت . فكان ذلك تسلية لأمه، وقيل أنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة. لكن جلّ ما قيل فيه من كتب أهل الكتاب . فالله أعلم بصحتها!.

روى الأعمش، عن عطية، قال: قال أبو سعيد: يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحدًا إلا قتلوه، إلا أهل الحصون، فيمرّون على البحيرة فيشربونها، فيمرّ المارُّ فيقول: كأنه كان ههنا ماء، قال: فيبعث الله عليهم النغف حتى يكسر أعناقهم فيصيروا خبالاً، فتقول أهل الحصون: لقد هلك أعداء الله، فيدلّون رجلاً لينظر، ويشترط عليهم إن وجدهم أحياء أن يرفعوه، فيجدهم قد هلكوا، قال: فينــزل الله ماء من السماء فيقذفهم في البحر، فتطهر الأرض منهم، ويغرس الناس بعدهم الشجر والنخل، وتخرج الأرض ثمرتها كما كانت تخرج في زمن يأجوج ومأجوج.

رأى ابن عباس صبيانا ينــزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج.

ثم تأتي ثلاث أمم بعد هلاك يأجوج ومأجوج ما يعلم عددهم إلا الله. قيل أن اسمائهم : منسك، وتاويل، وتاريس.

وقد ورد عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ :

« لَقيتُ لَيْلَةَ الإسْرَاء إبْرَاهيمَ وَمُوسَى وَعيسَى فَتَذَاكرُوا أمْر السَّاعَة، وَرَدُّوا الأَمْرَ إلى إبْرَاهيمَ فَقَالَ إبْرَاهيمُ: لا علْمَ لي بها، فَرَدُّوا الأمْرَ إلى مُوسَى، فقالَ مُوسَى: لا علْمَ لي بها، فَرَدُّوا الأَمْرَ إلى عيسَى قالَ عيسَى: أمَّا قيامُ السَّاعَة لا يَعْلَمُهُ إلاَّ اللَّهُ، وَلَكنَّ رَبّي قَدْ عَهدَ إليَّ بمَا هُوَ كائنٌ دُونَ وَقْتها، عَهدَ إليَّ أنَّ الدَّجَّالَ خارجٌ، وأنَّهُ مُهْبطي إلَيْه، فَذَكَرَ أنَّ مَعَهُ قَصَبَتَيْن، فإذا رآني أهْلَكَهُ اللَّهُ، قالَ: فَيَذُوبُ كمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، حتى إنَّ الحَجَرَ والشَّجَرَ لَيَقُولُ: يا مُسْلمُ هَذَا كافرٌ فاقْتُلْهُ، فَيُهْلكُهُمُ اللَّهُ، وَيَرْجعُ الناسُ إلى بلادهمْ وأوْطانهمْ فَيَسْتَقْبلُهُمْ يَأْجُوجُ ومَأْجُوجَ منْ كُلّ حَدْب يَنسلُونَ، لا يَأْتُونَ عَلى شَيْء إلاَّ أكَلُوهُ، وَالا يَمُرُّونَ عَلى ماء إلاَّ شَرِبُوهُ، فيَرْجعُ النَّاسُ إليَّ، فَيَشْكُونَهُمْ، فأدْعُوا اللَّهَ عَلَيْهمْ فَيُميتُهُمْ حتى تَجْوَى الأَرْضُ منْ نَتْن ريحهمْ، فَيَنــزلُ المَطَرُ، فَيَجُرُّ أجْسادَهُمْ، فَيُلْقيهمْ في البَحْر، ثُمَّ يَنْسفُ الجبالَ حتى تَكُونَ

الأَرْضُ كالأديم، فَعَهِدَ إِليَّ رَبّي أنّ ذلكَ إذا كان كذلك، فَإنَّ السَّاعَةَ مِنْهُمْ كالحامِلِ المُتِمّ الَّتِي لا يَدْرِي أهْلُها مَتى تَفْجَوهُمْ بِوِلادِها، لَيْلاً أوْ نَهارا » .

أما الماء الذي يشربوه وفنوه ؛ فقد وردت بعض الروايات بأنه ماء بحيرة طبرية ؛ فقد جاء في معجم البلدان أن بُحَيرَة طَبَرِيَّة: هي نحو من عشرة أَميال في ستة أَميال، وغَوْرُ مائها علامة لخروج الدجال؛ ورُوي أَن عيسى عليه السلام، إِذا نـــزل ببيت المقدس ليقتل الدجال عندها يظهر يأْجوج ومأْجوج، وهم أَربع وعشرون أُمة لا يجتازون بحي ولا ميت من إِنسان إِلا أَكلوه ولا ماءٍ إِلا شربوه، فيجتاز أَولهم ببُحَيرة طبرية فيشربون جميع ما فيها ثم يجتاز الأَخير منهم، وهي ناشفةٌ، فيقول: أَظنُّ أَنه قد كان ههنا ماءٌ. وبحيرة طبرية كالبركة، تُحيط بها الجبال ويصبُّ فيها فضلات أَنهر كثيرة تجيءُ من جهة بانياس والساحل والأُرْدُنّ الأَكبر، وينفصل منها نهر عظيم فيسقي أَرض الأُردن الأَصغر، وهو بلاد الغور، ويصبُّ في البحيرة المنتنة قرب أَريحا. ومدينة طبرية في لِحْفِ الجبل مشرفة على البحيرة، ماؤُها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ثقيل؛ وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتىءٌ يزعمون أَنه قبر سليمان بن داود، عليه السلام؛ وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلاً .

وجاء في معجم البلدان عن الشعبي أنّه قال : سار ذو القرنَين إلى ناحية يأُجوج ومأجوج فنظر إلى أُمّة صُهْب الشعور زُرْق العيون فاجتمع إليه منهم خلق كثير وقالوا له: أيها الملك المظفّر إنّ خلف هذا الجبل أمَمًا لا يحصيهم إلاّ الله وقد أخربوا علينا بلادنا يأكلون ثمارنا وزروعنا، قال: وما صفتُهم؟ قالوا: قصار صُلْعٌ عراض الوجوه، قال: وكم صنفًا هم؟ قالوا: هم أُمم كثيرة لا يحصيهم إلاّ الله تعالى، قال: وما أساميهم؟ قالوا : أما من قرب منهم فهم ستّ قبائل: يأجوج، ومأجوج، وتاويل، وتاريس، ومنسك، وكُمارى، وكلّ قبيلة منهم مثل جميع أهل الأرض، وأما من كان منّا بعيدًا فإنّا لا نعرف قبائلهم وليس لهم إلينا طريق، فهل نجعل لك خرجًا على أن تسدّ عليهم وتكفينا أمرهم؟ قال: فما طعامهم؟ قالوا: يقذف البحر إليهم في كلّ سنة سمكتَين يكون بين رأس كلّ سمكة وذنبها مسيرة عشرة أيّام أو أكثر، قال: ما مكّني فيه ربي خيرٌ فأعينوني بقوّة تبذلون لي من الأموال في سدّه ما يمكن كلّ واحد منكم، ففعلوا، ثمّ أمر بالحديد فأُذيب وضرب منه لبنًا عظامًا وأذاب النحاس ثمّ جعل منه ملاطًا لذلك اللبن وبنى به الفجّ وسوّاه مع قُلّتي الجبل فصار شبيهًا بالمُصْمَت؛ وفي بعض الأخبار قال: السُّدَ

طريقة حمراء وطريقة سوداء من حديد ونحاس، ويأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة، منهم الترك قبيلة واحدة كانت خارج السدّ لما ردمه ذو القرنين فسلموا أن يكونوا خلفه، وسار ذو القرنين حتى توسط بلادهم فإذا هم على مقدار واحد، ذكرهم وأُنثاهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف طول الرجل المربوع، لهم مخاليب في مواضع الأظفار ولهم أضراس وأنياب كأضراس السّباع وأنيابها وأحناك كأحناك الإبل، وعليهم من الشعر ما يُواري أجسادهم، ولكل واحد أُذنان عظيمتان إحداهما على ظاهرها وَبَرٌ كثير وباطنها أجرَدُ والأخرى باطنها وَبرٌ كثير وظاهرها أجردُ يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، وليس منهم ذكر ولا أُنثى إلاّ ويعرف أجله والوقت الذي يموت فيه، وذلك أنّه لا يموت حتى يلد ألف ولد، وهم يرزقون التنّين في أيّام الربيع ويستمطرونه إذا أبطأ عنهم كما نستمطر المطر إذا انقطع فيقذفون في كلّ عام بواحد فيأكلونه عامهم كلّه إلى مثله من قابل فيكفيهم على كثرتهم، وهم يتداعون تداعي الحمام ويعوون عواء الكلاب ويتسافدون حيث ما التقوا تسافد البهائم، وفي رواية أن ذا القرنين إنما عمل السدّ بعد رجوعه عنهم فانصرف إلى ما بين الصّدَفَين فقاس ما بينهما وهو منقطع أرض الترك ممّا يلي الشمس فوجد بُعْدَ ما بينهما مائة فرسخ فحفر له أساسًا بلغ به الماء وجعل عرضه خمسين فرسخًا وجعل حَشْوَه الصخور وطينه النحاس المذاب يصبّ عليه، فصار عرقًا من جبل تحت الأرض ثمّ عَلاّه وشَرّفَه بزُبُر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقًا من نحاس أصفر فصار كأنّه بردٌ محبّر من صفرة النحاس وسواد الحديد، فلمّا أحكمه انصرف راجعًا، وأمّا ذكر التنّين فرأينا منه بنواحي حلب ما ذكرته في ترجمة كلز وجعلتُه حجّة على ما أورده ههنا من خبره وشجّعَني على كتابته، فإن الإنسان شديد التكذيب بخبر ما لم ير مثله، روي عن شدّاد بن أفلح المقري أنّه قال: عُدْتُ عُمَرَ البِكاليّ فذكرنا لون التنّين فقال عمر البكاليّ: أتدرون كيف يكون التنّين؟ قلنا: لا، قال: يكون في البرّ حيّة متمرّدة فتأكل حيّات البرّ فلا تزال تأكلها وتأكل غيرها من الهوامّ وهي تعظم وتكبر ثمّ يزيد أمرها فتأكل جميع ما تراه من الحيوان فإذا عظم أمرُها ضجّتْ دوابّ البر منها فيرسل الله تعالى إليها ملكًا فيحتملها حتى يُلْقيها في البحر فتَفْعل بدَوَابّ البحر مثل فعلها بدوابّ البرّ فتعظم ويزداد جسمها فتضجّ دوابّ البحر منها أيضًا فيبعث الله إليها ملكًا حتى يخرج رأسها من البحر فيتدلى سحاب فيحتملها فيُلْقيها إلى يأجوج ومأجوج؛ وحدّث المعلّى

بن هلال الكوفي قال: كنت بالمصيصة فسمعتهم يتحدثون أن البحر ربّما مكث أيّامًا وليالي تصطفق أمواجُه ويسمع لها دويّ شديد فيقولون ما هذا إلاّ بشيء آذَى دوابّ البحر فهي تضجّ إلى الله تعالى، قال: فتقبل سحابة حتى تغيب في البحر ثم تقبل أخرى حتى تُعَدّ سبع سحابات ثمّ ترتفع جميعًا في السماء وقد حَمَلْنَ شيئًا يرونَ أنّه التنّين حتى يغيب عنّا ونحن ننظر إليه يضطرب فيها فربّما وقع في البحر فتعود السحابة إلى البحر بالرعد الشديد الهائل والبرق العظيم حتى تغوص في البحر وتستخرجه ثانية فتحمله، فربما اجتاز وهو في السحاب وذنبه خارج عنها بالشجر العادي والبناء الشامخ فيضربه بذنبه فيهدم البناء من أصله ويَقْلَع الشجر بعروقه، ولقد احتمله السحاب من بحر أنطاكية فضرب بذنبه بضعة عشر برجًا من أبراج سورها فرَمى بها، ويقال: إن السحاب الموكّل به يختطفه حيثما رآه كما يختطف حجر المغناطيس الحديد، فهو لا يطلع رأسه من الماء خوفًا من السحاب ولا يخرج إلاّ في الفرط إذا صَحَت الدنيا؛ وذكر بقراط الحكيم اليوناني في كتاب الثراء أنّه كان في بعض السواحل فبلغه أن هناك قرى كثيرة قد فشا فيها الموت فقصدها ليعرف السبب في ذلك فلمّا فحص عن الأمر إذا هو بتنّين قد احتمله السحاب من البحر فوقع على نحو عشرين فرسخًا من هذه القرى فنتن ففشا الموت فيها من نتنه فعمد ذلك الفيلسوف فجبَا من أهل تلك القرى مالاً عظيمًا واشترى به ملحًا ثمّ أمل أهل تلك القرى أن يحملوه ويلقوه عليه ففعلوا ذلك حتى بطلت رائحته وكف المُوتانُ عنهم؛ وروي عن بعضهم أنه قصد موضعًا سقط فيه فوجد طوله نحو الفرسخين وعرضه فرسخ ولونه مثل لون النمر مفلس كفلوس السمك وله جناحان عظيمان كهيئة أجنحة السمك ورأسه مثل التل العظيم شبه رأس الإنسان وله اذنان مفرطتا الطول وعينان مدورتان كبيرتان جدًا ويتشعب من عنقه ستة اعناق طول كل عنق منها عشرون ذراعًا في كل عنق رأس كرأس الحية؛ قلت: هذه صفة فاسدة لأنه قال اولاً رأس كرأس الانسان ثم قال ستة رؤوس كرؤوس الحية، وقد نقلته كما وجدته ولكن تركه اولى؛ ومن مشهور الأخبار حديث سلام الترجمان قال: إن الواثق بالله رأى في المنام أن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج مفتوح، فأرْعبَه هذا المنام فأحضرني وأمرني بقصده والنظر إليه والرجوع إليه بالخبر، فضم إلي خمسين رجلاً ووصلني بخمسة آلاف دينار وأعطاني دَيْني عشرة آلاف درهم ومائتي بغل تحمل الزاد والماء، قال: فخرجنا من سُرّ مَنْ رأى بكتاب

منه إلى إسحاق ابن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس يُؤمَر فيه بإنفاذنا وقضاء حوائجنا ومكاتبة الملوك الذين في طريقنا بتَيْسيرنا، فلما وصلنا إليه قضى حوائجنا وكتب إلى صاحب السرير وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللان وكتب ملك اللان إلى فيلانشاه وكتب لنا فيلانشاه إلى ملك الخزر فوجه ملك الخزر معنا خمسة من الأدلاء فسرنا ستة وعشرين يومًا فوصلنا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة وكنا قد حملنا معنا خلا لنشمه من رائحتها بإشارة الأدلاء، فسرنا في تلك الأرض عشرة أيام ثم صرنا إلى مُدُن خراب فسرنا فيها سبعة وعشرين يومًا فسألنا الادلاء عن سبب خراب تلك المدن فقالوا: خربها يأجوج ومأجوج، ثم صرنا إلى حصن بالقرب من الجبل الذي السد في شعب منه فجزنا بشيء يسير إلى حصون أخر فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية وهم مسلمون يقرؤون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب، فسألونا من أين أقبلتم وأين تريدون، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون من قولنا ويقولون: أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون من قولنا ويقولون: أمير المؤمنين! فنقول: نعم، فقالوا: أهو شيخ أم شاب لنا؟: قلنا: شاب، قالوا: وأين يكون؟ قلنا: بالعراق في مدينة يقال لها سر من رأى، قالوا: ما سمعنا بهذا قط، ثم ساروا معنا إلى جبل أملس ليس عليه من النبات شيء وإذا هو مقطوع بواد عرضه مائة وخمسون ذراعًا، وإذا عضادتان مبنيتان مما يلي الجبل من جنبي الوادي عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعًا الظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب، وكله مبني بلبن حديد مغيب في نحاس في سمك خمسين ذراعًا، وإذا درْوَند حديد طرفاه في العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعًا قد ركّب على العضادتين على كل واحد مقدار عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع، وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد والنحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر، وفوق ذلك شرف حديد في طرف كل شرفة قرنان بنثي كل واحد إلى صاحبه، وإذا باب حديد بمصراعين مغلقين عرض كل مصراع ستون ذراعًا في ارتفاع سبعين ذراعًا في شخن خمسة أذرع وقائمتاها في دوّارة على قدر الدروند، وعلى باب قفل طوله سبعة أذرع غلظ باع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعًا وفوق القفل نحو خمسة أذرع غلقٌ طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغلق مفتاح معلق طوله سبعة أذرع له أربع عشرة دندانكة أكبر من دستج الهاون معلّق في سلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة أشبار والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق،

وارتفاع عتبة الباب عشرة أذرع في بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين والظاهر منها خمسة أذرع، وهذا الذرع كلّه بذراع السواد، ورئيس تلك الحصون يركب في كلّ جمعة في عشرة فوارس مع كلّ فارس مِرزبة حديد فيجيئون إلى الباب ويضرب كل واحد منهم القفل والباب ضربات كثيرة ليسمع من وراء الباب ذلك فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا في الباب حدثًا، وإذا ضربوا الباب وضعوا آذانهم فيسمعون من وراء الباب دويًّا عظيمًا، وبالقرب من السدّ حصن كبير يكون فرسخًا في مثله يقال أنّه يأوي إليه الصُّنّاع، ومع الباب حصنان يكون كلّ واحد منهما مائتي ذراع في مثلها، وعلى بابَي هذين الحصنين شجر كبير لا يُدْرى ما هو، وبين الحصنين عين عذبة، وفي أحدهما آلة البناء التي بُني بها السدّ من القدور الحديد والمغارف وهناك بقيّة من اللبن الحديد قد التصق بعضه ببعض من الصدإ، واللبنة ذراع ونصف في سمك شبر، وسألنا من هناك هل رأوا أحدًا من يأجوج ومأجوج فذكروا أنّهم رأوا منهم مرّة عددًا فوق الشرف فهبّت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبنا فكان مقدار الواحد منهم في رأي العين شبرًا ونصفًا، فلمّا انصرفنا أخذ بنا الأدلاّء نحو خراسان فسرنا حتى خرجنا خلف سمرقند بسبعة فراسخ؛ قال: وكان بين خروجنا من سرّ من رأى إلى رجوعنا إليها ثمانية عشر شهرًا، قد كتبت من خبر السدّ ما وجدته في الكتب ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه، والله أعلم بصحته، وعلى كلّ حال فليس في صحة أمر السد ريب وقد جاء ذكره في كتاب الله العزيز.

❊ ❊ ❊

ذكر سد يأجوج ومأجوج وخرقهم إياه

إن من يقف على ماورد في كتب السنة عن هيئة ياجوج ومأجوج يجد أهم صغار العيون ، ومن يقف على الأحاديث التي وردت في كيفية حفرهم للسد الذي ضرب عليهم مانعًا لهم من النفوذ منه ؛ ليقف عند خبر عمل هؤلاء القوم على خرق هذا السد ؛ فهم يعملون فيه بالليل ولا يستطيعون العمل بالنهار أو لإذا أردنا التحديد لقلنا : أنه مع أول شعاع للشمس يفرون إلى مأواهم الذي هم فيه .

فهل هؤلاء القوم لا يستطيعون العمل بالنهار لدقة أعينهم كما ورد ذلك في السنن الواردة عن رسول الله ﷺ ؟

أم هل هم يستخفون في النهار ويستظلون الليل لينقبوا السد في خفية عن أعين الناس؟

وتلكم بعض الأحاديث التي وردت في نقبهم للسد كما وردت في كتب السنن :

قال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الله ، حدَّثني أبي ، حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: « **إن يأجوج ومأجوج ليحفرن السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدهم وأراد الله عزَّ وجلَّ أن يبعثهم إلى الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفًا في أقفائهم، فيقتلهم بها** » ، فقال رسول الله ﷺ : « **والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن شكرًا من لحومهم ودمائهم** » .[1]

وقد وردت الآثار بأن يأجوج ومأجوج يخروجون بعد نـــزول النبي عيسى بن مريم

---

(١) مسند أحمد حديث برقم (١٠٤٠٧) .

على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فنـــزول عيسى في آخر الزمان خبر وارد في كتب الصحاح ثابت في سنة رسول الله ﷺ ؛ينـــزل عيسى عليه الصلاة والسلام فيحطم الصليب ويقتل الخنـــزير ، ويصلى خلف إمام المسلمين في ذاك الآوان ، ويتضرع لله أن يكشف غمة آخر الزمان بعد مقتل الدجال وذهاب فتنتة ؛ قال الحسن البصريّ ومحمد بن إسحاق في خبر رفع عيسى في زمانه ونـــزوله آخر الزمان وأن الله ألقى شبهه على شاب : كان اسمه: داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه، فحصروه في دار ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلمّا حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلّم لليهود عامة النصارى، الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب، وضلّوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا.

أورد الإمام أحمد في مسنده خبر النبي عيسى وتزامن نـــزوله مع خروج يأجوج ومأجوج فقال : حدّثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي بمكة إملاء قال: حدَّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدَّثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص قال: حدَّثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه أنه سمع النوّاس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه، فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل؟ قال: « **غير الدجال أخوف مني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب جعد، قطط، عينه طافية، وأنه يخرج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وشمالاً، يا عباد الله اثبتوا** » ، قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: « **أربعين يومًا، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم** » ، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي هو كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال : «**لا، أقدروا له قدره**» ، قلنا: يا رسول الله فما إسراعه في الأرض؟ قال: « **كالغيث استدبرته الريح** » ، قال:

« فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى وأمده خواصر وأسبغه ضروعًا ويمر بالحي فيدعوهم، فيردوا عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، قال: ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل إليه يتهلل وجهه، قال: فبينا هو على ذلك إذ بعث الله عزَّ وجلَّ المسيح ابن مريم، فينـــزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا يده على أجنحة ملكين، فيتبعه، فيدركه، فيقتله عند باب لدّ الشرقي، قال: فبينما هم كذلك إذا أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عبادًا من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادي إلى الطور، يبعث الله عزَّ وجلَّ يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عزَّ وجلَّ، فيرسل عليهم نغفًا في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتًا إلاّ قد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عزَّ وجلَّ، فيرسل عليهم طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله عزَّ وجلَّ » .

قال ابن جابر: فحدَّثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: « فتطرحهم بالمهبل، قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد وأين المهبل؟ قال: مطلع الشمس قال: ويرسل الله عزَّ وجلَّ مطرًا لا يكن منه بيت وبر ولا مدر أربعين يومًا فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ويقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي القبيلة، والفخذ والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينا هم على ذلك إذ بعث الله عزَّ وجلَّ ريحًا طيبة تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم – أو قال: كل مؤمن – ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم – أو قال: وعليه – تقوم الساعة » .[1]

(١) مسند أحمد (٥/ ١٩٦) .

هذا وقد تعددت الروايات في زماننا بأنهم قوم يسكنون الصين عند سور لها ولكن الله أعلم أين هم .

فالله أسأل أن يكفيناهم وذريتنا منهم ومن شرورهم والحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊

قصة صاحب الجنتين

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ❊ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ❊ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ❊ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ❊ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ❊ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ❊ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ❊ وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ❊ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ❊ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ❊ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ❊ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٣٢- ٤٤].

استهل الله جل وعلا قصة صاحب الجنتين بقوله: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً ﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء، وازدرائهم بهم وافتخارهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُون ﴾ [يس: ١٣] ، والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين، وكان أحدهما مؤمنًا والآخر كافرًا، ويقال إنه كان لكل منهما مال، فانفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته ابتغاء وجهه. وأمّا الكافر فانه اتخذ له بساتين وهما الجنّتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور. فيهما أعناب ونخيل تحفّ تلك الاعناب والزروع في ذلك، والأنهار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنـــزه، وقد استوثقت فيهما الثمار، واضطربت فيهما الانهار، وابتهجت الزروع والثمار، وافتخر مالكها على صاحبه المؤمن الفقير،وصار متكبرًا عليه مستعليًا بما عنده من جنات وعيون وزروع ونخل، ومن جميع مظاهر الترف والنعمة، وكثرة الولد، والاتباع والعمال ومن يخدمونه ويقمون على شئونه وشئون حدائقه وجناته وأمواله التي يفتخر بها ويستعلي بها على صاحبه

المؤمن قائلا له: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾. فهو يظن أنه أوسع جنانًا، وأنه خير منه.

ولسان حاله يقول: ماذا أغنى عنك انفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه من الزكاة بمالك والانفاق في سبيل الله، وإطعام المساكين؟، كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي، فافتخر على صاحبه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾وهو على كبر وخيلاء واستعلاء منه على صاحبه فظلم نفسه حينما تركها على حب الكبر والاستعلاء قال ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها، وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دارّة لكثرة مياهها. ثم قال ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وكذّب بوجود الآخرة الباقية الدائمة. ثم قال ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ أي ولئن كان ثم آخرة ومعاد فلأجدنّ هناك خيرًا من هذا، وذلك لانه اغترّ بدنياه، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلاّ لحبّه له، وحظوته عنده، كما قال العاص بن وائل فيما قصّ الله من خبره وخبر خبَّاب بْنِ الأرتِّ في قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ - ٧٨] وقال تعالى إخبارًا عن الانسان إذا أنعم الله عليه ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ [فصلت: ٥٠] .

وقال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨] أي لعلم الله بي أني أستحقّه قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ منه قُوّة وأكثرُ جَمْعًا ولا يُسْأل عن ذُنُوبِهِم المُجْرِمون ﴾[القصص: ٧٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكم وَلاَ أَوْلاَدُكُمَ بِالَّتِي تقرّبكم عِنْدَنَا زُلْفَى إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فأُولئكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْف بِمَا عَملوا وَهُمْ فِي الغُرُفَات آمنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] وقال تعالَى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُم بِهِ مِن مالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَات بَلْ لاَ يَشْعرُوْنَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦]. ولما اغتر هذا الجاهل بما خول به في الدنيا فجحد الآخرة، وادعى أنّها ان وجدت ليجدنّ عند ربّه خيرًا مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له: ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ أي يجادله ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُراب ثُمّ مِن نُطْفَة ثُمّ سوّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف: ٣٧] أي أجحدت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب. ثم من نطفة ثم صوّرك

أطوارًا حتى صرت رجلاً سويًا سميعًا بصيرًا، تعلم وتبطش وتفهم، فكيف أنكرت المعاد، والله قادر على البداءة ﴿ **لكنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي** ﴾ [الكهف: ٣٨] أي لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف معتقدك ﴿ **هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٣٨] أي لا أعبد سواه ب واعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الاموات، ويجمع العظام الرفات، وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا إله غيره، ثم أرشده إلى ما كان الأوْلى به أن يسلكه عند دخول جنّته فقال: ﴿ **وَلَوْلا إذْ دَخَلْتَ جنّتك قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّه** ﴾ [الكهف: ٣٩] ولهذا يستحبّ لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله، أن يقولَ: ﴿ **مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللَّه** ﴾ .

ثم قال: المُؤْمنُ للْكَافر: ﴿ **فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتيَنِ خَيْرًا منْ جَنَّتكَ** ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ **وَيُرْسلُ عَلَيْها حُسْبَانًا منَ السَّماء** ﴾ [الكهف: ٤٠] قال ابن عباس: أي عذابًا من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها ﴿ **فَتُصْبحُ صَعيدًا زَلَقًا** ﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه ﴿ **أَوْ يُصْبحُ مَاؤُهَا غَوْرًا** ﴾ [الكهف: ٤١] وهو ضد المعين السارح ﴿ **فَلَنْ تَسْتَطيعَ لَهُ طَلَبًا** ﴾ [الكهف: ٤١] يعني فلا تقدر على استرجاعه. قال الله تعالى ﴿ **وأُحيطَ بثَمَره** ﴾ [الكهف: ٤٢] أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله، وخرّب جنّته ودمّرها ﴿ **فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْه عَلَى مَا أَنفَقَ فيهَا وَهيَ خَاويَةٌ عَلَى عُرُوشها** ﴾ [الكهف: ٤٢] أي خربت بالكلية، فلا عودة لها، وذلك ضدّ ما كان عليه أملَ حيث قال: ﴿ **وَمَا أَظُنُّ أَنْ تَبيدَ هَذه أَبَدًا** ﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الَّذي كَفَر بسَبَبه باللَّه العَظيم فَهُوَ يَقُولُ: ﴿ **يا لَيْتَني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٢] . قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فئَةٌ يَنْصُرُونَهُ منْ دُونِ اللّه وَمَا كَانَ مُنْتَصرًا هُنَالك** ﴾ أي لم يكن أحد يتدارك ما فرّط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى ﴿**فَمَا لَهُ من قوّة وَلاَ نَاصرٍ** ﴾ [الطارق: ١٠] وقوله ﴿ **الوَلاَيَةُ للّه الحَقُّ** ﴾ [الكهف: ٤٤] ومنهم من يبتدىء بقوله ﴿ **هُنالك الوِلاَيةُ للّه الحَقّ** ﴾ وهو حسن أيضًا لقوله ﴿ **المُلْكُ يَوْمَئذ الحقُّ للرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الكَافرينَ عَسيرًا** ﴾ [الفرقان: ٢٦] فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق. ومنهم من رفع الحقّ جعله صفة للولاية وهما متلازمتان وقوله ﴿ **هُوَ خيرٌ ثَوَابًا وَخيرٌ عُقْبًا** ﴾[الكهف: ٤٤] أي معاملته خير لصاحبها ثوابًا وهو الجزاء وخير

عقبا وهو العاقبة في الدنيا والآخرة. وهذه القصّة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها، بل يجعل طاعة الله والتوكّل عليه في كل حال نصب عينيه. وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه. وفيها أن من قدّم شيئًا على طاعة الله والانفاق في سبيله، عذّب به، وربّما سلب منه معاملة له بنقيض قصده. وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، وأنّ مخالفته وبال ودمار على من ردّ النصيحة الصحيحة. وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر، ونفذ الأمر الحتم، وبالله المستعان وعليه التكلان.

ونقف عل نفس القصة برواية أخرى:

قال الكلبي: نـــزلت آيات صاحب الجنتين في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيّ ﷺ . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة « الصافات » في قوله ﴿ **قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ** ﴾ [الصافات: ٥١] ، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدُهما مالَه في سبيل الله وطلب من أخيه شيئًا فقال ما قال...؛.

وقيل: نـــزلت في النبيّ ﷺ وأهل مكة.

وقيل: هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر.

وقيل: هو مَثَل لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه؛ شبّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصافات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرىء قال: اسم الخَيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثةُ آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيدًا بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثيابًا فكسا العُراة، وبالألف الثالثة طعامًا فأطعم الجُوّع، وبنى أيضًا مساجد، وفعل خيرًا.

وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشترى دواب وبقرًا فاستنتجها فنمَت له نماء مُفْرِطًا، واتّجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في

بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يَكدَ يصل إليه من غِلَظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له: ألم أكن قاسمتك المال نصفين! فما صنعتَ بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى. فقال: أئنك لمن المصدّقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيهًا، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْت وسفهت أنت، أخرج عني.

ثم كان من قصة هذا الغنيّ ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان.

رواية آخرى:

قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورِثاه من أبيهما وكانا أخوين فٱقتسماها، فٱشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلانًا قد اشترى أرضا بألف دينار وإني ٱشتريت منك أرضا في الجنة بألف دينار فتصدقَ بها، ثم إن صاحبه بني دارًا بألف دينار فقال: اللهم إن فلانًا بنى دارًا بألف دينار وإني أشتري منك دارًا في الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلانًا تزوج ٱمرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم اشترى خدمًا ومتاعًا بألف دينار، وإني أشتري منك خَدَمًا ومتاعًا من الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لعلّ صاحبي ينالُني معروفه فأتاه فقال: ما فعل مالُك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئًا! ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنمًا؛ فقال صاحبه: والله لأعظنّه، فوعظه وذكّره وخوّفه. فقال: سِرْ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له: يا أخي! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابًا لمحسن أو عقابًا لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فٱبتلاهما الله .

فجعل الكافرُ يرمي شبكته ويسمِّي بٱسم صنمه، فتطلع متدفّقة سمكًا. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلُع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثر منك في الدنيا نصيبًا ومنــزلة ونَفَرًا، كذلك أكون أفضلَ منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك

حقًّا. قال: فضَجّ المَلَك الموَكَّل بهما، فأمر الله تعالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريَه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزّتك لا يضرّه ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا.

ومن الروايات السابقة يجتمع للقارئ عدة مسائل منها:

إن الله سبحانه يختبر المسلم بالنعمة تارة، وبالفقر تارة أخرى؛ فما يصيب الإنسان، إن كان يسره: فهو نعمة بينة. وإن كان يسوءه: فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه. ويثاب بالصبر عليه. ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿ **وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقد جاء في الحديث: « **والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له. إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له** » . وإذا كان هذا وهذا: فكلاهما من نعم الله عليه.

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر.

أما نعمة الضراء: فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء: فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء. كما قال بعض السلف: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

وفي الحديث: « **أعوذ بك من فتنة الفقر. وشر فتنة الغنى** » . والفقر: يصلح عليه خلق كثير. والغنا: لا يصلح عليه إلا أقل منهم.

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر. لكن لما كان في السراء: اللذة. وفي الضراء: الألم. اشتهر ذكر الشكر في السراء، والصبر في الضراء. قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ [هود : ٩ – ١١]، ولأن صاحب السراء: أحوج إلى الشكر، وصاحب الضراء: أحوج إلى الصبر. فإن صبر هذا وشكر هذا: واجب. إذا تركه استحق العقاب. وأما صبر صاحب السراء: فقد يكون مستحبًا، إذا

كان عن فضول الشهوات. وقد يكون واجبًا، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته.

إن اجتماع الشكر والصبر جميعًا يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم، ويشكر على النعم. وهذا حال يعسر على كثير من الناس .

* **والمقصود هنا:** أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون. فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه.

وأما ذنوب الإنسان: فهي من نفسه، ومع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان. ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: « **اللهم لا تجعلني عبرة لغيري، ولا تجعل أحدًا أسعد بما علمتني مني** » .

وفي الدعاء الوارد في القرآن: ﴿ **فَقَالُواْ عَلَىٰ ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [يونس: ٨٥] ، ﴿ **رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [الممتحنة: ٥] ، كما في: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم. ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى.

إن الإنسان إذا اعتبر وتعرف بنفسه على طبيعة أغلب الناس، وسمع أخبارهم: رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته.

فصاحب الجنتين لما رأى أنه قد امتلك من أسباب القوة والاستعلاء؛ أصدر أحكامًا لم تكن من المعقول - فضلاً عن كونها ليست من الشرع - فقال : ﴿ **وَمَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا** ﴾؛ فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة، بحسب إمكانها، فلما شعر بشيئ من التمكين تغيرت لديه مفاهيم مستقرة وتبدلت معايير متعارف عليها .

فالكافر يعلم أن الحدائق تزول بيسير السيل والمطر، والدواب تذهبها الأمراض والأدواء، والدور والبيوت تذهب بها الأعاصير ولو لم يرجع ذلك لقدرة الله لكفره أو إلحاده.

أما صاحب الجنتين فقد طغى طغيانًا زائفًا، واستكبر استكبارًا غير معهود إلا عند فرعون إو قارون ومن نهج نهجهم؛ فكان عاقبة أمره - في الدنيا - أن قال: ﴿ **ياليتني لم أشرك بربي أحدًا** ﴾.

وأختم هذه القصة بما روي عن أبا الدرداء كان يقول: ويل لكل جماع فاغر فاه كأنه مجنون يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده لو يستطيع لوصل الليل بالنهار ويله من حساب غليظ وعذاب شديد، جمعوا كثيرًا وبنوا شديدًا فأصبح أملهم غرورًا وأصبح جمعهم بورًا وأصبحت بيوتهم قبورًا.

فاللهم اجعل الدنيا في أيدينا على تقوى لك وجعل الأخرة خير لنا من دنيانا .

(والحمد لله رب العالمين) .



قصة النبي يوسف عليه الصلاة والسلام

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ❁ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ❁ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ❁ قَالُواْ يَٰأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ ❁ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ ❁ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ❁ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ❁ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ❁ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَةِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ❁ وَجَآءُوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ❁ قَالُواْ يَٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ❁ وَجَآءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ❁ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ❁ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ❁ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ❁ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ❁ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ❁ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ❁ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ❁ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن ٱلصَّٰدِقِينَ ❁ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ❁ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا

وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۞ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ .

إن قصة يوسف من القصص التي وردت في كتاب الله على نحو من التفصيل لم يتسن لغيرها من بعض قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فغالب قصص الأنبياء وردت في القرآن الكريم في عدة سور، بينما جاءت قصة يوسف كاملة في سورة واحدة. واختلف العلماء لم سميت هذه القصة أحسن القصص؟ .

قيل : إنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم.

وقيل : لأن يوسف تجاوز عن إخوته وصبر عليهم وعفا عنهم.. وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والعفة والغواية، وسير الملوك والممالك، والرجال والنساء، وحيل النساء ومكرهن.

وفيها ذكر التوحيد والفقه، وتعبير الرؤيا وتفسيرها، فهي سورة غنية بالمشاهد والانفعالات.

وقيل: إنها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعا كان إلى السعادة.

ومع تقديرنا لهذه الأسباب كلها.. فهناك ثمة سببا مهم يميز هذه القصة.إنها تمضي في خط واحد منذ البداية إلى النهاية.. يلتحم مضمونها وشكلها، ويفضي بك لإحساس عميق بقهر الله وغلبته ونفاذ أحكامه رغم وقوف بعض البشر ضدها.

وقد ورد أن سبب نـــزول الوحي بالقصة أن النبيّ ﷺ سأل وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ٱبنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ – ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ سوى أهل التوراة من خبر على ما كان فيه من نقص وزيادة .

فكان الوحي بقصة يوسف عليه السلام آية للنبيّ ﷺ ، بمنـــزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ويروى أن أسماؤهم: روبيل وهو أكبرهم، – وشمعون – ولاوي – ويهوذا – وزيالون – ويشجر – ، وأمهم ليا بنت

ليان،وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب ٱثني عشر رجلاً. قال السّهيلي: وأمّ يعقوب ٱسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل: في ٱسم الأَمَتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، و لم يحلّ لأحد بعده؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلاخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن أبناء يعقوب نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

قال المفسرون: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكبًا، وهم اشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له، فهاله ذلك.

فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منــزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها. فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر. وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معًا. وهو غلط منهم.

وقبل أن نشرع في قصة النبي يوسف عليه السلام؛ يحسن أن نقف وقفة موجزة مع أحوال الرؤى والمنامات ؛ نستخلص منها العبر، ونقف على مافيها من سنن وآثار وردت عن النبي محمد ﷺ .

* * *

أحكام الرؤيا والمنام والحُلْم

الرؤيا حالة شريفة، ومنـــزلة رفيعة ؛ فقد قال ﷺ : « **لم يبق بعدي من المبشّرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُرى له** » . وقال: « **أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا** » . وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة، وروي « **من سبعين جزءًا من النبوّة** » . وروي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « **جزءًا من أربعين جزءًا من النبوّة** » . ومن حديث ابن عمرو « **جزء من تسعة وأربعين جزءًا** » . ومن حديث العباس « **جزء من خمسين جزءًا من النبوّة** » ، . ومن حديث أنس « **من ستة وعشرين** » . وعن عُبادة بن الصّامت: « **من أربعة وأربعين من النبوّة** » .

والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديث السبعين؛ و لم يخرّج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرها فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بَطّال. قال أبو عبد الله المازَريّ: والأكثر والأصح عند أهل الحديث «من ستة وأربعين». قال الطّبريّ: والصواب أن يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله: « **إنها جزء من سبعين جزءًا من النبوّة** » فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله: « **إنها من أربعين – أو – ستة وأربعين** » فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصدّيق – رضي الله عنه – أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السَّبَرات، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة إن شاء الله جزء من أربعين جزءًا من النبوّة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين جزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع – والله أعلم – لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدِّين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن

خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوّة أقرب: كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ .

وهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأَسْفاقِسي عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: « **جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة** » فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ في النبوّة ثلاثة وعشرين عامًا – فيما رواه عكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما – فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عامًا وجدنا ذلك جزءًا من ستة وأربعين جزءًا؛ وإلى هذا القول أشار المازَريّ في كتابه « المعلم » واختاره الغزنويّ في تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا**﴾[يونس: ٦٤] . وهو فاسد من وجهين:

أحدهما : ما رواه أبو سَلَمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدّة الوحي كانت عشرين سنة، وأن النبي ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين؛ وهو قول عروة والشعبيّ وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل .

الثاني: أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنما كانت الرؤيا جزءًا من النبوّة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام: « **إنه لم يبق من مبشّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة في النوم** » الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوّة؛ قال ﷺ : « **الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان** » وأن التصديق بها حقّ، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة.

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءًا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلّط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيين في السجن، ورؤيا بُخْتَنَصَّر، التي فسّرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ ، ومنام

عاتكة، عمة رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري « باب رؤيا أهل السجن » - فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوّة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة؛ وقد تقدّم في « الأنعام » أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلّب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءًا من النبوّة.

الخامسة: الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقًا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضِغثًا؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلّب. وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقسامًا تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله ﷺ قال: « **الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليُحزِن ٱبن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوّة** » . قال قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله ﷺ .

السادسة: قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ**﴾الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام، رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد ٱختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراكٌ في أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائي علمًا ناشئًا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ٱبن العربيّ: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصًا قائمًا قاعدًا بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن لله ملَكًا يعرض المرئيات على المحل المدرِك من النائم، فيمثل له صورًا محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوُجُود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مُبشّرةً أو مُنذرة؛ قال ﷺ في صحيح مسلم وغيره: « **رأيتُ امرأة سوداء ثائرةَ الرأسِ تَخرج من المدينة إلى مَهْيَعة فأوّلتها الحُمَّى** » .

و« **رأيت سيفي قد ٱنقطع صدرُه وبَقَرًا تُنْحَر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتي يُقتل والبقر نفر من أصحابي يُقتلون** » .

و« **رأيت أني أدخلت يدي في دِرعٍ حصِينة فأولتها المدينة** » . و « **رأيت في يديّ سُوَارين فأولتُهما كذابيّن يَخرجان بعدي** » .

إلى غير ذلك مما ضربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلاً فأولا، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكر؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرًا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة: إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيرًا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله ، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه : ﴿**لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوَتِكَ**﴾؟ فالجواب : أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وُجدت كما رأى فلا ٱعتراض؛ روي أن يوسف عليه السلام كان ٱبن ٱثنتي عشرة سنة.

الثامنة: هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها. روى أبو رَزِين العُقَيليّ أن النبيّ ﷺ قال: « **الرؤيا جزء من أربعين جزءًا من النبوّة** » . و« **الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلاً أو مُحبًا أو ناصحًا** » أخرجه الترمذيّ وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رَزين ٱسمه لَقِيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كلّ أحد؟ فقال: أَبِالنبوّة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرًا أخبر به، وإن رأى مكروهًا فليقل خيرًا أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبّرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال: إنها على ما تأوّلت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة.

التاسعة: وفي هذه الآية دليل على أن مباحًا أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب – عليه السلام – قد حذّر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدًا، وفيها أيضًا ما يدلّ على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدًا وكيدًا؛ وقال النبيّ ﷺ : « **استعينوا على (إنجاح) حوائجكم بالكتمان**

فإن كل ذي نعمة محسود » . وفيها أيضًا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، و لم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدلّ أيضًا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدلّ على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبريّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيويّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتآمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلّة نبيّ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعًا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما ٱختلفوا في الصغائر على ما تقدّم ويأتي.

العاشرة: روى البخاريّ عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات** » قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: « **الرؤيا الصالحة** » وهذا الحديث بظاهره يدلّ على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قِبل الله تعالى لا تسر رائيها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقًا به ورحمة، ليستعد لنـــزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأوّلها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدلّ على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وفي سورة « يونس » في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [يونس: ٦٤] ؛ أنها الرؤيا الصالحة.

الحادية عشرة : روى البخاريّ عن أبي سَلَمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قَتَادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدًا فإنها لن تضره** » . قال علماؤنا: فجعل الله الإستعاذة منها مما يرفع أذاها؛ ألا ترى قول أبي قَتَادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئًا. وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثًا**

وليتعوّذ بالله من الشيطان ثلاثًا وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه » . وفي حديث أبي هُريرة عن النبيّ ﷺ قال: « **إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل** » . قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمتعارض، وإنما هذا الأمر بالتحوّل، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه، وإذا تمضمض تَفَل وبَصَق، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السَحَر من الليل.

فيعلم مما سبق أن حالة النبي يوسف عليه السلام مع الرؤيا إنما كانت من حالات الرؤيا الصالحة والمنبهة ؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ** ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها ﴿ **يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ** ﴾أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة، ﴿ **وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ** ﴾أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ** ﴾أي بالوحي إليك ﴿ **وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ** ﴾أي بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، ﴿**كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ** ﴾أي كما أعطاها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل، إن ربك عليم حكيم ، وكما قال تعالى ﴿**ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

هذا ما تيسر شرحه وتوضيحه فيما يخص الرؤى والمنامات .

(والحمد لله رب العالمين).

❊ ❊ ❊

من فضائل يوسف ﷺ

قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: « **يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله** » .

في الحديث السابق ذكره يتبين لنا فضل يوسف عليه السلام. فقد قيل يا رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال: « **أتقاهم لله** » ، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: « **يوسف نبي الله بن نبي الله بن خليل الله** » ، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال:« **فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا** » هكذا وقع في مسلم نبي الله بن نبي الله بن خليل الله، وفي روايات للبخاري كذلك، وفي بعضها نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله وهذه الرواية هي الأصل. وأما الأولى فمختصرة منها فإنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم الخليل ﷺ فنسبه في الأولى إلى جده، ويقال يوسف بضم السين وكسرها وفتحها مع الهمز وتركه فهي ستة أوجه، قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب وكونه نبيًا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله ﷺ .

وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذه إياهم من تلك السنين والله أعلم.

قال العلماء: لما سئل ﷺ أي الناس أكرم؟ أخبر بأكمل الكرم وأعمه فقال أتقاهم لله. وقد ذكرنا أن أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان تقيًا ورعًا كان كثير الخير وكثير الفائدة في الدنيا وصاحب الدرجات العلى في الآخرة، فلما قالوا ليس عن هذا نسألك قال يوسف الذي جمع خيرات الآخرة والدنيا وشرفهما، فلما قالوا ليس عن هذا نسأل فهم عنهم أن مرادهم قبائل العرب قال خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، ومعناه أن أصحاب المروءات ومكارم الخلائق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس.

قال القاضي: وقد تضمن الحديث في الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله عمومه وخصوصه ومجمله ومبانه إنما هو الدين من التقوى والنبوة والاعراق فيها والإسلام مع الفقه، ومعنى معادن العرب أصولها، وفقهوا بضم القاف على المشهور وحكى كسرها أي صاروا فقهاء

عالمين بالأحكام الشرعية الفقهية والله أعلم.

هذا، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في « تفسيريهما » ، وأبو يعلى والبزار في « مسنديهما » ، من حديث الحكم بن ظهير - وقد ضعفه الأئمة - عن السدي عن عبد الرحمٰن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي فلم يجبه بشيء، ونـــزل جبريل عليه السلام بأسمائها، قال: فبعث إليه رسول الله فقال: « **هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟** » قال: نعم. فقال: « **هي جريان، والطارق، والذيال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والذور** ».

فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها. وعند أبي يعلى: فلما قصها على أبيه قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله، والشمس أبوه والقمر أمه.



بداية القصة

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

في هذه السورة ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم، والدلالات والمواعظ والبينات. فذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه – يعنون شقيقه لأمه بنيامين – أكثر منهم، وهم عصبة أي جماعة يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقد ورد عن بعض من أهل العلم أن ولد ليعقوب دان ونفثالي من زلفة جارية راحيل وذلك أنها وهبتها له وسألته أن يطلب منها الولد حين تأخر الولد عنها وأن ليا وهبت جاريتها بلها ليعقوب منافسة لراحيل في جاريتها وسألته أن يطلب منها الولد فولدت له جاد وأشير ثم ولد له من راحيل بعد اليأس يوسف وبنيامين فانصرف يعقوب بولده هؤلاء وامرأتيه المذكورتين إلى منـــزل أبيه من فلسطين على خوف شديد من أخيه العيص فلم ير منه إلا خيرا وكان العيص فيما ذكر لحق بعمه إسماعيل فتزوج إليه ابنته بسمة وحملها إلى الشام فولدت له عدة أولاد فكثروا حتى غلبوا الكنعانيين بالشأم وصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية ثم إلى الروم وكان العيص فيما ذكر يسمى آدم لأدمته قال ولذلك سمي ولده ولد الأصفر وكانت ولادة رفقا بنت بتويل لإسحاق بن إبراهيم ابنيه العيص ويعقوب بعد أن خلا من عمر إسحاق ستون سنة توأمين في بطن واحد والعيص المتقدم منهما خروجا من بطن أمه فكان إسحاق فيما ذكر يختص العيص وكانت رفقا أمهما تميل إلى يعقوب فزعموا أن يعقوب ختل العيص في قربان قرباه بأمر أبيهما إسحاق بعد ما كبرت سن إسحاق وضعف بصره فصار أكثر دعاء إسحاق ليعقوب وتوجهت البركة نحوه بدعاء أبيه إسحاق له فغاظ ذلك العيص وتوعده بالقتل فخرج يعقوب هاربا منه إلى خاله لابان ببابل فوصله لابان وزوجه ابنتيه ليا وراحيل وانصرف بهما وبجاريتيهما وأولاده الأسباط الاثني عشر وأختهم دينا إلى

الشأم إلى منــزل آبائه وتألف أخاه العيص حتى نــزل له البلاد وتنقل في الشأم حتى صار إلى السواحل ثم عبر إلى الروم فأوطنها وصار الملوك من ولده وهم اليونانية فيما زعم هذا القائل. ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك.

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾قال مجاهد: هو شمعون، وقال السدي: هو يهوذا، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق هو أكبرهم روبيل ﴿ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذي أقول لكم، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه. فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك ﴿ قَالُواْ يَٰأَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ * قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ * قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم.

فأجابهم الشيخ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه. ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١٤] أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذن لخاسرون، أي عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضًا من غلطهم وخطئهم في التعريب؛ فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَةِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَجَآءُوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُواْ يَٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ * وَجَآءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ .

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب، أي في قعره على راعونته، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح، وهو الذي ينـــزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى المائح.

وقوله تعالى: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ فيه وجهان:

أحدهما : أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجبّ تقوية لقلبه، وتبشيرًا له بالسلامة.

الثاني : أنه أوحي إليه بالذي يصنعون به؛ فعلى هذا يكون الوحيُ قبل إلقائه في الجبّ إنذارًا له. ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه. وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: « الهاء » ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيعرِّفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم. ومما ذكر من قصته إذ ألقي في الجبّ – ما ذكره السدّيّ وغيره – أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر، تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونـــزعوا قميصه؛ فقال: يا إخوتاه! ردّوا عليّ قميصي أتوارى به في هذا الجبّ، فإن متّ كان كفني، وإن عشت أواري به عورتي؛ فقالوا: ٱدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا فلتؤنسك وتكسك؛ فقال: إني لم أر شيئًا، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صَخْرَةٍ فقام عليها. وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عبدي؛ قال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعدته على الصخرة سالمًا. وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام؛ فقام على الصّخرة وجعل يبكي، فنادوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عريانًا نـــزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقي في النار عريانًا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شَبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة

وجعله في عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقي في الجبّ عريانًا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه. قال وهب: فلما قام على الصخرة قال: يا إخوتاه! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلّكم فآنس بعضكم بعضًا فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريبًا فاذكروا غربتي، وإذا رأيتم شابًا فاذكروا شبابي؛ فقال له جبريل: يا يوسف! كف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله بمكان؛ ثم علمه فقال: قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب، ويا صاحب كلّ وحيد، ويا ملجأ كلّ خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملإ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي همّ ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا، إنك على كل شيء قدير؛ فقالت الملائكة: إلهنا! نسمع صوتًا ودعاء، الصوت صوت صبيّ، والدعاء دعاء نبيّ.

وقال الضّحاك: نــزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الجبّ فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب؟ فقال: نعم! فقال له: قل يا صانع كلّ مصنوع، ويا جابر كل كَسِير، ويا شاهد كل نَجْوى، ويا حاضر كل ملإ، ويا مفرّج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، ٱيتني بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحدًا سواك؛ فرددها يوسف في ليلته مرارًا؛ فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الجبّ.

وفي رواية: أنه لما ألقوه فيه، أوحى الله إليه: أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك، ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون، أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك، وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء يبكون، أي في ظلمة الليل؛ ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم.

﴿ قَالُواْ يَأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾أي ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾

أي في غيبتنا عنه في استباقنا . وقولهم ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ كيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك. ﴿ وَجَآءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفتعل؛ لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه، وآفة الكذب النسيان ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته، ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تملأوا يتواطأون.

فلما جاءوا لأبيهم ﴿ قَالُواْ يَٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ .

والسباق هو نوع من المنافسة؛ قال الزجاج. وقال الأزهريّ: النِّضال في السِّهام، والرِّهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما. قال القُشيريّ أبو نصر: «نَسْتَبِقُ» أي في الرّمي، أو على الفرس؛ أو على الأقدام؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو، لأنه الآلة في قتال العدوّ، ودفع الذئب عن الأغنام. وقال السدّي وابن حبّان: « نَسْتَبِقُ » نشتد جريًا لنرى أيُّنا أسبق.

ولا بأس أن نقف هنا على شيء من فقه المنافسه و السباق ، وأقوال أهل العلم في بذل العطايا والمكافأت في تلك الوجوه .

❊ ❊ ❊

السباق في الإسلام بين المشروع، والممنوع

قال ابن العربي: المسابقة شِرْعة في الشَّريعة، وخَصْلة بديعة، وعَون على الحرب؛ وقد فعلها ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها؛ فلما كبر رسول الله ﷺ سابقها فسبقته؛ فقال لها: « **هذه بتلك** » ، وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة؛ أخرجه مسلم.

الثانية: وروى مالك عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أُضْمِرت (من الْحَفْيَاء) وكان أمدها ثَنِيَّة الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني : أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث : ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيل التي يجب أن تَضمَّر ويسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة: وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ فنـــزلنا منـــزلاً فمنَّا من يصلح خباءه، ومنا من يَنْتَضل، وذكر الحديث. وخرّج النسائيّ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « **لا سَبَق إلا في نَصْل أو خُفّ أو حافر** » . وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاريّ عن أنس قال: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبَق - قال حُمَيد: أو لا تكاد تُسبَق - فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: « **حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه** » .

الرابعة: أجمع المسلمون على أن السَّبَق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَرِيّ القاضي في حديث الخفّ والحافر والنّصل «أو جَناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء

حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد رُوي عن مالك أنه قال: لا سَبَق إلا في الخيل والرمي، لأنه قوّة على أهل الحرب؛ قال: وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سَبَق الرمي. وظاهر الحديث يسوّي بين السّبق على النُّجُب والسَّبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. ورُوي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤُوِّل قوله؛ لأن حمله على العموم (في كل شيء) يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق.

الخامسة: لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترط خَسْقا أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سَبَق يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوّعًا فيجعل للسابق شيئًا معلومًا؛ فمن سبق أخذه. وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سَبَقه صاحبه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسَّبق الثالث - اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئًا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سَبَق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخِلا بينهما محلّلاً لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلّل أحرز السَّبَقين جميعًا وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شيء للمحلّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران - من أصحاب الشافعي -: وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولاً جريه؛ وسمي محلّلاً لأنه يحلل السَّبَق للمتسابقين أوْلَهُ. واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: « **من أدخل فرسًا بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بقِمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار** » .

السادسة: ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها. وقال الشافعي: وأقل السَبَق أن يسبق بالهادي أو بعضه، أو بالكَفَل أو بعضه. والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي.

السابعة: روي عن النبي ﷺ أنه سابق أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فسبق رسول الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر وثلَّث عمر؛ ومعنى وصلّى أبو بكر: يعني أن رأس فرسه كان عند صَلاَ فرس رسول الله ﷺ، والصَّلَوان موضع العَجُز.

ونعود إلى يوسف وأخوته؛ بعد أن قام أخوته بقذفه في الجب تخلصًا من ليستأثروا بمحبة أبيهم – فيما ظنوا– ؛ ذهبوا عنه وتركوه وراء ظهورهم في غيابات الجب ظانين أنه قد هلك وتخلصوا منه.

وعند أهل الكتاب: أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – : قال علماؤنا رحمة الله عليهم:

لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التَّنْيِيب؛ إذ لا يمكن ٱفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقًا ولا أثرًا ٱستدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص! قاله ابن عباس وغيره؛ وروى إسرائيل عن سِماك بن حرب عن عِكرمة عن ابن عباس قال: كان الدم دم سَخْلة. وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليه قال كذبتم؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص

ونعود مرة أخرى ليوسف عليه السلام في الجب.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٩ – ٢٢].

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب: أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة، أي مسافرون. قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف.

فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من صحيح مسلم: **« فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن »** .

قال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحد وصفه؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن.

فلما رآه ذلك الرجل، ويروى أن اسمه مالك بن زعر. قاله ابن عباس: كان اسم الذي باعه بمصر – يعني الذي جلبه إليها – مالك بن زعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم. فالله أعلم.

﴿ **قَالَ يَٰبُشْرَىٰ** ﴾ بشر أصحابه بأنه وجد عبدًا. وقال السدي: نادى رجلاً اسمه بشرى. قال النحاس: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيرًا؛ وإنما يأتي بالكناية. ﴿ **هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً** ﴾ أي يا بشارتي ﴿ **هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً** ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم، وقيل: ﴿ **وَأَسَرُّوهُ** ﴾الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين ٱشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. «بِضَاعَةً» نصب على الحال. قال مجاهد: أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرفقة، وقالوا لهم: هو بضاعة ٱستبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة. وقال ٱبن عباس: أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما

ٱستخرج من الجبّ؛ وذلك أهم جاءوا فقالوا: بئس ما صنعتم! هذا عبد لنا أَبق، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال: أنا أقرّ لكم بالعبودية، فأقرّ لهم فباعوه منهم. وقيل: إن يهوذا وصىّ أخاه يوسف بلساهم أن ٱعترِف لإخوتك بالعبودية فإني أخشى إن لم تفعل قتلوك؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجًا، وتنجو من القتل، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته؛ فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد!، قالوا: هو تَربَّى في حجورنا، وتخلق بأخلاقنا، وتأدّب بآدابنا؛ فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا! تربيت في حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم؛ فقال مالك: إن بعتموه مني ٱشتريته منكم؛ فباعوه منه؛ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم. ومع هذا لا يغيره تعالى، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر؛ بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يُملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي: باعوه بعشرين درهما، اقتسموها درهمين وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهمًا. والله أعلم.

وقيل: لما ٱشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابًا: «هذا ما ٱشترى مالك بن دعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكًا لهم بعشرين درهمًا، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدًا مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله» .

قال: فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتموني، نصركم الله وإن خذلتموني، رحِمكم الله وإن لم ترحموني؛ قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دمًا عَبِيطًا لشدّة هذا التوديع، ثم حملوا يوسف على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيدًا مكبّلاً مسلسلاً، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه – وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود – فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه! ٱرفعي رأسك تري ولدك مكبلاً مقيدًا مسلسلاً مغلولاً؛ فرّقوا بيني وبين والدي، فاسألي الله أن يجمع

بيننا في مستقرّ رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضربًا وجيعًا؛ فقال له: لا تفعل! والله ما هربت ولا أبِقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود: والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجّت الملائكة في السماء، ونـــزل جبريل فقال له: يا يوسف! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال: تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لا يعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وٱرتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضًا؛ فقال رئيس القافلة: من أحدث منكم حدثًا؟ - فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا - فقال الأسود: أنا لطمت ذلك الغلام العبرانيّ فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال له: ما أردت إلا هلاكنا! ٱيتنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر، وردّ عليه جماله، ودُخل به البلد نهارًا فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قطفير وزير الملك؛ قاله ٱبن عباس على ما تقدّم. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وٱتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافرًا، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى.

﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ** ﴾ أي أحسني إليه، وأحسني منـــزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو مأخوذ من ثوى بالمكان أي أقام به؛ ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا** ﴾، قال ٱبن عباس: كان حَصُورًا لا يولد له، وكذا قال ابن إسحق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولد له. وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة. قالوا: وكان الذي اشتراه من أهل

مصر عزيزها وهو الوزير بها، الذي تكون الخزائن مسلمة إليه. قال ابن إسحاق: واسمه اطفير ابن روحيب قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق. قال: واسم امرأة العزيز « راعيل » بنت رعاييل. وقال غيره: كان اسمها « زليخا » والظاهر أنه لقبها. وقيل « فكا » بنت ينوس، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعي.

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَاهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ي ﴿أَبَتِ ٱسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلأمِينُ ﴾[القصص: ٢٦] ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارا، وقيل بوزنه مسكًا ووزنه حريرًا ووزنه ورقًا. فالله أعلم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلأرْضِ ﴾أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلأحَادِيثِ ﴾أي فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾أي إذا أراد شيئًا فإنه يقيض له أسبابًا وأمورًا لا يهتدي إليها العباد. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾. وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين، وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد: فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدى: ثلاثون سنة. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾[الأحقاف: ١٥].

﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٣ — ٢٩].

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال. والمنصب والشباب. وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا إنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين في « الصحيحين » عن خاتم الأنبياء، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: « **سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله** » .

والمقصود: إنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص، فقال: ﴿ **مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ** ﴾يعني زوجها صاحب المنـــزل سيدي ﴿ **أَحْسَنَ مَثْوَاىَ** ﴾أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده ﴿ **إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ .

وأورد القرطبي أن امرأة العزيز قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرَّحِم صوّرني رَبِّي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شَعْرك! قال: هو أول شيء يَبْلَى مِنّي في

قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربيّ. قالت: يا يوسف! ٱرفع بصرك فأنظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي. قالت يا يوسف! أدنو منك وتتباعد مني؟! قال: أريد بذلك القرب من ربيّ. قالت: يا يوسف! القَيْطون (فرشته لك) فأدخل معي، قال: القَيْطُون لا يسترني من ربيّ. قالت: يا يوسف! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتي، قال: إذًا يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها. وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوّة؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه.

﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلآ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ اختلفت أقوال الناس عباراتهم في هذا المقام، فقيل: المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: « **يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها** » ، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: هم بها لولا أن رأى برهان ربه أي فلم يهم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاه ابن جرير وغيره.

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضًا:

فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضًا على أصبعه بفمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف. وقال العوفي عن ابن عباس: رأى خيال الملك يعني سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي. قال رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً** ﴾، وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر، قال: سمعت القرظي يقول: في البرهان الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾الآية، وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ ﴾الآية، وقوله: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ﴾ . وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوبًا من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. وقوله: ﴿ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾أي كما أريناه برهانًا صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

والذي يجب أن يعتقد المسلم: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونـــزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ .

وهنا نقف على مسألتين:

الأولى: قال العلماء: لما برّأت نفسها؛ ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب - قال: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه. قال نُوفٌ الشاميّ وغيره: كأنّ يوسف عليه السلام لم يَبِن عن كشف القضية، فلما بَغَت به غضب فقال الحق.

الثانية: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾لأنهما لما تعارضا في القول ٱحتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلها، أي حكم حاكم من أهلها؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة. وقد ٱختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة:

الأوّل : أنه طفل في المهد تكلم؛ قال السّهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ، وهو قوله: « **لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة** » وذكر فيهم شاهد يوسف.

قال القُشيريّ أبو نصر: كان صبيًا في المهد في الدار وهو ٱبن خالتها؛ وروى سعيد بن جُبير عن ٱبن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « **تكلم أربعة وهم صغار** » فذكر منهم شاهد يوسف.

﴿ **إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَٰذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّٰدِقِينَ** ﴾ فقال لمرأة العزيز :إن كان شقّ القميص من قدّامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القَميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ لأن المطلوب إذا كان هاربا فإنما يؤتى من قبل دبره، فكان معلوما أن الشقّ لو كان من قُبُل لم يكن هاربا مطلوبا، ولكن كان يكون طالبا مدفوعا، وكان ذلك شهادة على كذبه.

وذلك أن الرجل إنما يريد المرأة مقبلاً. إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ وذلك أن الرجل لا يأتي المرأة من دبر. وقال: إنه لا ينبغي أن يكون في الحقّ إلا ذاك. فلما رأى إطفير قميصه قُدّ من دبر عرف أنه من كيدها.

﴿ **فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ۞ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِئِينَ** ﴾ قال الرجل. يا يوسف « أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا » أي لا تذكره لأحد وٱكتمه. ثم أقبل عليها فقال : وأنت ﴿ **وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ** ﴾ يقول: استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك. ﴿ **إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ** ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلّب المذكر؛ والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين؛ وقيل: إن القائل ليوسف ٱعرض ولها ٱستغفري زوجُها الملك؛ وفيه قولان: **أحدهما:** أنه لم يكن غيورًا؛ فلذلك كان ساكنًا. **الثاني:** أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها.

﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ** ﴾ وذلك أن القصة ٱنتشرت في أهل مصر فتحدّث النساء. قيل: هن ٱمرأة ساقي العزيز، وٱمرأة خبازه، وٱمرأة صاحب دوابه، وٱمرأة صاحب سجنه. وقيل: ٱمرأة الحاجب؛ وقالت النسوة ﴿ **ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَٰهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾ وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان ينفذ أمرُها فيه.

قال مقاتل عن أبي عثمان النَّهْديّ عن سلمان الفارسيّ قال: إن ٱمرأة العزيز ٱستوهبت

زوجها يوسف فوهبه لها، وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتخذه ولدًا؛ قال: هو لك؛ فربته حتى أيْفع وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف له وتتزيّن وتدعوه من وجه اللطف فعصمه اللهُ.

وبدأ الموضوع ينتشر.. خرج من القصر إلى قصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها.. ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث. إن خلو حياة هذه الطبقات من المعنى، وانصرافها إلى اللهو، يخلعان أهمية قصوى على الفضائح التي ترتبط بشخصيات شهيرة.. وزاد حديث المدينة، وانتقل الخبر من فم إلى فم.. ومن بيت إلى بيت.. حتى وصل لامرأة العزيز ، وغدت النساء يدلين بدلوهن في الموضوع.

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ والشَّغاف حجاب القلب، والشّعاف سويداء القلب، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف تمكن منه؛ وقال الحسن: ويقال إن الشَّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فلصق حبُّه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب.

فما كان من نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء إلا الطعن على امرأة العزيز وعيبها، والتشنيع عليها في مراودها فتاها، وحبها الشديد له وهو لا يساوي هذا لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا. ولهذا قلن: ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي بغيبتهنّ إياها، وٱحتيالهنّ في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهنّ وٱستأمنتهنّ فأفشين سرها، فسمى ذلك مكرًا.أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهر ندمًا وهي معذورة في نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتهن في منـــزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت في جملة ذلك شيئًا مما يقطع بالسكاكين، كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكينًا، وأمرته بالخروج عليهن، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة.

وهنا نقف مع امرأة العزيز وقفة. فقد قررت أن تعد مأدبة كبيرة في القصر. وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية. فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور. ويبدوا أنهن

كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا، فأعدت لهن هذا المتكأ. واختارت ألوان الطعام والشراب وأمرت أن توضع السكاكين الحادة إلى جوار الطعام المقدم. ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها.

قال مجاهد عن ٱبن عباس: إن ٱمرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعامًا فأدعو هؤلاء النّسوة؛ فقال لها: افعلي؛ فاتخذت طعامًا، ثم نَجَّدت وزيَّنت لهن البيت؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها، ولا تتخلف منكنّ ٱمرأة ممن سميتُ. قال وهب بن مُنبِّه: إنهنّ كنّ أربعين ٱمرأة فجئن على كَرْه منهنّ، ﴿ **وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا** ﴾فجعلت في كل مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجّ وسكِّين حاد؛ فلما شرعن في تقطيع الأترج بالسكين؛ تحينت امرأة العزيز الفرصة، وأمرت يوسف ﴿ **وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ** ﴾.

قيل: إنها قالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت لخادمتها: إذا قلت لك ٱدع لي إيلا فٱدع يوسف؛ وإيل: صنم كانوا يعبدونه، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدّ مِئزره، وحسَرَ عن ذراعيه؛ فقالت للخادمة: ٱدع لي إيلاً؛ قال: فتعجب النسوة وقلن: كيف يجيء! فصعدت الخادمة فدعت يوسف، فلما ٱنحدر قالت لهن: ٱقطعن ما معكن. ﴿ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ هذا ولم يخرج يوسف عليهن في زينته، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه، وتحيّرن لحسن وجهه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن أهن يقطعن الأترجّ؛ فأعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح، وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم.

وقد جاء في حديث الإسراء: « **فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن** » . قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري. ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه. ويوسف كان على النصف من حسن آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما؛ كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره: كان في الغالب مبرقعًا لئلا يراه الناس. ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى؛ من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته. وذلك قول الله عز وجل ﴿ **فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول. فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفتخر عليهن بأن هذا متناول يدها؛ ﴿ **قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ** ﴾ وإن كان قد استعصم في المرة الأولى فهي ستحاول المرة تلو الأخرى إلى أن يلين: انظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب! لقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه لكنه استعصم، وإن لم يطعن سآمر بسجنه لأذلّه.

إنها لم ترى بأسا من الجهر بنـــزواتها الأنثوية أما نساء طبقتها. فقالتها بكل إصرار، قالتها مبيّنة أن الإغراء الجديد تحت التهديد.

وكان جواب يوسف عليه السلام جوابًا عجيبًا ﴿ **رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ** ﴾ يعني إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، وحطتني بحولك وقوتك.

فدخول السجن، أَحَبُّ إِلَيَّ وأسهل عليّ وأهون من الوقوع في المعصية؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق.

هذا وقد روي أن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ **ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ** ﴾أوحى الله إليه :

« يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إليّ، ولو قلت العافية أحبّ إليّ لعوفيت » . فالله أعلم بتلك الرواية المنقولة عن الإمام القرطبي رحمه الله.

فأمام هذه الدعوات - سواء كانت بالقول أم بالحركات واللفتات- استنجد يوسف بربه ليصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه. دعى يوسف الله دعاء الإنسان العارف ببشريته، الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيدا من عناية الله وحياطته، ويعاونه على ما يعترضه من فتة وكيد وإغراء. ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ** ﴾ أي كيد النّسوان. وقيل: كيد النّسوة اللاتي رأينه؟ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة ٱمرأة العزيز، وقلن له: هي مظلومة وقد ظلمتها.

وقيل: طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في ٱمرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تَعذله في حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له: يا يوسف! ٱقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال: يا رب كانت واحدة فصرن جماعة !!.

وقيل: كيد ٱمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدًا لاحتيال الناس فيها.

فخشى يوسف على نفسه وعلم أنه في حالة ما إذا وافقهن سيكون من الجاهلين ﴿ **وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ** ﴾أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ ودلّ هذا على أن أحدًا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودلّ أيضًا على قبح الجهل والذم لصاحبه. فكأن يوسف يعني من مقولته تلك : إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، وحطتني بحولك وقوتك.

قوله تعالى: ولهذا قال تعالى: ﴿ **فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلآيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ**

مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

وهنا بدا لهم، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلمًا وعدوانًا.

وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن، بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى يحس في نفسه أثرا منه. أو بهما جميعا. وهكذا اجتاز يوسف المحنة الثانية بلطف الله ورعايته، فهو الذي سمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء.

قال الله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾قيل كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل: « نبوا » والآخر خبازه، يعني الذي يلي طعامه، واسمه فيما قيل «مجلث» وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه، ودله وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

وقال « فتيان » لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمّى فتى، صغيرًا كان أو كبيرًا؛ ذكره الماورديّ. وقال القُشَيريّ: ولعلّ الفتى كان اسمًا للعبد في عرفهم؛ ولهذا قال: « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » . ويحتمل أن يكون الفتى اسمًا للخادم وإن لم يكن مملوكًا.

قال وهب وغيره: حمل يوسف إلى السجن مقيّدًا على حمار، وطيف به « هذا جزاء من يعصي سيدته » وهو يقول: هذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران، وسرابيل القَطِران، وشراب الحميم، وأكل الزّقوم.

فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قومًا قد انقطع رجاؤهم، واشتد بلاؤهم؛ فجعل يقول لهم: اصبروا وأبشروا تؤجروا؛ فقالوا له: يا فتى! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب، ابن ذبيح الله إسحق، ابن خليل الله إبراهيم.

وقال ابن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن؛ فكان يُعزّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلي الليل كله، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال له: يا يوسف! لقد أحببتك حبًّا لم أحبّ شيئًا حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتني سيدتي فنـــزل بي ما ترى، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبَّازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يَسُمَّاه جميعًا، فأجاب الخبّاز وأبي صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: ﴿ **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ** ﴾ وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقي: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخبّاز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للساقي: اشرب! فشرب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه.

﴿ **قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا** ﴾ أي عنبًا؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبّر الأحلام؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه: تعال حتى نجرّب هذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا؛ قاله ابن مسعود. وحكى الطّبريّ أنهما سألاه عن علمه فقال: إني أعبّر

الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ٱبن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ : « **أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا** » .

وقيل: إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبًا؛ وهذا قول ٱبن مسعود والسّديّ. وقيل: إن المصلوب منهما كان كاذبًا، والآخر صادقًا؛ قاله أبو مِجْلَز. وروى الترمذيّ عن ٱبن عباس عن النبي ﷺ قال: « **من تحَلَّم كاذبًا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين (ولن يَعقِد بينهما)** » . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وعن عليّ عن النبي ﷺ قال : « **من كذب في حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعِيرة** ». قال: حديث حسن.

قال ٱبن عباس: لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين؛ فقال لهما يوسف: مالي أراكما مكروبين؟ قالا: يا سيدنا! إنا رأينا ما كرهنا؛ قال: فقصّا عليّ، فقصّا عليه؛ قالا: نبئنا بتأويل ما رأينا؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام. ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾فإحسانه، أنه كان يعود المرضى ويداويهم، ويُعزِّي الحزانى؛ قال الضّحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسّع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له. وقيل: « مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أي العالمين الذين أحسنوا العلم، قاله الفراء.

وقال ٱبن إسحق: ﴿ **من الْمُحْسِنِينَ** ﴾ لنا إن فَسَّرته، كما يقول: افعل كذا وأنت محسن. قال: فما رأيتما؟ قال الخبّاز: رأيت كأني اختبزت في ثلاثة تنانير، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعته على رأسي فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا** ﴾أي عنبًا، بلغة عُمان، قاله الضّحاك.

وقرأ ٱبن مسعود: ﴿ **إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَبًا** ﴾. وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيًا ومعه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى. ﴿ **أَعْصِرُ خَمْرًا** ﴾ أي عنب خمر. ويقال: خَمْرة وخَمْر وخُمُور، مثل تمرة وتمر وتُمور.

قال لهما يوسف: ﴿ **لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ** ﴾ يعني لا يجيئكما غدًا طعام من

منـــزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكما، فقالا: ٱفعل! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف. وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملّة قوم لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك. ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله، فاسمعوا أوّلاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿ يَٰصَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ الآية كلها، على ما يأتي. وقيل: علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام لِيَسْعَدا به.

وقيل: إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ في النوم ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا ﴾ بتفسيره في اليقظة، قاله السُّديّ، فقالا له: هذا من فعل العَرّافين والكَهَنة، فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّي، إني لا أخبركما به تَكهُّنًا وتنجيمًا، بل هو بوحي من الله عزّ وجلّ. وقال ٱبن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعامًا معروفًا فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا ﴿تُرْزَقَانِهِ ﴾ أي يجري عليكما من جهة الملك أو غيره.

ويحتمل يزرقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارهما بالغيوب[1].

وقال بعض من أهل التفسير في رواية مشابهة: رأيا في ليلة واحدة. أما الساقي فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه. ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى.

إن أول ما قام به يوسف – عليه السلام – هو طمأنتهما أنه سيؤول لهم الرؤى، لأن ربه علمه علمًا خاصًا، جزاء على تجرده هو وآباؤه من قبله لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء.. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما، كما

---

(١) القرطبي (١٨٨/٩).

يكسب ثقتهما كذلك لدينه. ثم بدأ بدعوتهما إلى التوحيد، وتبيان ما هم عليه من الظلال. قام بكل هذا برفق ولطف ليدخل إلى النفوس بلا مقاومة.

بعد ذلك فسر لهما الرؤى. بيّن لهما أن أحدها سيصلب، والآخر سينجو. لكنه لم يحدد من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيئ تلطفا وتحرجا من المواجهة بالشر والسوء. ﴿ **قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا** ﴾ وأوضح : إن هذا من تعليم الله إياي، لأني مؤمن به موحد له، متبع ملة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق ويعقوب. ﴿ **مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الأوثان وحقرها، وضعف أمرها فقال: ﴿ **يَٰصَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنـــزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٤٠] أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره. وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿ **يَٰصَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا** ﴾ ﴿ **وَأَمَّا ٱلآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ** ﴾ ﴿ **قُضِيَ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾[يوسف: ٤١] أي وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة.

ولهذا جاء في الحديث: « **الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر؛ فإذا عبرت وقعت** » . وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد أن الفتيان قالا: لم نر شيئًا فقال لهما: ﴿ **قُضِيَ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴾ .

﴿ **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ .

يخبر تعالى أن يوسف قال للذي ظنه ناجيًا منهما وهو الساقي ﴿ **ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾ يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل على

جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب.

قوله تعالى: ﴿ **ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾ أي سيّدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسّيد ربّ؛ قال الأعشى:

رَبِّي كريمٌ لا يُكدِّرُ نِعمةً وإذا تُنوشِدَ في المَهارِقِ أنْشَدَا

ومعنى ما قاله يوسف؛ أي ٱذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنّي مظلوم محبوسٌ بلا ذنب. وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « **لا يَقُلْ أحدُكم ٱسقِ ربَّك أطعمْ ربك وضِّىءْ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّي ولْيقل سيّدي مولاي ولا يقلْ أحدُكم عبدي أمَتي ولْيقلْ فتايَ فَتَاتي غلامي** ».

وفي القرآن: ﴿ **ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾. إِلَى رَبِّكَ أي سيك، ويدل على هذا قول يوسف ﴿ **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ﴾ أي صاحبي؛ يعني العزيز.

ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له. قال العلماء قوله عليه السلام: « **لا يَقُلْ أحدُكم** » « **ولْيقلْ** » من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرّم؛ ولأنه قد جاء عن رسول الله ﷺ: « **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا** » أي مالكتها وسيّدها؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألاّ نتخذ هذه الأسماء عادة فنترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمتي يجمع معنيين:

أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمتي تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غير جائز.

والثاني: أن المملوك يدخله من ذلك شيء في ٱستصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن شعبان في « الزاهي »: « لا يقل السّيد عبدي وأمتي ولا يقل المملوك ربّي ولا ربّتي » وهذا محمول على ما ذكرناه. وقيل: إنما قال ﷺ: « **لا يقل العبد ربّي وليقل سيّدي** » لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالإتفاق؛ وٱختلف في السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح؛ إذ لا التباس ولا

إشكال، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس في الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الرّب، فيحصل الفرق. وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزًا في شرع يوسف عليه السلام.

وقوله: ﴿ **فَأَنْسَاهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام. قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو الصواب.

وقيل أن الضمير في ﴿ **فَأَنْسَاهُ** ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقي الملك – حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك – حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك– ﴿ **ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الإعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللّبث.

قال عبد العزيز بن عُمير الكِنْديّ: دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر (ابن) الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحيت إذ ٱستغثت بالآدميين؟! وعزّتي! لألبثنّك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عنّي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة. والله أعلم بصحة هذه الرواية .

ورُوي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطوّل سجنه، وقال له: يا يوسف! من خلّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجبّ؟ قال: الله تعالى قال: فمن عَصَمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟ قال: يا رب كلمة زلّت مني! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين.

ورَوى أبو سلَمة عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ما لبث في السجن بضع سنين** » .

وقال ٱبن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذي نجا منهما ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه.

وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: « **لولا كلمة يوسف – يعني قوله:** ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾**– ما لبث في السجن ما لبث** » قال: ثم يبكي الحسن ويقول: نحن ينـــزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس.

والثاني: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطانُ الساقي أن يذكر يوسف لربه، أي لسيده؛ وفيه حذف، أي أنساه الشيطانُ ذكره لربه؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ ردّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾فدلّ على أن الناسي (هو) الساقي لا يوسف؛ مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطانة؟! قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقًا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال ﷺ : « **نسي آدم فنسيت ذريته** » . وقال: « **إنما أنا بشر أنسى كما تَنسون** » . وقد تقدم.

﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ .

قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف. وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر، فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين. وفي الصحيح: « **الإيمان بضع وستون شعبة، وفي رواية: وسبعون شعبة، وأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق** » .

فالبضع قطعة من الدّهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بَضْع وبِضْع بفتح الباء وكسرها. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: « **وكم البضع** » فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: « **اذهب فزائدْ في الخَطَر** » . وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبيّ. قال الماورديّ: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله

عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعيّ. ٱبن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزّجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفرّاء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجونًا ثلاثة أقاويل:

أحدها: سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الثاني: ٱثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس.

الثالث: أربع عشرة سنة، قاله الضحاك. وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال: مكث يوسف في السجن خمسًا وبضعًا. وٱشتقاقه من بضعت الشيء أي قطعته، فهو قطعة من العدد، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله. قال وهب بن مُنَبِّه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعذّب بُخْتَنَصَّر بالمسخ سبع سنين. وقال عبد الله بن راشد البصريّ عن سعيد بن أبي عَرُوبة: إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرة سنة.

وبالجملة فإن آية ﴿ **ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** ﴾يمكن تأويلها على أنها دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً فإن الأمور بيد مُسبِّبها، ولكنه جعلها سلسلة، وركَّبَ بعضها على بعض، فتحريكها سنّة، والتعويل على المنتهى يقين. والذي يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر؛ وهذا بيّن فليتأمّل(١).

﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ**

(١) القرطبي (٩/١٩٤) بتصرف .

دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

لما دنا فرج يوسف عليه السلام إيذانًا بخروجه من السجن ؛ سبب الله لذلك سببًا غاية في الإعجاز، قيل فيما رواه القرطبي بسنده [1].

« أن جبريل نـــزل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكّن لك في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها،ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدّة، وجعلها آخرًا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الريّان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سِمان، في أثرهنّ سبع عِجاف - أي مهازيل - وقد أقبلت العجَاف على السِّمان فأخذن بآذانهنّ فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عِجافًا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السِّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكَهَانة والنّجامة والعَرَافة والسِّحر، وأشراف قومه، فقال: ﴿ **يَٰأَيُّهَا ٱلْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ** ﴾ فقصّ عليهم، فقال القوم: ﴿ **أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ** ﴾ أي أخلاط أحلام. والضِّغث في اللغة الحُزْمة من الشيء كالبقل والكلإ وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا.

ويروى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: البقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانًا فهي سِنيّ رخاء، وإن كانت عجافًا كانت شدادًا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتَنًا مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخبر « يشبه بعضها بعضًا » .

---

(١) القرطبي (٩/١٩٨) بتصرف.

وفي خبر آخر في الفتن: « **كأنها صياصي البقر** » يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرًا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدوّ يضرب عليهم، وينـــزل بساحتهم. وقد تدلّ البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنَة؛ لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات.

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۞ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔانَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ** ﴾.قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ** ﴾أي فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: ٱئتوني به ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ** ﴾أي يأمره بالخروج قال: ﴿ **ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ** ﴾أي حال النسوة. ﴿ **ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته (عند) الملك مما قُذف به، وأنه حبس بلا جرم. وروى الترمذيّ عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ: « **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم (ابن الكريم) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم – قال – ولو لبثتُ في السجن ما لَبث ثم جاءني الرسول أجبت – ثم قرأ –** ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾**– قال – ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد (إذ قال** ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾**) فما بعث الله من بعده نبيًا إلا في ذروة من قومه** » . وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له:** ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠] » ورو ي عن النبي ﷺ أنه قال: «**يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابرًا حليمًا ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعيَ ولم ألتمس العُذْر**». وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيره. وفي رواية الطّبريّ: «**يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعًا أنْ كان لحليمًا ذا أناة**» . وقال ﷺ: « **لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه**

والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب » .

قال ٱبن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرًا، وطلبًا لبراءة الساحة؛ وذلك أنه – فيما روي – خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحًا فيراه الناس بتلك العين أبدًا ويقولون: هذا الذي راود ٱمرأة مولاه؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته، ويحقّق منـــزلته من العفّة والخير؛ وحينئذ يخرج للإِحْظَاءِ والمنـــزلة؛ فلهذا قال للرسول: ٱرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سجنت بحق أو بظلم؛ ونَكَب عن ٱمرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لذمام الملك العزيز له. فإن قيل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر من الرأي، له جهة أيضًا من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نَتجَ له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلَدٌ. قوله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ** ﴾ ذكر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفي الكلام محذوف، أي فاسأله أن يتعرّف ما بال النّسوة. قال ٱبن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز – وكان قد مات العزيز – فدعاهنّ فـَ ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ** ﴾أي ما شأنكنّ. ﴿ **إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ** ﴾وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت ٱمرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهنّ. . ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ** ﴾أي معاذ الله. ﴿ **مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾أي زنًى. قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أي تبيّن وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ؛

كما قال: كُبْكِبُوا في كببوا، وكفكف في كفف؛ قاله الزجاج وغيره. وأصل الحَصّ ٱستئصال الشيء؛ يقال: حصَّ شعره إذا ٱستأصله جَزًّا.

﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها – وإن لم يكن سأل عنه – إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفسًا ظنٌّ، ولا يخالطها شك. وشدّدت النون في ﴿ خَطْبُكُنَّ ﴾و ﴿ رَاوَدتُّنَّ ﴾ لأنها بمنـــزلة الميم والواو في المذكر.

﴿ يَأَيُّهَا ٱلْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى: أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر، الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها. واللام في «للرؤيا» للتَّبيين، أي إن كنتم تَعبُرون، ثم بَيّن فقال: للرؤيا.

قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾.

لما ثبت للملك براءته مما نُسب إليه؛ وتحقّق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجَلَده عظمت منـــزلته عنده، وتيقّن حسن خلاله قال: ﴿ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾فانظر إلى قول الملك أولاً – حين تحقق علمه – ﴿ ٱئْتُونِي بِهِ ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ ورُوي عن وهب بن منَبِّه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال: حسبي ربّي من خلقه، عزَّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إله غيره.

ثم دخل فلما نظر إليه الملك نـــزل عن سريره فخرّ له ساجداً؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ . قَالَ له يوسف: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ للخزائن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه تصرفاتها.

وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن.

وقيل: إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن

يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عَمِّي إسمعيل، ثم دعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما (تكلم الملك) بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيتَ سبع بقرات سمان شُهْباً غُرًّا حساناً، كشف لك عنهن النِّيل فطلعن عليك من شاطئه تَشخُب أخلافها لبناً؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النِّيل فغار ماؤه، وبدا أُسُّه، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، لهنّ أنياب وأضراس، وأكفّ كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ افتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزّقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مخّهنّ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن في الماء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النار فأحرقتهنّ؛ فصرن سوداً مغبرات؛ فانتبهتَ مذعوراً أيها الملك؛ فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً بأعجب مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها الصدّيق؟ .

فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت، وأظهر الله فيه النّماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه وسنبله تبني له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفاً للدواب، وحبه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهْرَائك الخُمْس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام عند ذلك:

﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ﴾ أي على خزائن أرضك؛ وهي جمع خِزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لَهُمْ شِيمَةٌ لم يُعْطِهَا الله غَيْرَهُمْ   مِنَ الجُودِ والأَحْلاَمِ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ ٱلآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ .

فإن الله جعل نهاية هذه القصة على وجه عظيم للاعتبار؛ فقد أنعم على يوسف في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السجن وتمكينه له في الأرض.

قال الطَّبريّ: استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريّان يوسف على عمل إطفير (العزيز) وعَزَله؛ قال مجاهد: وأسلم على يديه. قال ٱبن عباس: ملّكه بعد سنة ونصف. وروى مقاتل أن النبي ﷺ قال: « **لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لَمُلِّك في وقته** » .

ثم مات إطفير فزوّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل(امرأة العزيز)، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفرائيم ومنشا، ٱبني يوسف، ومن زعم أنها زَليخَاء قال: لم يتزوّجها يوسف، وأنها لما رأته في موكبه بكت، ثم قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدًا بالمعصية، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكًا، فضمّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، و لم يتزوّجها؛ ذكره الماورديّ؛ وهو خلاف ما تقدّم عن وهب، وذكره الثعلبيّ؛ فالله أعلم.

ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل، فأحبّه الرجال والنساء، ثم دخلت السنون المخصبة، فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة، فلما أدركت الغَلّة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأَهْرَاءَ، فجمعت فيها في تلك السنة غَلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نـــزل جبريل وقال: يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين. وقال بعض أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان:

إحداهما: أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية.

والثانية: أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسًا ويعزّ إلى الغاية، فٱجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع!! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي الجوع الجوع!! قال: فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها؛ معاشر الناس! لا يزرع أحد زرعًا فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف.

قال ٱبن عباس: لما كان ابتداء القحط بينما الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف! الجوع الجوع!! فقال يوسف: هذا أوان القحط؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنيّ القحط هلك فيها كل شيء أعدّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف؛ فباعهم أوّل سنة بالنقود، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه؛ وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى ٱحتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى ٱحتوى على الكل؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضيّاع، حتى ملكها كلها؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقهم جميعًا وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبق في السنة السابعة بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدًا له؛ فقال الناس: والله ما رأينا ملكًا أجلّ ولا أعظم من هذا؛ فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيت صنع ربي فيما خوّلني! والآن كل هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت، وإنما نحن لك تبع؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض مماليكك، وخوَل من خوَلك؛ فقال يوسف عليه السلام: إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم، ولم أُجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء؛ وإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنّتي . ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع؛ وأمر يوسف طباخ الملك أن يجعل غداءه نصف النهار، حتى يذوق الملك طعم الجوع، فلا ينسى الجائعين؛

فمن ثَمَّ جعل الملوك غذاءهم نصف النهار.

وهنا يبين المولى تبارك وتعالى حُكمًا قدريًا، وسنة كونية ماضية وهي: ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ أي بإحساننا؛ والرحمة النعمة والإحسان وهي لمن يريده الله برحمة ويستأثره بنعمة.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي ثوابهم. وقال آبن عباس ووهب: يعني الصابرين؛ لصبره في الجبّ، وفي الرقّ، وفي السِّجن، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة. وقال الماورديّ: وآختلف فيما أوتيه يوسف من هذه الحال على قولين:

أحدهما: أنه ثواب من الله تعالى على ما آبتلاه.

الثاني: أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلاً منه عليه، وثوابه باق على حاله في الآخرة.

ثم يوجه الله عباده للنعيم الحق، والسعادة الدائمة؛ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متّق.

ويروى أن الناس أنشدوا:

أَمَا في رسول الله يوسف أُسْوَةٌ … لمثلك محبوسًا على الظُّلم والإفْك
أقامَ جَميلَ الصّبر في الحبس بُرهة … فآل به الصّبرُ الجميلُ إلى المُلْكَ

وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مَضيقِ الخوف مُتّسعُ الأَمْنِ … وأوّل مفروحٍ به آخرُ الحزنِ
فلا تَيْأَسَنْ فالله مَلَّكَ يوسفَا … خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ

وأنشد بعضهم:

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهَى … وَكادت تَذُوبُ لَهُنَّ المُهَجْ
وحَلّ البلاءُ وقَلّ العَزَاء … فعند التَّناهي يكونُ الفَرَجْ

هذا وقد عقد الملك جلسة ليتثبت من أمر يوسف بعد أن ذاع صيتة وامتدت شهدته وعُرفت قصيه .

وهنا نجد ان السياق تجاوز عما حدث بين الملك ورسوله، وردة فعل الملك. ليقف بنا أمام المحاكمة. وسؤال الملك للنساء عن أمر يوسف: ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ويبدوا** ﴾ أن الملك سأل عن القصة ليكون على بينة من لامر وظروفه قبل أن يبدأ التحقيق، لذلك جاء سؤاله دقيقا للنساء. فاعترفت النسوة بالحقيقة التي يصعب إنكارها: ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ** ﴾ وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف، التي يئست منه، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به.. تتقدم لتقول كل شيء بصراحة:

﴿ **قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** ﴾

فيصور السياق القرآني لنا اعتراف امرأة العزيز، بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة ﴿ **أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ شهادة كاملة بإثمها هي، وبراءته ونظافته وصدقه هو.

وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة:

﴿ **وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

إن تأمل الآيات يوحي بأن امرأة العزيز قد تحولت إلى دين يوسف. تحولت إلى التوحيد. إن سجن يوسف كان نقلة هائلة في حياتها. آمنت بربه واعتنقت ديانته، وأحبته على البعد، وما زالت هي المرأة العاشقة التي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح. ولو بالغيب.. وعلى البعد.. ودون لقاء أو أمل في لقاء. ويصدر الأمر الملكي بالإفراج عنه وإحضاره.

و لم يرد في السياق القرآني بعد ذلك قصة امرأة العزيز تمامًا، يسقطها من المشاهد، فلا نعرف ماذا كان من أمرها بعد شهادتها الجريئة التي أعلنت فيها ضمنا إيمانها بدين يوسف.

﴿**وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ**

وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ .

ذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: ٱئتوني به ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ** ﴾ أي يأمره بالخروج قال: ﴿ **رْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ** ﴾ أي حال النسوة. ﴿ **ٱللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾فأبى يوسف أن يخرج إلا أن تضحّ براءته عند الملك مما قُذف به، وأنه حبس بلا جرم.

وروى الترمذيّ عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ : « **إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم قال: ولو لبثتُ في السجن ما لَبث ثم جاءني الرسول أجبت – ثم قرأ – ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾– قال – ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد إذ قال ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ فما بعث الله من بعده نبيًا إلا في ذروة من قومه** » .

وروى البخاريّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « **يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾**[البقرة:٢٦٠] » ، وورود عن النبي ﷺ أنه قال: « **يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابرًا حليمًا ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعيَ ولم ألتمس العُذْر** » .

وفي رواية الطّبريّ: « **يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعًا أَنْ كان لحليمًا ذا أناة** » . وورد أيضًا عنه ﷺ : « **لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرهم الباب** » .

فكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرًا، وطلبًا لبراءة الساحة؛ وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحًا فيراه الناس بتلك العين أبدًا ويقولون: هذا الذي راود ٱمرأة مولاه؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبيّن براءته، ويحقّق منـــزلته من العفّة والخير؛ وحينئذ يخرج للإحْظَاءِ والمنـــزلة؛ فلهذا قال للرسول: ٱرجع إلى

ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سجنت بحق أو بظلم؛ ونَكَب عن ٱمرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لذِمام الملك العزيز له.

وهنا قد يطرأ استفهام وهو: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟

فالوجه في ذلك -والله أعلم- أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر من الرأي، له جهة أيضًا من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرّضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نَتَجَ له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلَدٌ. والله أعلم.

ونرجع إلى يوسف فقد طلب من الرسول أن يسأل الملك : ﴿ **فَسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ** ﴾؛ فذكر النّساء جملة ليدخل فيهنّ امرأة العزيز حتى لا يتعرض لها تصريحًا وتوضيحًا؛ وذلك حُسن عشرة وأدب.

قال ٱبن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز - وكان قد مات العزيز - فدعاهنّ فـ ﴿ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ** ﴾ أي ما شأنكنّ. ﴿ **إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت ٱمرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهنّ.

وكان رد النسوة صريحًا صادقًا ف ﴿ **قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ** ﴾ أي معاذ الله. ﴿ **مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ** ﴾ والسؤ بعموم الكلمة هو كل دنية ، وقيل: أي الزنّي. والأولى أصح والله أعلم.

وهنا جاء الرد من صاحبة وشريكة القصة، وهو الرد الذي كان ينتظره الجميع، وأولهم يوسف عليه السلام. فقَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ: ﴿ **ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ** ﴾ أي تبيّن وظهر،

وتذهب إلى أبعد من إسقاط التهمة عن يوسف؛ باعترافها على نفسها ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها - وإن لم يكن سأل عنه - إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفسًا ظنٌّ، ولا يخالطها شك.

فاعتراف امرأة العزيز، بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة شهادة كاملة بإثمها هي، وبراءته ونظافته وصدقه هو. شهادة لا يدفع إليها خوف أو خشية أو أي اعتبار آخر.

ويتضح من السياق أن امرأة العزيز حرصت على أن يحترمها يوسف عليه السلام الذي أهان كبرياءها الأنثوية، و لم يعبأ بفتنتها الجسدية. وقامت لتصحح صورتها في ذهنه. وتريد أن تصحح فكرته عنها: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ . ثم تمضي في طريق العودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها ﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

وقد استشهد أهل العلم بهذه الآية على إسلام امرأة العزيز وتحولها إلى دين يوسف، واعتناقها دين التوحيد. فكان سجن يوسف نقلة هائلة في حياتها. آمنت بربه واعتنقت ديانته، فسبحان مقدر الأقدار، ومسبب الأسباب؛ الذي عصم يوسف في السجن، وهدى امرأة العزيز بسبب سجن يوسف.

وهنا طلب الملك أن يكون يوسف وزيره كما تقدم ، بعد ما رأى أمر يوسف. براءته، وعلمه، وعدم تهافته على الملك. فعرف أنه أمام رجل كريم، فلم يطلبه ليشكره أو يثني عليه، وإنما طلبه ليكون مستشاره. وعندما جلس معه وكلمه، تحقق له صدق ما توسمه فيه. فطمئنه على أنه ذو مكانه وفي أمان عنده. فماذا قال يوسف؟

لم يسجد شكرا للملك، و لم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين، كما يفعل المتملقون للطواغيت؛ كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الازمة القادمة.

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقد اشتملت - فيما اشتملت - هذه الآية على أربع فوائد:

الفائدة الأولى: ورد عن مالك بن أنس قوله: مصر خزَانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله: ﴿ **ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ** ﴾ أي على حفظها، فحذف المضاف . ﴿ **إِنِّي حَفِيظٌ** ﴾لما وُلّيْت ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بأمره. وفي التفسير: إني حاسب كاتب؛ وأنه أوّل من كتب في القراطيس. وقيل: ﴿ **حَفِيظٌ** ﴾ لتقدير الأقوات ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بسنيّ المجاعات.

وورد عن جُويبر عن الضّحّاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « **رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٱجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أَخَّر ذلك عنه سنة** » . قال ابن عباس: لما انصرمت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتَوجَّه ورَدّاه بسيفه، ووضع له سريرًا من ذهب، مكلّلاً بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حُلّة من إسْتَبرق؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعًا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشًا وستون مِرْفَقة، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوّجًا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه.

قال ابن زيد: كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلّم سلطانه كلّه إليه، وهلك قطفير في تلك الليالي، فزوّج الملك يوسف راعيل ٱمرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصدّيق لا تلمني؛ فإني كنت ٱمرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي. فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف.

وقال وهب بن منبّه: إنما كان تزويجه زليخاء ٱمرأة العزيز بين دخلتي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف، فصارت تَتَكفّف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرّضت له لعله يسعفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكربعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم،

فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدميّ، وأُرَجِّل جُمَّتك بيديّ، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتوّي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلّي، وعَمِي بصري،وبعد ما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفّف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين.

فبكى يوسف بكاء شديدًا، ثم قال لها: هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئًا؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها، فوجد للسوط في يده ٱضطرابًا وارتعاشًا من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منـــزله فأرسل إليها رسولاً: إن كنتِ أَيِّمًا تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك، فقالت للرّسول: أعوذ بالله أن يستهزىء بي الملك! لم يُرِدْني أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرّضت له، فقال لها: ألم يبلّغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيئت، ثم زُفّت إليه، فقام يوسف يصلّي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكرامًا ليوسف عليه السلام لّما عَفَّ عن محارم الله، فأصابها فإذا هي عذراء، فسألها؛ فقالت: يا نبيّ الله إن زوجي كان عِنِّينًا لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا في خَفْض عيش، في كل يوم يجدّد الله لهما خيرًا، وولدت له ولدين، إفراثيم ومنشا.

الفائدة الثانية: قال بعض أهل العلم: في طلب يوسف عليه السلام ﴿ **قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾. ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك.

وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليومَ غيرُ جائز؛ والأوّل أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم.

قال الماورديّ: فإن كان المولّي ظالمًا فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلِّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتقلّد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحًا، وإنما الطاغي فرعون موسى. الثاني: أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال الماورديّ: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرّد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفرّدوا به ويلزم الاجتهاد في مَصْرِفه كأموال الفيء، فلا يجوز تولّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللإجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذًا للحكم بين متراضيين، وتوسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

- **الفائدة الثالثة:** دلّت الآية أيضًا على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: « **يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكِلْت إليها وإن أُعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها** » . وأيضًا ماورد عن أبي بُرْدة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبيّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريّين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك، فقال: « **ما تقول يا أبا موسى – أو يا عبد الله بن قيس –** » قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: « **لن – أو – لا نستعمل على عملنا من أراده** » وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضًا وغيره.

فالجواب على ذلك: أوّلاً: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه

فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة و لم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعيّن ذلك عليه، ووجب أن يتولاّها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألاّ يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: « **لا تسأل الإمارة** » .

وأيضًا فإن في الحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: « **وكل إليها** » ومن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فَرّ منها ، ثم إن ٱبتلى بها فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : « **أعينَ عليها** ».

الثاني: أنه لم يَقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ : « **الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم** » ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿ **فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ . الرابع: أنه رأى ذلك فرضًا متعينًا عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم.

الفائدة الرابعة: دلّت الآية أيضًا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ وإن كان هذا ليس على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما ٱقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومراءاة، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظّفر بأهله. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

ملاقاة يوسف بإخوته والنهاية السعيدة للقصة

وينتقل بنا السياق إلى صورة أخرى؛ فبعد ما مكن الله ليوسف، ورزق الولاية على خزائن مصر؛ جاءه أخوته من فلسطين؛ وهم لا يعرفونه، ولا يدركون عن سيرته السابقة منذ دخوله بيت العزيز صغيرًا مستعبدًا؛ إلى أن أصبح عزيزًا مكرمًا.

﴿ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنـــزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ *وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لما اطمأنّ يوسف في ملكه، وخرج من البلاء الذي كان فيه، وخلت السنون المخصبة التي كان أمرهم بالإعداد فيها للسنين التي أخبرهم بها أنها كائنة، جهد الناس في كلّ وجه، وضربوا إلى مصر يلتمسون بها الميرة من كلّ بلدة. وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد، فكان لا يحمل للرجل إلا بعيرا واحدا، ولا يحمل للرجل الواحد بعيرين، تقسيطا بين الناس، وتوسيعًا عليهم، فكان يوسف عليه السلام من خلال منصبه يعطي كل فرد في الفترة الواحدة حمل بعير. وذلك للمجاعة التي أصابت مصر في ذلك الزمان، ولم يكن كل من يملك الشراء يشتري المقادير التي يستطيع شرائها لخزنها ويموت الآخرون.وكان قصد يوسف أن يوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذي يضطلع فيه بالتموين.

فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر، فعرفهم وهم له منكرون، لما أراد الله أن يبلّغ ليوسف عليه السلام ما أراد.

فلما أصاب الناس الجوع، أصاب كذلك بلاد يعقوب التي هو بها، فبعث بنيه إلى مصر، وأمسك أخا يوسف بنيامين فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون فلما نظر إليهم.

قال: أخبروني ما أمركم، فإني أُنكِر شأنكم.

قالوا: نحن قوم من أرض الشأم.

قال: فما جاء بكم؟

قالوا: جئنا نمتار طعاما. أي نشتري زادًا!

قال: كذبتم، أنتم عيون. أى جواسيس. وهذا الحاجة في نفس يوسف، وأمرًا دبره، ليظفر برؤية يعقوب وبنيامين، وأيضًا ليكون درسًا لأخوته رماة البئر.

وأردف سائلاً؛ كم أنتم؟

قالوا: عشرة.

قال: أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف، فأخبروني خبرَكم قالوا: إنا إخوة بنو رجل صِدّيق، وإنا كنا اثني عشر، وكان أبونا يحبّ أخا لنا، وإنه ذهب معنا البرية فهلك منا فيها، وكان أحبنا إلى أبينا.

قال: فإلى من سكن أبوكم بعده؟

قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه.

قال: فكيف تخبروني أن أباكم صدّيق وهو يحبّ الصغير منكم دون الكبير؟ ائتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه فإنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ قالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أباهُ وإنَّا لَفاعِلُونَ.

قال: فضعوا بعضكم رهينة حتى ترجعوا فوضعوا شمعون.

فأمر يوسف أن يحمل لإخوته طعامًا على بعيرهم، وأوقر لكل رجل منهم بعيره، قال لهم: ائْتُونِي بأخٍ لَكُمْ مِنْ أبِيكُمْ كيما أحمل لكم بعيرا آخر فتزدادوا به حمل بعير آخر. ﴿ **ألا تَرَوْنَ أنّي أوفِي الكَيْلِ** ﴾؛ قيل أن هذا القول يحتمل وجهين: أحدهما: أنه رخّص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل.

والثاني: أنه كال لهم بمكيال واف فلم يبخس أحدا ﴿ **وأنا خَيْرُ الْمُنــزِلِينَ** ﴾، أي وأنا خير من أنــزل ضيفا على نفسه من الناس بهذه البلدة، فأنا أضيفكم، وأنا خير من يضيف بمصر، وأنا خير لكم من غيري، فإنكم إن أتيتم به أكرمت منــزلتكم وأحسنت إليكم، وازددتم به بعيرا مع عدتكم، فإني لا أعطي لكم كل رجل منكم إلا بعيرا. فإنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ.

وجعل شمعون رهينة غير أنه كان مكرمًا مقربًا، وقد اختار شمعون لأنه كان يوم الجبّ

أجملهم قولاً، وأحسنهم رأيًا .

وهنا كان مراد يوسف عليه السلام عندما قال لإخوته : ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه.

وهنا نقف عند مسألة: إن قيل: كيف ٱستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟

قيل: عن هذا أربعة أجوبة: أحدها: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ٱبتلاء ليعقوب، ليعظم له الثواب؛ فاتبع أمره فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام.

الثالث: لتتضاعف المسرّة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم.[١]

هذا؛ وقد قرر أخوة يوسف يرجعوا ليعقوب ليأخذوا منه بنيامين طمعًا في زيادة الكيل وحمل البعير؛ فقالوا ﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا. ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامنون المجيء به، ومحتالون في ذلك.

وهنا انتهت هذه الصورة في مصر، ليبدأ مشهد أخر في أرض كنعان.

رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، وقدموا عليه ، وكان منـــزلهم فيما ذكر عن بعض أهل العلم: أنه بالعَرَبات من أرض فلسطين بغَوْر الشام. وبعض يقول: بالأولاج من ناحية الشِّعب أسفل من حسْمَى، وعلى كلٍ فإن يعقوب كان صاحب بادية له شاءٌ وإبل؛ فقالوا: يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الكَيْلُ فوق الكيل الذي كيل لنا فَأَرْسِلْ مَعَنا أخانا نَكْتَلْ، و لم يُكَل لكل رجل منا إلا كيل بعير، فأرسل معنا أخانا بنيامين يكتل لنفسه كيل بعير آخر زيادة على كيل أباعرنا. وَإِنَّا لُحَافِظُونَ من أن يناله مكروه في سفره.

وجعلوا يلحون عليه ويصرون وقيل أنهم قالوا:

يا أبانا إن ملك مصر أكرمنا كرامة مّا لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته،

---

(١) القرطبي (٩/٢٢١) بتصرف .

وإنه ارتهن شمعون، وقال: ائتوني بأخيكم هذا الذي عكف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك، فإن لم تأتوني به فلا تقربوا بلادي.

قال يعقوب: ﴿ **هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلاَّ كَمَا أمِنْتُكُمْ على أخِيهِ مِنْ قَبْلُ فاللّهُ خَيْرٌ حافِظا وَهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

ثم ما لبث أن وافق خاصة وأن ابنه شمعون رهينة عند يوسف، ويعقوب لا يدري أن ابنه في مأمن وسلام.

وكانت تلك الموافقة مشروطة؛ ﴿ **قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾.

وهنا نقف على مسألتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ **تُؤْتُونِ** ﴾ أي تعطوني. ﴿ **مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ** ﴾ أي عهدًا يوثق به؛ فحلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه؛ واللام في ﴿ **تَأْتُنَّنِي** ﴾ لام القسم. ﴿ **إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ أي إلا** ﴾ أن تَهْلكوا أو تموتوا. أو أن تُغلبوا عليه.

﴿ **فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ أي حافظ للحلف. وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآية أصل في جواز الحَمَالة بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد ٱختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء: هي جائزة إذا كان المتحمَّل به مالاً. وقد ضعّف الشافعي الحَمَالة بالوجه في المال؛ وله قول كقول مالك. وقال عثمان البَتِّي: إذا تكفّل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأَرْش الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاص على الكفيل؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحمالة بالوجه. والصواب تفرقة مالك في ذلك، وأنها تكون في المال، ولا تكون في حدّ أو تعزير.[1]

ثم قال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فاقرئوه مني السلام، وقولوا: إن أبانا يصلّي عليك، ويدعو لك بما أوليتنا.

ولكن قبل أن يرجعوا ليوسف كانت هناك مفاجأة وهي: أنه لما فتح إخوة يوسف

---

(١) القرطبي (٩/٢٣٠) بتصرف .

متاعهم الذي حملوه من مصر من عند يوسف، وجدوا بضاعتهم، وذلك ثمن الطعام الذي اكتالوه منه ردّت إليهم. قالُوا يا أبانا ما نَبْغِي هَذه بضَاعَتُنا رُدَّتْ إلَيْنا يعني: ماذا نبغي؟ هذه بضاعتنا ردّت إلينا تطييبا منهم لنفسه بما صنع بهم في ردّ بضاعتهم إليه. فما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا رُدّت إلينا، وقد أوفى لنا الكيلُ.

ولكنه حب الزيادة التي فطر عليها ولد آدم؛ وهناك أيضًا شمعون لا يزال عند يوسف؛ فقرروا الرجوع إلى مصر .

فأوصاهم يعقوب ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ من بَاب وَاحد وَٱدْخُلُواْ منْ أَبْوَاب مُّتَفَرِّقَة وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ للَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْه فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

وهنا نقف على مراد يعقوب من أمره لأبنائه بدخولهم من أبواب متفرقة؛ فغالب أهل العلم ذهبوا إلى أن يعقوب خشي عليهم من العين؛ والعين حق كما هو ثابت بالكتاب والسنة، فلابأس هنا أن نتعرض لشيء مما ذكر عن العين والوقاية منها.



الحسد والعين، وقوله عليه الصلاة والسلام «عَلاَمَ يقتل أحدكم أخاه»

لاشك أن العين حق، والحسد حاصل من ابن آدم، وأهل الإسلام عل هذا المعتقد؛ غير أن أهل البدع، والعوام من الناس لا يدركون الوسائل الشرعية لدفع العين والحسد، ولا بأس أن نقف على بعض أحكام هذا الأمر وما ورد في الكتاب و السنَّة بشأنه:

الأمر الأول: أن أخوة يوسف لما عزموا على الخروج خشي عليهم يعقوب من العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرَجُل واحد؛ وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة؛وفي هذا دليل على اجتناب اجتماع الإخوة في مكان واحد أمام أعين الناس خشية الحسد.

الأمر الثاني: في الآية دليل على الأمر بالتحرّز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول الله ﷺ : « **إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر** » . وفي تعوّذه عليه السلام: « **أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لامَّة** » ما يدلّ على ذلك.

❋ ❋ ❋

أمثلة للحسد

* روى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حُنيف بالخرّار فنـــزع جُبّة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! فوُعك سهل مكانه واشتدّ وَعْكه، فأُتي رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلاً وُعِك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأتاه رسول الله ﷺ ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ : « **عَلامَ يقتل أحدكم أخاه ألاَ بَرَّكْت إنّ العين حق تَوضأْ له** » .

فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس؛ في رواية « **ٱغتسلْ** » فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قدح ثم صبّ عليه؛ فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس.

* ركب سعد بن أبي وَقّاص يومًا فنظرت إليه ٱمرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين؛ فرجع إلى منـــزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له .

ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبيّ ﷺ ؛ وهذا قول علماء الأمّة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن يجب يعلم أن ذلك كله بمشيئة الله تعالى كما قال: و ﴿ **مَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

قال الأصمعي: رأيت رجلاً عَيُونًا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال: أيتهنّ هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكتا جميعًا، المورَى بها والمورَي عنها.

قال الأصمعيّ. وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يعجبني وجدتُ حرارة تخرج من عينيّ.

الأمر الثالث: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: « **ألا برّكت** » فدلّ على أن العين لا تضر

ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الأمر الرابع: العائن إذا أصاب بعينه و لم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إنْ أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يخاف على ٱلْمَعين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الأمر الخامس: من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة الناس دفعًا لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيرًا رزقه ما يقوم به، ويكفّ أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه يُنفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائنًا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به؛ ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك ٱحتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

الأمر السادس: روى مالك عن حميد بن قيس المكّي أنه قال: دُخِل على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما: « **ما لي أراهما ضَارِعَين** » فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، و لم يمنعنا أن نَسْتَرْقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ : « **ٱسْتَرْقُوا لهما فإنه لو سبق شيء القدَر سبقته العين** » . وهذا الحديث وإن كان منقطع، لكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الْخَثْعمية عن النبيّ ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح .

وفيه أن الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه، أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

الأمر السابع: أمر ﷺ في حديث أبي أُمامة العائن بالاغتسال للمَعِين، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا: إنما يسترقي من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم.

فبهذا يعلم خطورة العين ومدى استغراقها في أذى المسلم؛ نعوذ بالله من شر كل حاسد

وباغض وحاقد.

فالله أسأل أن يرفع عنا صاحب الحسد و أن يعصمنا من عين العائنين .

ونرجع إلى يعقوب؛ فبعد أخذه بأسباب الوقاية أحال السبب لمسببه، وقال: ﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ للَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾. أي لن يمنعكم حذري من شيء أحذره عليكم؛ فلا ينفع الحذر مع القدر. فما كان من قضاء الله فهو نافذ؛ عليه آعتمدت وبه وثقت.

لما دخل ولد يعقوب مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ وذلك دخولهم مصر من أبواب متفرّقة. ما كانَ يُغْنِي دخولهم إياها كذلك عَنْهُمْ مِنَ قضاء اللّهِ الذي قضاه فيهم فحتمه، مِنْ شَيْءٍ إلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعَقُوبَ قَضَاها إلا أنها طاعة ليعقوب بدخولهم من طرق عدة خوفا من العين عليهم، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أُوتُوا من قبل ذلك أو نالهم من أجله مكروه. ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي بنيامين؛ ضمّه إليه، وأنـــزله معه.

وقيل: أمر أن ينـــزل كل آثنين في منـــزل، فبقي أخوه منفردًا فضمّه إليه وقال: أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرًّا من إخوته ﴿ إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فلما عرف بنيامين أنه يوسف قال له: لا تردّني إليهم، فقال: قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمّه، فأبى ورفض بنيامين الخروج؛ فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك: فقال: لا أبالي!

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ فدس الصاع في رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أَمَر بعض خواصّه بذلك. والتّجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهّز على الجريح أي قتله، ونجّز أمره.

والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مَقْبض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ وكان صواع الملك شيء من فضة يشبه الْمَكُّوك مرصع بالجوهر، يجعل على الرأس؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم.

وقيل: إنما كان يكال به لعزّة الطعام.

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أي نادى منادٍ وأعلم. ﴿ وَأَذَّنَ ﴾ للتكثير؛ فكأنه نادى مرارًا ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ . والعير: الإبل المرحولةً المركوبة؛ والمعنى: يا أصحاب العير.

❊ ❊ ❊

لماذا أمسك يوسف بنيامين ونسب السرقة لإخوته وهم براء؟!

هنا اعتراضان: **الأوّل** : إن قيل: كيف رضي بنيامين بالقعود طوعًا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بَرَاء؟

فالجواب عن الأوّل: أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أو لا تراه لما فقده قال: ﴿ يَأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾ و لم يعرّج على بنيامين؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحي؛ فلا اعتراض. وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب: أن القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فألقوه في الجبّ، ثم باعوه؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم.

وهناك جواب آخر: وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرّاق؛ والمعنى: إنّ شيئًا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه.

وجواب آخر: وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه. وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام؛ أي أو إنكم لسارقون؟ كقوله ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أوَ تلك نعمة تمنها عليّ؟ والغرض ألاّ يعزى إلى يوسف ﷺ الكذب والله أعلم.

ونعود إلى أخوة يوسف ؛ فقد أقبلوا على المنادي ومن بحضرهم يقولون لهم: ماذَا تَفْقِدُونَ ما الذي تفقدون؟ قالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ ومَشْرَبتة. أو الإناء الذي كان يوسف يكيل به الطعام، كما سبق بيانه.

و لم يقف الأمر عند تلك التورية؛ بل تعداه إلى جعل مكافأة لمن يأتي بالصواع فقالوا: ﴿وَلِمَنْ جاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أي لمن جاء بالصواع حمل بعير من الطعام.

قالوا: ما نعلمه فينا ولا معنا. قال: لستم ببارحين حتى أفتش أمتعتكم وأُعْذِر في طلبها منكم. ففتَّش يوسف أوعيتهم ورحالهم طالبا بذلك صُواع الملك، فبدأ في تفتيشه بأوعية إخوته من أبيه، إنما بدأ يوسف برحالهم لنفي التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه فجعل يفتشها وعاء وعاء قبل وعاء أخيه، فإنّه أخَّر تفتيشه، ثم فتش آخرها وعاء أخيه،

فاستخرج الصواع من وعاء أخيه.

وذُكر أنه كان لا ينظر في وعاء إلاَّ استغفر الله تأثما مما قذفهم به، حتى بقيَ أخوه، وكان أصغرِ القوم، قال: ما أرى هذا أخذ شيئا، قالوا: بَلى فاستْبرِه، ألاَ وقد علموا حيث وضعوا سقايتهم. ثم استخرجها من وعاء أخيه.

ثم جاء السياق موضحًا أن الذي قدر هذا كله ورتبه هو الله سبحانه، كذلك ﴿ كِذْنا لِيُوسُفَ ﴾ وهكذا صنع الله ليوسف حتى يُخلِّص أخاه لأبيه وأمه من إخوته لأبيه، بإقرار منهم أن له أن يأخذه منهم ويحتبسه في يديه ويحول بينه وبينهم وذلك أنهم قالوا إذ قيل لهم ﴿ ما جَزَاؤُهُ إنْ كُنتُمْ كاذِبِينَ ﴾؛ فقرروا أن جزاء من سرق الصواع أن من وجد ذلك في رحله فهو مُسْتَرَقٌ به، أي يصبح خادماً عند من سُرق. وذلك كان حكمهم في دينهم. فكاد الله ليوسف كما وصف لنا حتى أخَذ أخاهُ منهم، فصار عنده بحكمهم وصنع الله له من قبل ومن بعد.

فلم يكن ليوسف أن يأخذ أخاه في حكم ملك أرضه إلاَّ أن يشاء الله بكيده الذي كاده له، حتى أَسْلَمَ مَنْ وُجد في وعائه الصُّواع إخوتُه ورفقاؤه بحكمهم عليه وطابت أنفسهم بالتسليم. ف ﴿ ما كانَ لِيَأْخُذَ أخاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللّهُ ﴾ . أي في سلطانه وتبعيته.

ثم يبين الله عز وجل أن العزة يمنحها هو لمن ﴿ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ ﴾ فيرفع الله منازل من يشاء، وقال أهل التفسير إن معنى الآية السابقة: أن الله رفع منازل ومراتب يوسف في الدنيا بالعلم على غيره، كما رفعها مرتبة ومنــزلته في الدنيا على منازل إخوته ومراتبهم.

وفوق كل عالم مَنْ هو أعلم منه حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَليمٌ ﴾ أي أن يوسف أعلم إخوته، وأن فوق يوسف من هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى.

وقد ورد عن ابن عباس قوله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَليمٌ ﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم.

ونعود إلى إخوة يوسف؛ فإنه لما استخرج الصواع من رحل بنيامين، أرادوا أن يبرؤوا أنفسهم من فعلة بنيامين؛ ﴿ فقالوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ .

قيل أنهم قالوا تلك المقولة لأنه ليس من أمهم؛ فأمعنوا في اتهامه؛وأنه إن سرق فقد جذبه عِرْق أخيه السّارق، وهم يعنون يوسف بالسرقة؛ من غير أن يعلموا أن يوسف أمامهم.

وقد ٱختلف أهل العلم في السرقة التي نسبوها إلى يوسف .

فروي عن مجاهد وغيره: أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنِّها؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ، وهذا مما نسِخ حكمه بشرعنا، وكان من سَرَق ٱستُعبد. وكانت عمة يوسف حَضَنَتْه وأحبّته حبًّا شديدًا؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب: سلّمي يوسف إليّ، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة؛ فولعتْ به، وأشفقت من فراقه؛ فقالت له: دعه عندي أيامًا أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطَقة-أي حزام- إسحق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدتُ مِنْطقة إسحق، فانظروا مَن أخذها ومَن أصابها؛ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكَشفوا؛ فوجدت مع يوسف.

فقالت: إنه والله لي سَلَم أصنع فيه ما شئت؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك؛ فأمسكته حتى ماتت؛ فبذلك عيّره إخوته، وقد تكون تلك الواقعة سببًا في تعلّم يوسف وضع السقاية في رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته.

وقال سعيد بن جُبير: إنما أمرته — أي عمته – أن يسرِق صنمًا كان لجدّه أبي أمه، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييرًا للمنكر؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها؛ وقاله قتادة: أنه كان صنم ذهب. وقال عطية العَوْفي: إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق فخبأه فعيّروه بذلك. وقيل: إنه كان يسرِق من طعام المائدة للمساكين؛ حكاه ٱبن عيسى. وقيل: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه؛ قاله الحسن.

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ولم يرد على اتهامهم لكي لا ينكشف أمره.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ . أي عبدًا بَدَلَه؛ وقد قيل: إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: ٱقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في ٱستنـــزاله. ويحتمل أن يكون قولهم: «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ» أي خذ

أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر؛ فيمنع يوسف عليه السلام من ذلك .

وجعلوا يتلطفون له ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ وأطنبوا في وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحسانًا علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ** ﴾ أي من أن نأخذ البريء بالجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه ﴿ **إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ أي أن نأخذ غيره.

وفي رواية مشابهة [1] : أن الصواع لما وُجد في رحل أخي يوسف تلاوم القوم بينهم، وانقطعت ظهورهم، وقالوا: يا بني راحيل، ما يزال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم. فقالوا: لا تذكر الدراهم فنؤخذ بها.

فلما دخلوا على يوسف دعا بالصواع، فنقر فيه، ثم أدناه من أذنه، ثم قال: إن صواعي هذا ليخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه. فلما سمعها بنيامين، قام فسجد ليوسف، ثم قال: أيها الملك، سل صواعك هذا عن أخي أحيّ هو؟ فنقره، ثم قال: هو حيّ، وسوف تراه. قال: فاصنع بي ما شئت، فإنه إن علم بي سوف يستنقذني. قال: فدخل يوسف فبكى، ثم توضأ، ثم خرج فقال بنيامين: أيها الملك إني أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحقّ، فسله من سرقه فجعله في رحلي؟

فَلَمَّا يَئِس إخوة يوسف أن يخلصوا ببنيامين ؛ قَالَ كَبِيرُهُمْ روبيل، ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ** ﴾ في حفظ ابنه، وردّه إليه. وذكرهم بيوسف ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي** ﴾.

عقد الأخوة مجلسا يتشاورون فيه. لكن السياق القرآني لا يذكر أقوالهم جميعا. إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه. ذكر القرآن قول كبيرهم إذ ذكّرهم بالموثق المأخوذ

---

(١) الطبري (١٣/١٩) .

عليهم، كما ذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل. ثم يبين قراره الجازم: ألا يبرح مصر، وألا يواجه أباه، إلا أن يأذن أبوه، أو يقضي الله له بحكم، فيخضع له وينصاع. وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق، فأخذ بما سرق. ذلك ما علموه وشهدوا به. أما إن كان بريئا، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه، فهم غير موكلين بالغيب. وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها -أي أهل مصر- وليسأل القافلة التي كانوا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتأخذ الطعام.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۞ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۞ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

وروى القرطبي[1]: أن يهوذا قال لإخوته - وكان أشدّهم غضبًا - : إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا: بل ٱكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر؛ فبعث واحدًا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقًا؛ ثم إنّ يهوذا دخل على يوسف وقال: أيها الملك! لئن لم تخلّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقي في مدينتك حاملاً إلا أسقطت ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا وٱشتدّ غضبه، وٱنتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بني يعقوب؛ كان إذا غضب، ٱقشعرّ جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدّم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها، تمامًا أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دمًا، أو تمسكه يدٌ من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كلّم ولدًا له صغيرًا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من

---

(١) القرطبي (٩/٢٤١) .

حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف فالتفت يمينًا وشمالاً لعله يرى أحدًا من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعًا إلى إخوته وقال: هل حضرني منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد ٱحتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه؛ قال: فٱرجع فردّها، أو ألقها في البحر، ولا تحدثنّ حَدَثًا؛ فوالذي ٱتخذ إبراهيم خليلاً! لقد مَسَّني كَفٌّ من نَسْل يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشًا، فقال: يا معشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فَرَكَله برجله فَدَحا به من خلف الجدار؛ ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه لجنبه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخًا لهم صغيرًا فحسدوه ونــــزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! ٱستر علينا ستر الله عليك، وٱمنن علينا منّ الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجُبّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنبًا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛ ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنّكم نكالاً للعالمين. إيتوني بالحدّادين أقطع أيديهم وأرجلهم، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ لنكونن طوع يده، وترابًا يطأ علينا برجله؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم: ٱخرجوا عني! قد خلّيت سبيلكم إكرامًا لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالاً.

فعل الأبناء ما أمرهم به أخوهم الكبير، وحكوا ليعقوب عليه السلام ما حدث. استمع يعقوب إليهم وقال بحزن صابر، وعين دامعة:

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فصبري على ما نالني من فقد ولدي صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية، عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعا؛ وهي كلمته ذاتها يوم فقد يوسف.. لكنه في هذه المرة يضيف إليها الامل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك فيردّهم عليه. إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ بوحدته وبفقدهم وحزنه عليهم؛ إنه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته. وهو مؤمن بأن الله يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات. ويأتي بكل امر في وقته المناسب، عندما تتحق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج.

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ .

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع. يحس أنه منفرد بهمه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعته في ولده الحبيب يوسف. الذي لم ينسه، و لم تهوّن من مصيبته السنون، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل.

وأسلمه البكاء الطويل إلى فقد بصره.. أو ما يشبه فقد بصره. فصارت أمام عينيه غشاوة بسبب البكاء لا يمكن أن يرى بسببها. فقد كظم حزنه، فالكظيم هو الحزين الذي لا يظهر حزنه. و لم يكن يعقوب عليه السلام يبكي أمام أحد.. كان بكاؤه شكوى إلى الله لا يعلمها إلا الله.

ثم لاحظ أبناؤه أنه لم يعد يبصر ورجحوا أنه يبكي على يوسف، وهاجموه في مشاعره الإنسانية كأب.. حذروه بأنه سيهلك نفسه:

﴿ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

وكرروا عليه التحذير من أن عاقبة بكاءه ستهلكه أو سيكون حَرَضًا؛والحرض: الشيء البالي الفاني.

ردهم جواب يعقوب إلى حقيقة بكائه.. إنه يشكو همه إلى الله.. ويعلم من الله ما لا يعلمون.. فليتركوه في بكائه وليصرفوا همهم لشيء أجدى عليهم:

﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ .

إنه يكشف لهم في عمق أحزانه عن أمله في روح الله.. إنه يشعر بأن يوسف لم يمت كما أنبئوه.. لم يزل حيا، فليذهب الإخوة بحثا عنه.. وليكن دليلهم في البحث، هذا الأمل العميق في الله.

وهذا يدلّ على أن يعقوب كان متيقن من حياة يوسف؛ إما بالرؤيا، أو بالوحي، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه؛ وهو أظهر.

والتَّحسُّس طلب الشيء بالحواسّ؛ فهو تفعّل من الحِّس، أي ٱذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، وٱحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه.

ويروى أن ملَك الموت قال له: ٱطلبه من هاهنا! وأشار إلى ناحية مصر. وقيل: إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة، وٱحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛ فلذلك وجّههم إلى جهة مصر دون غيرها. ﴿ **وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ فلا** ﴾ تقنطوا من فرج الله؛ فالمؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدّة.

﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ** ﴾ وهذا دليل على أن القنوط من الكبائر.

وتقترب لحظة المواجهة الأخيرة، ونهاية القصة، فهذه هي المرة الثالثة من عودهم إلى مصر؛ فقد رجعوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا: ﴿ **مَسَّنَا** ﴾ أي أصابنا ﴿ **وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ﴾ أي الجوع والحاجة؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر، أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحًا في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكّي على سبيل التّسخط؛ والصبر والتّجلد في النّوائب أحسن، والتّعفف عن المسألة أفضل .

وأحسن الكلام في الشكوى: سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول يعقوب: ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده؛ فأما الشكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه، إلا أن يكون على وجه البثّ والتّسلّي؛ كما قال ٱبن دُرَيْد:

لاَ تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّي ضارِعٌ مَارسْت لِنَكْبة تَعْرِقُني عَرْقَ الْمُدَى
مَنْ لَوْ هوتِ الأفلاكُ مِنْ لكنّها نَفْثَةُ جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
مَصْـــدورٍ إذا جَـــاشَ لُغَامٌ مِن نَوَاحِيَها غمَا

هذا وقد جاء إخوة يوسف بأموال ليشتروا من خير مصر لحاجتهم ﴿ **وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ** ﴾ والبضاعة – هنا – القطعة من المال يقصد بها شراء شيء؛ تقول: أبضعت الشيء وآستبضَعته أي جعلته بضاعة؛ وفي المثل: كمستبضع التمر إلى هَجَر.

والبضاعة المزجاة هي الناقصة غير التامة. آختلف في تعيينها هنا؛ فذكر عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت قديدًا وحيسًا؛ وقيل: خَلَقُ الغَرَائر والحبال؛. وقيل: متاع الأعراب صوف وسمن؛ وقيل: الحبة الخضراء والصَّنَوبر وهو البُطْم، حبّ شجرٍ بالشام، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون، فباعوها بدراهم لا تَنفُق في الطعام، وتَنْفق فيما بين الناس؛ فقالوا: خذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق في الطعام. وقيل: دراهم رديئة. والله أعلم.

وطلبوا أن يتصدق عليهم بما عرفوا عنه من كرم وإحسان؛ وهنا واجههم يوسف بسؤال مباغت لينهي به الغموض القائم بينهم؛ ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾.

﴿ **قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ .

قيل: إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف وآستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: ﴿ **هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ** ﴾ الآية، ثم تبسم يوسف – وكان إذا تبسم كأنّ ثناياه اللؤلؤ المنظوم – فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: ﴿ **أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ** ﴾. وعن ابن عباس أيضًا: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبْه الشامة، فلما قال لهم: ﴿ **هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ** ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: ﴿ **أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ** ﴾ . وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه، وفي الكتاب: من يعقوب صفيّ الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر – أما بعد – فإنّا أهل بيت بلاء ومِحَن، ابتلى الله جدّي

إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبي إسحق بالذبح، ثم ٱبتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إليّ حتى كُفَّ بصري من البكاء، وإني لم أسرق و لم ألِدْ سارقًا والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب ٱرتعدت مفاصله، واقشعرّ جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبره فباح بالسرّ.

فبعد ما مرت السنوات، وذهب كيدهم له.. ونفذ تدبير الله المحكم الذي يقع بأعجب الأسباب.. كان إلقاؤه في البئر هو بداية صعوده إلى الحكم.. وكان إبعادهم له عن أبيه سببًا في زيادة حب يعقوب له. وها هو ذا يملك رقابهم وحياتهم، وهم يقفون في موقف استجداء عطفه.. إنهم يختمون حوارهم معه بقولهم: ﴿ **قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ** ﴾ .

إن روح الكلمات واعترافهم بالخطأ يشيان بخوف مبهم غامض يجتاح نفوسهم.. ولعلهم فكروا في انتقامه منهم وارتعدت فرائصهم.. ولعل يوسف أحس ذلك منهم فطمأنهم بقوله: ﴿ **قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ .

فلا مؤاخذة، ولا لوم، انتهى الأمر من نفسي وذابت جذوره.. لم يقل لهم إنني أسامحكم أو أغفر لكم، إنما دعا الله أن يغفر لهم، وهذا يتضمن أنه عفا عنهم وتجاوز عفوه، ومضى بعد ذلك خطوات.. دعا الله أن يغفر لهم.. وهو نبي ودعوته مستجابة.. وذلك تسامح نراه آية في التسامح. والتثريب التَّعيير والتوبيخ، أي لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ ومنه قوله عليه السلام: « **إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها** » أي لا يعيرها؛

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أخذ بُعضادَتَي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ الناسُ بالبيت فقال: « **الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده** » ثم قال: « **ماذا تظنون يا معشر قريش** » قالوا: خيرًا، أخ كريم، وٱبن أخ كريم وقد قَدَرت؛ قال: « **وأنا أقول كما قال أخي يوسف : لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ** » ؛ فقال عمر رضي الله عنه: ففضتُ عَرَقًا من الحياء من قول رسول الله ﷺ؛ ذلك أني قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله ﷺ ما قال ٱستحييت من قولي.

.. وزاد يوسف في الإحسان لإخوانه بأن دعى لهم ﴿**يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ**﴾ ؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم.

وها هو ذا يوسف ينهي حواره معهم بنقلة مفاجئة لأبيه.. يعلم أن أباه قد ابيضت عيناه

من الحزن عليه.. يعلم أنه لم يعد يبصر.. لم يدر الحوار حول أبيه لكنه يعلم.. يحس بقلبه.أو بوحي؛ فمن ثم خلع يوسف قميصه وأعطاه لهم:

﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(والقميص) دِرْع مُفاضةٌ، وكان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره، ولكن قيل أن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحق، وكان إسحق كساه يعقوب، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبَة من فضة وعلّقه في عُنق يوسف، لِمَا كان يخاف عليه من العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، و إن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفي.

وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسرّه، وليعود إليه بصره، فحمله؛ وزاد يوسف من الإحسان بأن طلب منهم جمع الشمل، وأن ياتوا بأبنائهم وأزواجهم، وجميع أهلهم إلى مصر؛ ليكونوا في كنفه وتحت رعايته، ويفيض عليهم مما أفاض الله عليه من خيرات، ونعيم، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على بره برحمه وأهله؛ فقال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ .

قال مسروق: فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ في فلسطين.. قال يعقوب -عليه السلام- لمن حوله: إني أشم رائحة يوسف، لولا أنكم تقولون في أنفسكم أنني شيخ خرِف لصدقتم ما أقول.فرد عليه من حوله: ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾.

وقيل أن الريح استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها، فأتته بها. وَلَمَّا فَصَلَتِ العِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إنّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أنْ تُفَنِّدُونِ فهاجت ريح، فجاءت بريح يوسف من مسيرة ثمان ليال.

قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه.

وقال مجاهد: هبّت ريح فصَفَقَت القميصَ فراحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فعند ذلك قال: « **إنِّي لأَجِدُ أي** » أشم؛ فهو وجود بحاسة الشم. فقال: ﴿ **إنّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أنْ تُفَنِّدُونِ** ﴾ .

لكن المفاجأة السعيدة تقع: فقد ذهب يهوذا وقال لإخوته: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخًا بالدّم؛: قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحة. وقال يحيى بن يمان عن سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب قال له: على أيِّ دينٍ تركت يوسف؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئًا يُثيبه به؛ فقال: والله ما أصبتُ عندنا شيئًا، وما خبزنا شيئًا منذ سبع ليال، ولكن هوّن الله عليك سكراتِ الموت.

وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر.

﴿ **فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾.

❊ ❊ ❊

وقفة مع قميص يوسف عليه السلام

إن الناظر في قصة يوسف عليه السلام؛ يمكن أن يقف عند قصة قميص يوسف ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: حين جاء أخوة يوسف على القميص بدم كذب، فكان دليل إدانتهم من حيث أرادوا أن يكون القميص دليل صدقهم؛ فيعقوب عليه السلام آستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها.

الوقفة الثانية: حين مراودة إمرأة العزيز يوسف تريده لها، وامتناعه عن الفحشاء والحرام؛ ثم فراره عليه السلام يريد أن يستبق الباب ليعصم نفسه من كيد زوجة العزيز؛ فلحقت به، وقدت قميصه من دبر، وكان ما سنسرده إن شاء الله من أنهما ألفيا العزيز عند الباب، وقد ارتاب في ذلك الحال؛ ثم اتهام زوجة العزيز ليوسف بالبهتان وإتيان ما لم يأته؛ فكان القميص دليل صدقه بما كان عليه من آمارات الهتك من الخلف لا من الأمام؛ فكان القميص آية ثانية لنفس صاحب القصة وهو يوسف عليه السلام.

الوقفة الثالثة: حين مُكن ليوسف في الأرض وأضحى وزيرًا لعزيز مصر ، وجمع أخوته حوله بعدما عرفهم وعرفوه ، جعل الله معجزة في قميص يوسف؛ عندما أمر أخوته أن يذهبوا بقميصه لأبيهم ؛ فيلقوه على وجهه ليعود بصيرًا بعد عمى أصاب عينيه من كثرة بكاءه على يوسف وأخيه وافتقاده لهما.

فسبحان الله الذي جعل الآيات تترى ، والمعجزات تتعدد في قميص من القماش.

ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئا من بنيه، وأنه لم يصف لهم بعد، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح.

❊ ❊ ❊

حكم طلب الصفح ممن آذى مسلمًا ظالمًا له

لما رجع أخوة يوسف من مصر؛ سألوا يعقوب المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلمًا في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالمًا له؛ فإنه يجب عليه أن يَتحَلَّل له ويخبره بالمَظْلمة وقدرها؛ وهل ينفعه التّحليل المطلق أم لا؟

وهذا فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تَطب نفس المظلوم في التَّحلُّل منها.فعلى الظالم أن يطلب الصفح صراحة من المظلوم ، وأصح أقوال أهل العلم في هذا الشأن أن المظلوم إن لم يعف صراحة بغير تعريض أو تورية أو إبهام بقيت المظلمه في نفس الظالم لم تسقط عنه والله أعلم.

وفي صحيح البخاريّ وغيره عن أبي هُريرة قال قال رسول الله ﷺ: « **من كانت له مَظْلمَة لأخيه من عِرْضه أو شيءٌ فلْيحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مَظْلِمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فُحمِل عليه** » .

قال المهلَّب فقوله ﷺ: « **أُخذ منه بقدر مَظْلِمته** » يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارًا إليها مبيّنة، والله أعلم.

فالله الله كم من ظالم يبيت الليالي لايدري كم سيُأخذ من حسناتة أو ستطرح عليه من سيئات من ظالم .

ونرجع إلى يعقوب؛ قيل أنه أَخَّر دعاءه إلى السَّحَر. وقيل: سَحَر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وقيل في الليالي البيض، في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب.

وعن عامر الشّعبي قال: « سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي » أي أسأل يوسف إن عفا عنكم ٱستغفرت لكم ربي؛ وذكر سُنَيد بن داود قال: حدّثنا هشيم قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عَمّه قال: كنت آتي المسجد في السَّحر فأَمُّر بدار ٱبن مسعود

فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سَحَرٌ فٱغفر لي، فلقيت ٱبن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهنّ في السحر؟ فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله: ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾.

وها هو المشهد الأخير في قصة يوسف:

بدأت قصته برؤيا.. وها هو ذا الختام تأويل رؤياه:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

رفع يوسف أبواه على السَّرير، وقد تقدّمت محامله؛ وقد يُعبر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسهوَ ﴿ خَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾. تحقيقًا للرؤية، ورؤيا الأنبياء حق.

فتحققت رؤيا يوسف ، ولمّ الله عليه شمله وجمعه بأبيه وأمه وإخوته من بعد سنين فراق عجاف كابد فيها يوسف عليه السلام ما كابد وذاق فيها ما ذاق والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وهنا نقف على مسألة؛ وهي هل يجوز سجود البشر بعضهم لبعض؟.

❊ ❊ ❊

حكم انحناء المسلم تحية لغيره والإشارة باليد

يمكننا أن نفصل هذه المسألة على ثلاثة أوجه:

الأول: قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿**وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا**﴾ كان تحيتهم أن يسجد الوضيع والصغير للكبير؛ فهذا في شريعة يعقوب منسوخة بشريعة محمد ﷺ.

الثانية: قال سعيد بن جُبير عن قَتادة عن الحسن – في قوله: ﴿**وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**﴾ – قال: لم يكن سجودًا، لكنه سنة كانت فيهم، يُومِئون برؤوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقال الثّوري والضحّاك وغيرهما: كان سجودًا كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم. وقيل: كان ٱنحناء كالركوع، و لم يكن خرورًا على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتّكفّي والانحناء، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء.

وأجمع المفسِّرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قَتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

فهذا الانحناء والتّكفّي الذي نُسخ عنا قد صار عادة عند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤُبه به، وأنه لا قدر له؛ وكذلك إذا ٱلتقوا ٱنحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نَكَبوا عن السُّنَنِ، وأعرضوا عن السَّنَن.

روى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول! أينحني بعضنا إلى بعض إذا ٱلتقينا؟ قال: «لا»؛ قلنا: أفيعتَنِق بعضنا بعضًا؟ قال : « لا » . قلنا: أفيصافح بعضنا بعضًا؟ قال «نعم». خرّجه أبو عمر في « التمهيد » .

فإن قيل: فقد قال رسول الله ﷺ: « **قوموا إلى سيّدكم وخَيْرِكم** » – يعني سعد بن معاذ – قلنا: ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعيّنة؛ وقد قيل: إنما كان قيامهم لينـــزلوه عن الحمار؛ وأيضًا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثّر ذلك في نفسه، فإن أثّر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظًا لم يجز عَوْنه على ذلك؛ لقوله ﷺ: « **من سره أن يتمثّل له الناس قيامًا فليتبوّأ مقعده من النار** » . وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم

يكن وجهٌ أكرمَ عليهم من وجه رسول الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه، لما يعرفون من كراهته لذلك.

الثالثة: فإن قيل: فما تقول في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائز إذا بَعد عنك، لتعيّن له به وقت السلام، فإن كان دانيًا فلا؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد؛ لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **من تَشبَّه بغيرنا فليس منا** » . وقال: « **لا تُسلِّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة** » . وإذا سَلَّم فإنه لا يَنحني، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيمًا منهم لكبرائهم .

قال النبي ﷺ: « **لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رؤوس أكاسرها** » فهذا مثله. ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال: « **تصافحوا يذهب الغلّ** » وروى غالب التَّمَّار عن الشّعبيّ أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تَصافحوا، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا؛ فإن قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا: روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا؛ وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة، وهو الذي يدلّ عليه معنى ما في الموطأ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف. قال ابن العربي: إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرًا عامًا في الدِّين، ولا منقولاً نقل السلام؛ ولو كانت منه لاستوى معه.

وقد جاء في المصافحة حديث يدلّ على الترغيب فيها، والدّأب عليها والمحافظة؛ وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال: لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: « **نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما** » . والله أعلم.

ونرجع إلى يوسف فإنه دعى ربه: ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾. فهذه أخلاق الأنبياء ، وعقيدتهم وإيمانهم في عزو النعمة والفضل لله عند النعمة والنقمة، فلا كبر، وافتخار في مواقف العزة، ولا يأس وقنوط عند مواقف الشدة.

ويروى هنا أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشَارَفَ أرض مصر وبلغ ذلك يوسف ٱستأذن فرعون - وٱسمه الريان - أن يأذن له في تَلقِّي أبيه يعقوب، وأخبره بقدومه فأذن له، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشي متكئًا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر.

فقال: يا يهوذا! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنع من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحًا، وبكى يوسف لما رأى بأبيه من الحزن؛ قال ٱبن عباس: فالبكاء أربعة، بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاءُ رياءٍ.

ثم قال يعقوب: الحمد لله الذي أقرّ عيني بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر في ٱثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكْرِمة عن ٱبن عباس.

وحكى ٱبن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانًا ما بين رجل وٱمرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة (ألف) وسبعون ألفًا.

وقال الربيع بن خَيْثَم: دخلوها وهم ٱثنان وسبعون ألفًا، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف.

وقال وهب بن منبه: دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانًا ما بين رجل وٱمرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فِرارًا من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين، سوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة.

وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعًا وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ٱبنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل، ثم ٱنصرف إلى مصر. قال سعيد بن جُبير: نقل يعقوب ﷺ في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيصو، فدفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تنقل اليهود موتاهم إلى

بيت المقدس، مَنْ فَعَل ذلك منهم؛ ووُلد يعقوب وعيصُو في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعًا مائة وسبعًا وأربعين سنة.[1] والله أعلم.

وهنا تمت قصة يوسف؛ وقبل أن نرحل لغيرها من القصص؛ فلابأس من أن نستخرج منها بعض الفوائد:

---

(١) الطبري (٩/٢٥٩) .

بعض الفوائد المنتقاة من قصة يوسف

❋ لاشك أن ماحصل ليوسف في بداية قصته إنما كان ابتلاءًا ومحنة، وقد صبر، واشتدت عزيمته وإيمانه بالله، وقد ورد في الحديث والسنة الثابتة أن هذا الابتلاء ؛ إنما يبتلى به المؤمنون على قدر ما عندهم من الإيمان؛ لقوله ﷺ: « **أشدّ الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل** » .

ولهذا حكم اللَّه تعالىٰ أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكاليف. فعلى العاقل منا أن يتصور الواقع على حقيقته، ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطن آدم الأول- الجنة- إلى دار الشقاء والبلاء، فعلى المسلم أن يجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمّارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال ابن القيم :

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم

❋ المتأمل في حال إخوة يوسف، وما أتمروا عليه من إبعاد يوسف عن أبيه؛ ليستأثروا هم بمحبته؛ ليجد أن تلك المؤامرة لم تزدهم إلا بعدًا عن أبيهم؛ لإنه أدرك بفطرة الأب السليمة أن أخوة يوسف إنما فرطوا فيه لحاجة في أنفسهم؛ فقال لهم ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا** ﴾ ، وهذا من فطنة الأب، وهداية الله عز وجل له، فرجعوا خائبين لم ينالوا من أبيهم خيرًا، فضلاً عن اقترافهم ذنبًا عظيمًا في حق يوسف عليه السلام.

❋ لاشك أن التمييز بين الأبناء بالمحبة أو العطايا؛ يلقي الحقد والحسد في نفوس إخوته، فأخوة يوسف ما فعلوا بيوسف ما فعلوا إلا لأنهم وجدوه مستاثرًا بحب يعقوب له ﴿ **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا** ﴾. وقد نهى رسول الله ﷺعن التفريق بين الأبناء في العطايا، أو أن يبدي الأبوان محبة لولد دون الآخر، فعلى الرجل أن يعدل بين أولاده، كما أمر الله ورسوله، فقد ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال لبشير بن سعد لما نحل ابنه النعمان نحلاً- أي أهداه هدية - ، وأتى النبي ﷺ ليشهده على ذلك، فقال له: « **اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم** » وقال: « **لا تشهدني على هذا؛ فأني لا أشهد على جور** » وقال له: « **اردده** » فرده

بشير. وقال له على سبيل التهديد: « **أشهد على هذا غيري** » . لكن إذا خص أحدهما بسبب شرعي: مثل أن يكون محتاجًا مطيعًا لله، والآخر غني عاص يستعين بالمال على المعصية، فإذا أعطى من أمر الله بإعطائه ومنع من أمر الله بمنعه فقد أحسن. والله أعلم.

* من الفوائد المنتقاة من قصة يوسف؛ أن على المرء أن يتريث في الحكم على الأمور، ولا يأخذ بشهادة أحد طرفي النـــزاع دون الآخر، وأن يعمل عقله إذا قابله أمر غامض؛ فالاستدلال بقميص يوسف المقطوع من الدبر لا من الأمام إنما كان من الاستدلالات الموفقة الصحيحة، والتي لايمكن أن تقطعها ريبة أو يظللها شك، وكان أقوى دلائل برأة يوسف من ادعاء امرأة العزيز.

* من الآيات التي تحمل دلالة نقاء سريرة يوسف قول الله عز وجل﴿ **فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ** ﴾؛ فمما يفهم من هذه الآية أن الله صرف النساء عن يوسف، و لم يقل سبحانه – فصرفناه عنهن –؛ لأنها لو كانت الأخيرة؛ لكان المعنى أن يوسف هو الذي يسعى إليهن ولكن صرفه الله عنه، ولكن حاشاه يوسف عن ذلك؛ بل هن اللاتي سعين له، وراودنه عن نفسه، ولكن الله عصمه، فأحسن يوسف التعامل مع كيد النساء، وأنجاه الله منهن بغير فاحشة اقترفها، او ذنب وقع فيه. وسبحان من أحكم كلماته في محكم كتبه.

* التقوى والصبر، من الفوائد التي جاءت على لسان يوسف في نهاية القصة، والتي تعد من أهم ما يستمسك بهما المسلم في هذا الزمان؛ فلاشك أن ترك يوسف مغريات امرأة العزيز كان تقوى لله وأنه صبر على ذلك؛ بل وصبر على السجن وفضّله على غواية النساء، وصبر على أخوته وأذاهم له، والأمثلة في قصة يوسف على الصبر والتقوى جليلة وعظيم .

قال علي بن أبي طالب الصبر من الإيمان بمنـــزلة الرأس من الجسد فإذا انقطع الرأس بار الجسد ألا لا إيمان لمن لا صبر له فالصبر على أداء الواجبات واجب ولهذا قرن بالصلاة في أكثر من خمسين موضعا .

وسئل الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية عن الصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل وما أقسام التقوى والصبر الذى عليه الناس فأجاب رحمه الله:

الحمد لله أما بعد فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل فالهجر الجميل هجر بلا أذى والصفح الجميل صفح بلا عتاب والصبر الجميل صبر بلا شكوى قال

يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾، مع قوله فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون؛ فالشكوى إلى الله لا تنافى الصبر الجميل.

ويروى عن موسى عليه السلام أنه كان يقول اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ومن دعاء النبى ﷺ « **اللهم إليك اشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين وانت ربى اللهم إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى أن لم يكن بك غضب على فلا أبالى غير ان عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينـــزل بى سخطك أو يحل على غضبك لك العتبى حتى ترضى** » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ فى صلاة الفجر ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ ويبكى حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف بخلاف الشكوى إلى المخلوق.

وقرىء على الإمام أحمد فى مرض موته إن طاووسا كره أنين المريض وقال أنه شكوى فما أن قالها حتى مات وذلك ان المشتكى طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾، وقال ﷺ لابن عباس « **إذا سألت فاسأل الله وإذا إستعنت فإستعن بالله** ». ولا بد للإنسان من شيئين:

أولاً: طاعته لله بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور فالأول هو التقوى.

والثانى: هو الصبر قال تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً** ﴾ إلى قوله ﴿ **وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾، وقال تعالى ﴿ **بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾، وقال تعالى ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ وقد قال يوسف ﴿ **أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[١].

---

(١) مجموع الفتاوى ج: (١٠) ص: (٦٦٩) .

فنقول: أن التقوى تقرب المسلم من ربه؛ تبعده عن الشيطان، والصبر يزيد المسلم تقوى؛ فتكون المحصلة كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨]. والله أعلم.

❊ الصفح والمغفرة عند المقدرة من شيم الكرام؛ وقد قالها يوسف لإخوته بعد ما مُكن له واعترفوا هم بذنوبهم وما اقترفوه في حقه فكان التسامح منه آية في التسامح؛ ﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾؛ فما انتقم لنفسه، وثأر لها .

وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه يوم دخوله مكة -كما سبق ذكره - فما انتقم لنفسه؛ فكانت صفاته وشيمه كما ورد في الحديث عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: « مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا ».

نسأل الله حسن الخلق والعفو عند المقدرة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(والحمد لله رب العالمين) .



قصة موسى والخضر

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۞ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۞ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۞ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۞ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۞ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ فَٱنْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۞ فَٱنْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَٱتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۞ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

قصة النبي موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام من القصص المشهورة عند الناس

بما ورد في كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

هذا وقد ورد ذكرهما في كتب أهل الكتاب على مناحي متعددة، بعد أن امتدت أيديهم لقصة موسى والخضر عليهما السلام بالتحريف والتقديم والتأخير؛ ولكن سلمت أخبارهما بما ورد في القرآن والسنة النبوية المطهرة.

ومن الكتاب والسنة نبدأ سائلين المولى عز وجل العون؛ فنذكر الخضر عليه السلام؛ ليس تفضيلاً منا لأحدهما على الآخر؛ وإنما لشهرة كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام، وذكره في مواضع كثيرة في القرآن تفوق المواضع التي ذكر فيها الخضر عليه السلام؛ فعرفت أخبار موسى عليه السلام بأضعاف ما عرف عن الخضر؛ والذي اختلف فيه كثير من أهل العلم فضلاً عن غيرهم.



اسم الخضر ونسبه

اختلف العلماء والمؤرخون في اسم الخضر عليه السلام ونسبه على أكثر من عشرة أقوال، وأشهر أسمائه : بليا بن ملكان وكنيته أبو العباس وهو معروف بلقبه الخضر . وقيل أنه من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل حكاه بن جرير الطبري في تاريخه، وقيل كان أبوه فارسيا وأمه رومية وقيل كان أبوه روميا وأمه فارسية .

أما سبب تسميته بالخضر: فيوجد في مصادر التفسير والحديث ما رواه البخاري وأحمد والترمذي وغيرهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « **إنما سمي الخضر،لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء** »[1].

وقد ورد بعض الخلاف في الخضر، هل هو صاحب موسى بن عمران عليه السلام أم غيره؟.

ومنشأ هذا الخلاف بين المؤرخين إنما هو نتاج بعض الروايات الإسرائيلية التي ورد فيها:

أن موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب ،نبي قبل موسى بن عمران وإنه هو للذي طلب الخضر بن ملكان، وهو قول ساقط مرجوح سندًا وتاريخًا؛ فالصحيح الراجح أن موسى بن عمران عليه السلام الذين أنـــزلت عليه التوراة وصاحب الخضر المعروف الوارد قصته مع موسى في سورة الكهف وقد روى الشيخان في صحيحهما من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى فقال: «كذب عدو الله » .

و لم يقل ذلك ابن عباس رضي الله عنهما إلا على وجه الإغلاظ لمخالفته قول رسول الله ﷺ، الثابت بأن الخضر هو صاحب موسى بن عمران عليهما السلام. فقد غضب ابن عباس على قوهي هذا وقال: « كذب عدو الله » لشدة إنكاره عليه.

---

(١) الفتح (٦/٤٣٣) ، النووي (١٥/١٣٦) ،تحفة الترمذي (٨/٩٧٥).

زمان الخضر عليه السلام

قال أبو جعفر كان الخضر ممن كان في أيام أفريذون الملك بن أثفيان في قول عامة أهل الكتاب الأول وقبل موسى بن عمران وقيل إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان أيام إبراهيم خليل الرحمن وهو الذي قضى له ببئر السبع وهي بئر كان إبراهيم احتفرها لماشيته في صحراء الأردن وإن قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التي كان احتفر بها إبراهيم بئره فحاكمهم إبراهيم إلى ذي القرنين الذي ذكر أن الخضر كان على مقدمته أيام سيره في البلاد وإنه بلغ مع ذي القرنين نهر الحياة فشرب من ماءه وهو لا يعلم، ولا يعلم به ذو القرنين ومن معه فخلد فهو حي عندهم إلى الآن.

وقول الذي قال إن الخضر كان في أيام أفريذون وذي القرنين الأكبر قبل موسى بن عمران أشبه بالحق إلا أن يكون الأمر كما قاله من قال إنه كان على مقدمة ذي القرنين صاحب إبراهيم فشرب ماء الحياة فلم يبعث في أيام إبراهيم نبيا وبعث أيام ناشية بن أموص وذلك أن ناشية بن أموص الذي ذكر ابن إسحاق أنه كان ملكا على بني إسرائيل كان في عهد بشتاسب بن لهراسب وبين بشتاسب وبين أفريدون من الدهور والأزمان ما لا يجهله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم.

وذكر عن عبدالله بن شوذب قال: الخضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان في كل عام بالموسم.



هل الخضر ملك أم ولي أم نبي؟

اختلف المفسرون والمؤرخون في الخضر عليه السلام بهذا الصدد على ثلاثة أقوال مشهورة :

الأول: إنه ملك من الملائكة، يتصور في صورة الآدميين . وقد عارضه بعض أهل العلم؛ قال ابن كثير: هذا غريب جدًا . وقال النووي: هذا غريب باطل.

الثاني: إنه وليّ. ذهب إليه جماعة من الصوفية وغيرهم. ورتبوا درجة الولاية ترتيبات غير مشروعة، وقال بالولاية أيضًا من الحنابلة:أبو علي بن أبي موسى، وأبو بكر الإنباري، وأبو القاسم القشيري.

الثالث: أنه نبي، قاله الثعلبي، وقال: هو نبي في جميع الأقوال. وقال القرطبي: الخضر نبي عند الجمهور. وذكره الآلوسي نبوته عند الجمهور. وبه قال الحافظ بن حجر.

❊ ❊ ❊

الأدلة من الكتاب والسنة على نبوة الخضر عليه السلام

إذا تأمل القاريء في أمر الخضر، لوجد أدلة عديدة من الكتاب والسنة تدل وتشير على نبوة الخضر نعددها فيما يلي:

القرآن الكريم

١- نجد أن الآيات وصفت الخضر بعبد أوتي رحمة من الله وعلمه ربه علمًا؛ فقال سبحانه: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾ الآية.

قال جمهور من أهل العلم أن الرحمة التي آتاها الرب جل وعلا للخضر إنما هي الوحي والنبوة، والناظر في قول موسى عليه السلام للخضر ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ الآية.

فلو كان الخضر وليًا - وهي منـــزلة دون منـــزلة النبوة - وليس بنبي، لم يخاطبه موسى عليه السلام بهذه المخاطبة، و لم يرد على الخضر عليه السلام على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دون، فلو كان غير نبي لم يكن معصومًا، و لم تكن لموسى وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلب لعلم ولي غير واجب العصمة.

٢- إن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام الوارد ذكره في الآيات. فما ذلك إلا من وحي أوحاه الله عز وجل إليه؛ وهذا دليل قوي وواضح ومستقل على نبوة الخضر عليه السلام، وبرهان ظاهر على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يرد على خاطره، أو يلقى في خلده، لأن خلده - أي الولي - ليس خلد معصوم؛ وخاطره لا يعتد به في مثل تلك الأحكام.

٣- لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره قال بعد ذلك كله ﴿ **رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ﴾ الآية. أي ما فعلته من تلقاء نفسي، بل

أمرت به، وأوحي إلي فيه.

٤- قال الله عز وجل: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن ٢٦- ٢٧]. وقد دلت قصة الخضر عليه السلام وموسى عليه السلام أنه كان مظهرًا على الغيب، وليس ذلك إلا لنبي أو رسول. ولا يؤتى لولي مثله.والله أعلى وأعلم.

❊ ❊ ❊

أما من السنَّة

١- فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « **وددت أن موسى صبر، حتى يقص علينا من أمرهما** » [١].

وفي تمني الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الاطلاع على ما يقع بينهما، دليل على أن الخضر كان موحى إليه، ولو لم يكن كذلك لما جاز هذا التمني بأن ينتظر الرسول محمد ﷺ أمرًا غير موحى إليه.

٢- صح عن النبي ﷺ أنه قال : « **لما لقى موسى الخضر عليهما السلام، جاء طير فألقى منقاره في الماء. فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطير؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ماعلمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء.** » [٢].

فهذا صريح في أن الخضر قد علم منطق الطير، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه السلام الذي حكى عنه القرآن :(يأيها الناس علمنا منطق الطير) [٣].

٣- حديث أبي بن كعب الذي ورد فيه « **بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر** » [٤].

إن دل تخصيص الله عز وجل بتلك الأمور الغيبية بالخضر دون موسى عليه السلام مع أنه من أولي العزم من الرسل فإنما يدل على نبوة الخضر، ويؤيده سياق هذا الحديث حيث قال الله عز وجل « بلى عبدنا خضر » .

ومما يمكن أن نستأنس به في هذا الباب ماورد في المعجم الكبير للطبراني؛عن أبي أمامة

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٣٣) ، ومسلم (١٥/ ١٤٤) من حديث ابن عباس.

(٢) رواه الحاكم وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٤٦٧) .

(٣) سورة النمل ١٦

(٤) البخاري.الفتح (١/ ١٦٨،٦/ ٤٣١) ، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٥٣) .

الباهلي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « **ألا أحدثكم عن الخضر** » ؛ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ قال :« **بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال تصدق علي بارك الله فيك . قال الخضر : آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكن ما عندي من شيء أعطيكه فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت علي فإني نظرت السماحة في وجهك ورجوت البركة عندك فقال الخضر آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني فقال المسكين : وهل يستقيم هذا فقال نعم الحق أقول لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيبك بوجه ربي يعني قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زمانا لا يستعمله في شيء فقال له إنك إنما اشتريتني التماس خير عندي فأوصني بعمل. قال: أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف؛ قال: ليس يشق علي قال فقم فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه. قال: ثم عرض للرجل سفر؛ فقال: إني أحسبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة. قال: نعم وأوصني بعمل. قال: إني أكره أن أشق عليك، قال: ليس يشق علي. قال: فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك، قال: ومر الرجل لسفره ثم رجع وقد شيد بناءه؛ فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك، قال: سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في العبوديه؛ فقال: الخضر سأخبرك من أنا أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقه فلم يكن عندي شيء أعطيه فسألني بوجه الله فمكنته من رقبتي فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة وليس على وجهه جلد ولا لحم ولا عظم يتقعقع؛ فقال الرجل: آمنت بالله؛ شققت عليك يا نبي الله، ولم أعلم. قال: لا بأس أحسنت وأبقيت؛ فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله احكم في أهلي ومالي بما شئت أو اختر فأخلي سبيلك، قال أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي. قال: فخلي سبيله. فقال: الخضر الحمد لله الذي أوثقني في العبودية ثم نجاني منها** » .

قلت: وسند هذا الحديث حسن لولا عنعنة بقية ولو ثبت لكان نصا أن الخضر نبي لحكاية النبي ﷺ قول الرجل يا نبي الله وتقريره على ذلك.)[1] والله أعلى وأعلم.

وقبل أن نشرع في رواية قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ ننبه على مسألة يختلط

---

(١) إصابة (٢/٢٢٣- ٢٢٥) .

فهمها على كثير ممن وقفوا على هذه القصة بالنظر والتأمل. تلك المسألة هي:

إذا كان الخضر عليه السلام قتل غلامًا وخرق سفينة وبنى جدارًا بغير أجر، فهل يجوز بعد تمام الرسالة المحمدية وختم الدين وإكمال الشرع؛ أن يأتي من يقول أنه ولي لله فيأت بأفعال وأعمال لم ترد في الشرع، ولم تنــزل في كتاب الله؟

أقول والله أعلم: أن دين الإسلام دين البشرية أجمعها، بل ودين الجن أيضًا؛ لأن الرسول محمدًا ﷺ أرسل للثقلين الأنس والجن، وشريعته كاملة تامة، ولو كان الخضر حيًا بين الناس عند بعثة الرسول ﷺ، ماكان وسعه غير أن يتبعه ويسير خلفه،مقتديًا أثره وملتزمًا هديه.

وأنقل هنا كلامًا نفيسًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. يوضح هذا الأمر ويجليه فيقول رحمه الله:

فلفظ « الشرع، والشريعة » إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقًا إلى الله، غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا فلم يتابعه باطنًا وظاهرًا فهو كافر.

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطًا من وجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه؛ فإن موسى كان مبعوثًا إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر: كإبراهيم، وموسى، وعيسى وجب عليهم اتباعه فكيف بالخضر سواء كان نبيًا أو وليًا؛ ولهذا قال الخضر لموسى: « أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه » وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفًا لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفًا من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيرًا، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله. قال ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان – قال له: إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم. رواه البخاري. وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض

والصبر على الجوع، فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء مخالفًا شرع الله.

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالمًا وقد يكون عادلاً، وقد يكون صوابًا وقد يكون خطأ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه: كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم، فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزًا أي ليس اتباع أحدهم واجبًا على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم.

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك؛ فهذا من نوع التبديل، فيجب الفرق بين الشرع المنـــزل، والشرع المؤول، والشرع المبدل، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة، وبين ما يكتفي فيها بذوق صاحبها ووجده.[1]

ولاشك أن الشرح السابق قد بين أن الشرع ليس بالكتاب المفتوح الذي يزيد فيه أو ينقص من أراد ذلك بدعوى الولاية أو الإلهام - إن لم يقل وحيًا - عياذًا بالله!.

❊ ❊ ❊

(١) مجموع الفتاوى. فصل أجمع السلف والاولياء على أن الأنبياء أفضل من الأولياء. (٢١٨/١١).

ونبدأ القصة

قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَقَالَ: أَنَا فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ بِمِكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ. فأخذ حوتًا فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون .

كان لموسى عليه السلام هدف من رحلته هذه التي اعتزمها، وانه كان يقصد من ورائها امرا، فهو يعلن عن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول. فيعبر عن هذا التصميم قائلا : (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا).

ونرى أن القرآن الكريم لا يحدد لنا المكان الذي وقت فيه الحوادث، ولا يحدد لنا التاريخ، كما أنه لم يصرح بالأسماء. ولم يبين ماهية العبد الصالح الذي التقاه موسى، هل هو نبي أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولي؟

ولكن مضى موسى وفتاه حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكْتَلِ فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سَرْبًا.

واختلف المفسرون في تحديد المكان، فقيل إنه بحر فارس والروم، وقيل بل بحر الأردن أو القلزم، وقيل عند طنجة، وقيل في أفريقيا، وقيل هو بحر الأندلس.. ولا يقوم الدليل على صحة مكان من هذه الأمكنة، ولو كان تحديد المكان مطلوبا لحدده الله تعالى.. وإنما أبهم السياق القرآني المكان، كما أبهم تحديد الزمان، كما ضبب أسماء الأشخاص لحكمة عليا. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ **قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا** ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ﴿**قَالَ**﴾ له فتاه: ﴿ **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا** ﴾ فكان للحوت سَرْبًا ولموسى ولفتاه عَجَبًا ﴿ **قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا** ﴾ ، قَالَ فَرَجَعَا يَقُصَّانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فسلّم عليه موسى فقال الخضر: وإني بأرضك السلام، قال أنا

موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا** ﴾ يا موسى إني على عِلمٍ من عِلمِ الله علمنيه الله لا تعلمُه أنتَ وأنتَ على علمٍ من علم الله علمكه الله لا أعلمه.

لقد خص الله تعالى نبيه الكريم موسى عليه السلام بأمور كثيرة. فهو كليم الله عز وجل، وأحد أولي العزم من الرسل، وصاحب معجزة العصا واليد، والنبي الذي أنـــزلت عليه التوراة دون واسطة، وإنما كلمه الله تكليما.. هذا النبي العظيم يتحول في القصة إلى طالب علم متواضع يحتمل أستاذه ليتعلم.. ومن يكون معلمه غير هذا العبد الذي يتجاوز السياق القرآني اسمه، وإن حدثتنا السنة المطهرة أنه هو الخضر – عليه السلام – كما حدثتنا أن الفتى هو يوشع بن نون، ويسير موسى مع العبد الذي يتلقى علمه من الله بغير أسباب التلقي التي نعرفها.

ومع منـــزلة موسى العظيمة إلا أن الخضر يرفض صحبة موسى.. يفهمه أنه لن يستطيع معه صبرا.. ثم يوافق على صحبته بشرط.. ألا يسأله موسى عن شيء حتى يحدثه الخضر عنه.

ونبقى في السياق؛ ففي رواية عن قتادة قوله: أن نبي الله موسى لما قطع البحر وأنجاه الله من آل فرعون جمع بني إسرائيل فخطبهم فقال أنتم خير أهل الأرض وأعلمهم قد أهلك الله عدوكم وأقطعكم البحر وأنـــزل عليكم التوراة؛ فقيل له إن ها هنا رجلا هو أعلم منك قال فانطلق هو وفتاه يوشع بن نون يطلبانه فتزودا مملوحة في مكتل لهما وقيل لهما إذا نسيتما ما معكما لقيتما رجلا عالما يقال له الخضر فلما أتيا ذلك المكان رد الله إلى الحوت روحه فسرب له من الجد حتى أفضى إلى البحر ثم سلك فجعل لا يسلك فيه طريقا إلا صار ماء جامدا، ومضى موسى وفتاه.

ويظهر عزم موسى عليه السلام على العثور على هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر إلى أن يسير أحقابا وأحقابا. قيل أن الحقب عام، وقيل ثمانون عاما. على أية حال فهو تعبير عن التصميم، لا عن المدة على وجه التحديد.

وصل الاثنان إلى صخرة جوار البحر.. رقد موسى واستسلم للنعاس، وبقي الفتى ساهرا.. وألقت الرياح إحدى الأمواج على الشاطئ فأصاب الحوت رذاذ فدبت فيه الحياة وقفز إلى البحر.. ﴿ **فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا** ﴾ .. وكان تسرب الحوت إلى البحر علامة

أعلم الله بها موسى لتحديد مكان لقائه بالرجل الحكيم الذي جاء موسى يتعلم منه.

نهض موسى من نومه فلم يلاحظ أن الحوت تسرب إلى البحر.. ونسي فتاه الذي يصحبه أن يحدثه عما وقع للحوت.. وسار موسى مع فتاه بقية يومهما وليلتهما وقد نسيا حوتهما.. ثم تذكر موسى غداءه وحل عليه التعب.. ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .. ولمع في ذهن الفتى ما وقع. ساعتئذ تذكر الفتى كيف تسرب الحوت إلى البحر هناك.. وأخبر موسى بما وقع، واعتذر إليه بأن الشيطان أنساه أن يذكر له ما وقع، رغم غرابة ما وقع، فقد اتخذ الحوت ﴿ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .. كان أمرا عجيبا ما رآه يوشع بن نون، لقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال.

سعد موسى من مروق الحوت إلى البحر و﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ .. هذا ما كنا نريده.. إن تسرب الحوت يحدد المكان الذي سنلتقي فيه بالرجل العالم.. ويرتد موسى وفتاه يقصان أثرهما عائدين.. انظر إلى بداية القصة، وكيف تجيء غامضة أشد الغموض، مبهمة أعظم الإبهام.

يقول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فلقيا رجلا عالما يقال له الخضر فذكر لنا أن نبي الله قال إنما سمي الخضر خضرا لأنه قعد على فروة بيضاء فاهتزت به خضراء.

يقول البخاري إن موسى وفتاه وجدا الخضر مسجى بثوبه.. وقد جعل طرفه تحت رجليه وطرف تحت رأسه.

فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضك سلام..؟ من أنت؟

قال موسى: أنا موسى.

قال الخضر: موسى بني إسرائيل.. عليك السلام يا نبي إسرائيل.

قال موسى: وما أدراك بي..؟

قال الخضر: الذي أدراك بي ودلك علي.. ماذا تريد يا موسى..؟

قال موسى ملاطفا مبالغا في التوقير: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

قال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك.. وأن الوحي يأتيك..؟ يا موسى ﴿ **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ .

وتتابعت الشروط التي اشترطها الخضر على موسى وقبول موسى عليه السلام.وهنا نقف عند رواية أخرى بمزيد دلالات.

في رواية للطبري عن ابن عباس قال:

« سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال أي رب أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال أي رب أي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال رب فهل في الأرض أحد قال أبو جعفر أظنه قال أعلم مني قال نعم قال رب فمن هو قال الخضر قال وأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت قال فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكره الله عز وجل وانتهى موسى إليه عند الصخرة فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى إني أريد أن تستصحبني قال لن تطيق صحبتي قال بلى قال فإن صحبتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » فقال: ﴿ **سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** ﴾ قال له الخَضِر ﴿ **فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا** ﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرَّتْ سفينة فكلّمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول .

فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدّوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نَوْل، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ **لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا** ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ: « **وَكَانَتِ الأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا** » قال: « **وجاء عصفورٌ فوقعَ على حرفِ السفينةِ فنقرَ في البحر نَقْرَةً، فقال له الخضر ما علمي وعلمُك في علمِ الله إلاْ مثل ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحرِ** » . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخَضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فَقَتَلَهُ، فقال له موسى: ﴿ **أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا** ﴾ قال وهذه أشد من الأولى ﴿ **قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا**

فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فانْطَلَقَا حَتَّى إذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَة اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ قال مائل فقال الخضر بيده: ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا و لم يضيّفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله ﷺ : « وَدَدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا » .

ووردت القصة ببعض الزيادات كما يلي:

قال ابن عبّاس: قام مُوسَى رَسُولُ الله ﷺ في النَاسَ يَوْمًا حَتَّى إذَا فَاضَت العُيُونُ وَرَقّت القُلُوبُ وَلَّى فَأَدْرَكَهُ رَجُلٌ فَقَالَ أَيْ رَسُولَ الله ﷺ هَلْ في الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَال: لاَ؛ فَعَتَبَ الله عَلَيْه إذْ لَمْ يَرُدَّ العلْمَ إِلَى الله. قيلَ: بَلَى قَالَ: أَيْ رَبِّ فَأَيْنَ؟ قَالَ: بمَجْمَعِ البَحْرَيْن قَالَ: أَيْ رَبِّ اجْعَلْ لِي عِلْمًا، أَعْلَمُ ذَلِكَ به. قَالَ: حَيْثُ يُفَارِقُكَ الحُوتُ، قال: خذ حوتًا ميتًا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتًا فجعله في مكتل، فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيرًا فذلك قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ يوشع بن نون. قال: فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرّب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه لا أوقظه. حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره، وتضرّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كأنه أثره في حَجَر. قال: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ . قال: وقد قطع الله عنك النصب فرجعا فوجدا خضرًا. قال لي عثمان بن أبي سُلَيْمَانَ على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلّم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال: هل بأرض من سلام من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك؟ قال: جئتك ﴿ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا ﴾ قال أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى، إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه، فأخذ طائر بمنقاره من البحر، فقال: والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴾ وجدا معابرَ صغارًا تحمُل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا عبد الله الصالح. قال: فقلنا لسعيد: (خَضرُ) قال: نعم. لا نحمله بأجر ﴿ فَخَرَقَهَا ﴾ ووتد فيها وتدًا ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا

إِمْرًا ﴾ قال مجاهد: منكرًا ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ﴾ كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا ﴿ قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَه ﴾ قال: وجد غلمانًا يلعبون فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، والغلام المقتول يزعمون أن اسمه: جيسور ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ لم تعمل بالخبث. ابن عبّاس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلامًا زكيًا ﴿ فَانْطَلَقَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾ قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام، ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أجرًا نأكله.

وهنا حصل الفراق بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام .

فقد حذر الخضرُ موسى من مغبة السؤال. وجاء دور التفسير الآن..

إن كل تصرفات العبد الرباني التي أثارت موسى وحيرته لم يكن حين فعلها تصدر عن أمره.. كان ينفذ إرادة عليا.. وكانت لهذه الإرادة العليا حكمتها الخافية، وكانت التصرفات تشي بالقسوة الظاهرة، بينما تخفي حقيقتها رحمة حانية.. وهكذا تخفي الكوارث أحيانا في الدنيا جوهر الرحمة، وترتدي النعم ثياب المصائب، وهكذا يتناقض ظاهر الأمر وباطنه، ولا يعلم موسى، رغم علمه الهائل غير قطرة من علم الخضر، ولا يعلم الخضر من علم الله إلا بمقدار ما يأخذ العصفور الذي يبلل منقاره في البحر، من ماء البحر..

وهنا كشف الخضر لموسى شيئين في الوقت نفسه.. كشف له أن علمه -أي علم موسى- محدود.. كما كشف له أن كثيرا من المصائب التي تقع على الأرض تخفي في ردائها الأسود الكئيب رحمة عظمى (والله أعلم ولا أنتم لا تعلمون) .

إن أصحاب السفينة سيعتبرون خرق سفينتهم مصيبة جاءتهم، بينما هي نعمة تتخفى في زي المصيبة.. نعمة لن تكشف النقاب عن وجهها إلا بعد أن تنشب الحرب ويصادر الملك كل السفن الموجودة غصبا، ثم يفلت هذه السفينة التالفة المعيبة.. وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو، فلا يموتون جوعا.

أيضًا سيعتبر والد الطفل المقتول وأمه أن كارثة قد دهمتهما لقتل وحيدهما الصغير البريء.. غير أن موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظمى، فإن الله سيعطيهما بدلا منه غلاما

يرعاهما في شيخوختهما ولا يرهقهما طغيانا وكفرا كالغلام المقتول.

وهكذا تختفي النعمة في ثياب المحنة، وترتدي الرحمة قناع الكارثة، ويختلف ظاهر الأشياء عن باطنها حتى ليحتج نبي الله موسى على تصرف يجري أمامه، ثم يستلفته عبد من عباد الله إلى حكمة التصرف ومغزاه ورحمة الله الكلية التي يخفيها سبحانه، ولا تبدو لكثير من الخلق .

أما الجدار الذي أتعب نفسه بإقامته، من غير أن يطلب أجرًا من أهل القرية، كان يخبئ تحته كنــــزا لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنـــز فلا يستطيع الصغيران أن يدفعا عنه.. ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنــــزهما وهما قادران على حمايته.

ثم يزيد الخضر الأمر بيانًا وتوضيحًا؛ بأن الأمر كله إنما هو رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف. وهو أمر الله لا أمر الخضر. فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما قبلها، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه.

واختفى هذا العبد الصالح.. لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول.. إلا أن موسى تعلم من صحبته درسين مهمين:

تعلم ألا يغتر بعلمه في الشريعة، فهناك علم الحقيقة.

وتعلم ألا يتجهم قلبه لمصائب البشر، فربما تكون يد الرحمة الخالقة تخفي سرها من اللطف والإنقاذ، والإيناس وراء أقنعة الحزن والآلام والموت.

هذه هي الدروس التي تعلمها موسى كليم الله عز وجل ورسوله من هذا الخضر عليه السلام.

وهنا نورد رواية مشابهة؛ فإنه لما انبأ الخضر موسى عن سبب خرقه للسفينة؛ فقد كان أمامهم ﴿ **وَكَانَ وَرَاءَهُمْ** ﴾ ملك يزعمون أن اسمه: هدد بن بدد، ﴿ **مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا** ﴾ فإذا هي مرّت به يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. منهم من يقول سدّوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار؛ وأما الغلام الذي قتله الخضر ﴿ **كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ** ﴾ وكان كافرًا ﴿ **فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾ أي يحملهما حبّه على أن يتابعاه على

دينه ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ قال السُّهَيْلي وهما أصرم وصريم ابنا كاشح. ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا ﴾ قال عِكْرِمَة: كان ذهبًا. قال ابن عبّاس: علمًا، والأشبه أنه كان لوحًا من ذهب، مكتوبًا فيه علم.

روى البزّار بسنده عن أبي ذرّ قال: إن الكنــز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت مكتوب عليه : عجبت لمن أُيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان. وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ دليل على أنه كان نبيًا، وأنه ما فعل شيئًا من تلقاء نفسه، بل بأمر ربّه فهو نبي.



هل الخضر حي أم ميت؟

إن الكلام عن بقاء الخضر عليه السلام حيًا أمر شائع عند العوام والخواص، وهناك من يقول أنه مات و لم يبق له أثر بعد كليم الله موسى عليه السلام، وساق هذا حججه وساق آخر حججه،ونقف في هذا الكتاب على الأرجح من الأحاديث، وأقوال أهل العلم، سائلين المولى عز وجل أن يرزقنا الصواب فيما بلغناه من تلك الروايات؛ التي تحتاج إلى استزاده ممن أراد المزيد.

❊ ❊ ❊

آراء القائلين باستمرار حياته

وردت طائفة كبيرة من الأخبار والحكايات، تحتوي على لقاءات(الصالحين) معه، وزياراهم إياه في الفلوات والبراري، والأودية والصحاري؛ وعلى رحلاته وتنقلاته من بلد إلى بلد، وأحاديثه مع الناس، وبذله النصح لهم، وتعليمه الأدعية إياهم وما شاكل ذلك.

قال النووي: اختلفوا في حياة الخضر ونبوته. قال الأكثرون من العلماء: هو حي موجود بين أظهرنا [١]، وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء الصالحين والعامة منهم، وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثيين[٢].

وأنشد السيوطي في جوابه مسألة عن الخضر:

للناس خلف شاه في الخضر	**وهل أودى قديمًا أوحى ببقاء**
ولكل قول حجة مشهورة	**تسمو على الجوزاء في العلياء**
والمرتضى قول الحياة فكم له	**حجج تجل الدهر عن إحصاء**
خضر وإلياس بأرض مثل ما	**عيسى وأدريس بقوا بسماء [٣]**
هذا جواب ابن السيوطي الذي	**يرجو من الرحمن خير جزاء [٤]**

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نسئ للخضر في أجله حتى يكذب الدجال.وهذا الحديث في سنده ثلاث علل متوالية، فهو باطل لا يقوم عليه احتجاج ولا يمكن الاستعانة به في الاستدلال.

ذكر رواية عن حياة الخضر في زمان رسول الله ﷺ.

استدل بعضهم على حياة الخضر في زمان رسول الله ﷺ؛ بما أخرجه ابن عساكر بسنده عن أنس قال:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/١٧٦) .

(٢) فتاوى ابن الصلاح (٢٨) .

(٣) روي بسند ضعيف (أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في السماء: عيسى وأدريس؛ واثنان في الأرض: الخضر وإلياس).

(٤) الحاوي للفتاوي (٢/١٣٩) .

(خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة لحاجة فخرجت خلفه فسمعنا قائلا يقول: « اللهم إني أسألك شوق الصادقين إلى ما شوقتهم إليه » فقال رسول الله ﷺ : « **يا لها دعوة لو أضاف إليها أختها** » ؛ فسمعنا القائل وهو يقول: « اللهم إني أسألك أن تعينني بما ينجيني مما خوفتني منه » ؛ فقال رسول الله ﷺ: « **وجبت ورب الكعبة يا أنس ائت الرجل فاسأله أن يدعو لرسول الله ﷺ أن يرزقه الله القبول من أمته والمعونة على ما جاء به من الحق والتصديق** » .

قال أنس: فأتيت الرجل فقلت يا عبدالله ادع لرسول الله .

فقال لي ومن أنت فكرهت أن أخبره و لم أستأذن وأبى أن يدعو حتى أخبره فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته؛ فقال لي : « **أخبره** » فرجعت.

فقلت له: أنا رسول رسول الله ﷺ إليك.

فقال مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ فدعا له وقال : اقرأه مني السلام وقل له : أنا أخوك الخضر وأنا كنت أحق أن آتيك قال : فلما وليت سمعته يقول : « اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها » [١]. والحديث ضعيف؛ تكلم فيه أهل العلم.

❊ ❊ ❊

(١) الإصابة (٢/٢٤٠).

ذكر رواية عن بقاء الخضر بعد زمان رسول الله ﷺ

قال الفاكهي في كتاب مكة: حدثنا الزبير بن بكار حدثني حمزة بن عتبة حدثني محمد ابن عمران عن جعفر بن محمد بن علي هو الصادق بن الباقر قال كنت مع أبي بمكة في ليالي العشر وأبي قائم يصلي في الحجر؛ فدخل عليه رجل أبيض الرأس واللحية شثن الآراب فجلس إلى جنب أبي فخفف؛ فقال: إني جئتك يرحمك الله تخبرني عن أول خلق هذا البيت.

قال: ومن أنت.

قال: أنا رجل من أهل هذا المغرب.

قال: إن أول خلق هذا البيت أن الله لما رد عليه الملائكة حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها غضب فطافوا بعرشه فاعتذروا فرضي عنهم وقال اجعلوا لي في الأرض بيتا يطوف به من عبادي من غضبت عليه فأرضى عنه كما رضيت عنكم.

فقال له: الرجل إي يرحمك الله ما بقي من أهل زمانك أعلم منك ثم ولى.

فقال لي أبي أدرك الرجل فرده علي قال: فخرجت وأنا أنظر إليه فلما بلغ باب الصفا مثل فكأنه لم يك شيئا فأخبرت أبي. فقال: تدري من هذا؟؛

قلت: لا. قال: هذا الخضر.

والحديث لم يصح نسبته للباقر رحمه الله.

وهناك ادعاءات كثيرة عن رؤية الخضر قد سمعت بعضها، والآخر وقفت عليه في مصنفات عدة، ويمكن تلخيص تلك الادعاءات فيما يلي:

١- الخضر بنفسه يقول لمن رآه: أنا الخضر.

٢- رؤيا بعض الناس لشخص مجهول، فغاب، فكانوا يرون أنه الخضر.

٣- رأى الرجل المدعي للقاء الخضر رجلاً فظنه، أو خيل له، أو وقع في نفسه أنه الخضر.

٤- رؤيا بعض الناس لمجهول ذات صفات خاصة؛ فظنوا أنه الخضر.

٥- رؤيا بعض الناس لشخص في المنام يخبرهم أنه الخضر ثم يرونه في الحقيقة؛ فيسلموا

بأن هذا هو الخضر.

وبمجرد أدنى تفكير في سياق ما سبق؛ ينكشف زيف تلك الأقوال، وضعف أساليبها، وعدم دلالتها على المعنى المقصود، وهو استمرار حياته؛ وبالتالي تتبخر ادعاءات من قال بلقاءه للخضر أو زيارته له في الأودية والصحاري والجبال، وقد فند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تلك الادعاءات فقال:

« وعامة ما يحكى في هذا الباب من الحكايات: بعضها كذب، وبعضها بني على ظن رجل؛ مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر. وقال: إنه الخضر، كما أن الرافضة ترى شخصًا تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم، أو تدعي ذلك » .(١)

وقال ابن الجوزي رحمه الله: « فوا عجبًا! ألهم فيه علامة يعرفون بها؟ وهل يجوز لعاقل أن يلقى شخصًا، فيقول له الشخص: أنا الخضر؛ فيصدقه؟ » (٢).

هذا وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من قال ببقاء الخضر حيًا؛ وقطعوا بموته كبقية الأنبياء والصالحين، فمن الذين قالو بهذا: الإمام البخاري، وابن قيم الجوزية، وأبو يعلى الحنبلي، وأبو الحسين بن المنادي، وإبراهيم الحربي، وأبو بكر بن العربي، وشرف الدين أبو عبد الله المرسي،وأبو بكر النقاش، وأبو طاهر العبادي، وأبو الفضل بن ناصر، وغيرهم مما لا يتسع المقام لبيان اسماءهم جميعًا.

❊ ❊ ❊

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/١٠١) .

(٢) الموضوعات لابن الجوزي (١/١٩٧) .

قول ابن كثير في موت الخضر

أخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء، وينصره، فلو كان الخضر حيًا في زمانه لما وسعه إلاّ اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكات، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًا وهو الحق أو رسولاً كما قيل، أو ملكًا فيما ذكر، وأيامًا كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حيًا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر وَليًا كما يقوله طوائف كثيرون، فأولى أن يدخل في عموم البعثة، وأحرى. ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يومًا واحدًا إلى رسولُ الله ﷺ، ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التعزية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه، فإسناده ضعيف والله أعلم.

وحديث التعزية رواه ابن ماجه؛ قال : حدّثنا الوليد بن عمرو بن السكين، ثنا أَبو همام وهو محمّد بن الزبرقان الأهوازي، ثنا موسى بن عبيدة، ثنا مصعب بن محمّد عن أَبي سلمة بن عبد الرَّحمٰن، عن عائشة. قالت: فتح رسول الله ﷺ بابا بينه وبين الناس - أَو كشف سترًا - فإذا الناس يصلون وراء أَبي بكر، فحمد الله على ما رأى من حسن حالهم رجاء أن يخلفه فيهم بالذي رآهم.

فقال: « **يا أيها الناس أيما أحد من الناس أَو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإنّ أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي** » تفرّد به ابن ماجه.

وقال الحافظ البيهقي: أَخبَرَنا أَبو إسحاق إبراهيم بن محمّد الفقيه، ثنا شافع بن محمّد، ثنا أَبو جعفر بن سلامة الطحاوي، ثنا المزني، ثنا الشافعي عن القاسم بن عبد اللّه بن عمر بن حفص، عن جعفر بن محمّد، عن أبيه: أن رجالاً من قريش دخلوا على أبيه عليّ بن الحسين. فقال: ألا أحدثكم عن رسول الله ؟ قالوا: بلى فحدثنا عن أَبي القاسم. قال: لما أن مرض رسول الله أتاه جبريل فقال: يا محمّد إن الله أرسلني إليك تكريمًا لك وتشريفا لك، وخاصة لك، أسألك عما هو أعلم به منك، يقول: كيف تجدك؟ قال: « **أجدني يا جبريل مغمومًا،**

وأجدني يا جبريل مكروبا » ثم جاءه اليوم الثاني فقال له ذلك، فرد عليه النبي كما ردّ أول يوم، ثم جاءه اليوم الثالث فقال له كما قال أول يوم ورد عليه كما ردّ، وجاء معه ملك يقال له إسماعيل على مائة ألف ملك كل ملك على مائة ألف ملك، فاستأذن عليه فسأل عنه، ثم قال جبريل: هذا ملك الموت يستأذن عليك ما استأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك فقال عليه السلام: « **إيذن له** » ، فأذن له فدخل فسلّم عليه، ثم قال: يا محمّد إن الله أرسلني إليك فإن أمرتني أن أقبض روحك قبضت، وإن أمرتني أن أتركه تركته.

فقال رسول الله ﷺ : « **أو تفعل يا ملك الموت؟** » قال: نعم وبذلك أمرت، وأمرت أن أطيعك.

قال فنظر النبيّ إلى جبريل فقال له جبريل: يا محمّد إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال رسول الله لملك الموت: « **امض لما أمرت به** » فقبض روحه .

فلما توفي النبيّ وجاءت التعزية سمعوا صوتًا من ناحية البيت؛ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب.

فقال عليّ رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السَّلام . وهذا الحديث مرسلاً، وفي إسناده ضعف.

ونستخلص من الروايات والأحاديث ومن جل ماسبق أن الخضر كان نبيًا، وأنه لم يدرك محمدًا ﷺ، وانه كان سببًا في تعليم موسى عليه السلام؛ ليعلم أن هناك من هو أعلم منه من البشر، وليعلم أن الله سبحانه يجتبي من يشاء من عباده، وفوق كل ذي علم عليم.

(والحمد لله رب العالمين)



بعض الفوائد المنتقاة من قصة موسى والخضر

❊ الله أعلم حيث يجعل رسالاته:

كانت قصة الخضر مع موسى امتحانًا لموسى ليعتبر، وليتعظ بعده كل إنسان قد تعلم علمًا؛ أو أوتي فهمًا . فالعلم المطلق لا ينبغي إلا لله سبحانه وتعالى، فجميع البشر إنما يرزقون العلم بقدر وحصر، ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ .

وقد صح عن نبينا محمد ﷺ أنه كان يفوض العلم لله سبحانه وتعالى الذي له علم الغيب وعلم الشهادة؛ فقد ورد من دعاءه عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : « **اللهم إني عَبْدُكَ وابن عبدك وابن أمَتِكَ في قبضتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فِيَّ حكمك، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيْتَ به نفسك، أو أنــزلته في كتابك أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب هَمِّي وغَمِّي** » .

يدعو عليه الصلاة والسلام ربه بأسماءه التي تعلمها الرسول ﷺ من ربه، ويدعوه بأسماءه التي لم يعلمها له ربه جل وعلا فيقول: « **أو علمته أحدًا من خلقك** » أي اسم لم يَعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام، وعَلَمَه غيره من عباد الله الذين لا يعلمهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا من الأدب الذي تعلمه رسول الله ﷺ؛ وصدق ربه حين قال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ الآية.

فادعاء العلم الكامل التام الذي لا علم بعده، أمر لم يرضه الله سبحانه ولو كان من كليمه، ورسوله موسى عليه السلام؛ فما بالنا بمن هم دونه من البشر الذين إذا أوتوا نصيبًا من العلم الدنيوي الزهيد؛ تجده يغتر بعقله، ويستبد برأيه، وينصب ميزان الحلال والحرام بهواه، راكبًا في ذلك كلمات منمقة وأقوال مزركشة يلوي أعناق الحروف ويتشدق بما لا يعي، وكأنه فاق الأنبياء علمًا ورزق مما لم يُفهم فهما.

فحري بمثل هذا أن يُزجر، وإن تكلم يُعَذَّر، وإن تقدم يؤخر. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❊ التأويل يجب أن يكون بعلم:

الناظر في كيفية تأويل الخضر عليه السلام لأسباب أفعاله التي بدت لموسى على أنها أفعال غير مقبولة؛ ليلحظ أن الخضر أحال ما فعله لعلم الله ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ﴾ ؛ أما ما يقوم به بعض أصحاب الخزعبلات من تأويل أعمالهم التي لا أصل لها في الشرع، ولا مرجع لها في الدين؛ فيقولون: هذا علم قد أوتيته، وهو علم من الشيطان لا من الرحمن، وقد ورد عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: إذا رأيتم الرجل يمشي عل الماء ويطير في الهواء فعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

فيجب الانتباه لمثل تلك الخزعبلات التي يأتي بها أصحاب الشعوذة والدجل؛ كما ننبه على مسألة تأويل الرؤى والمنامات التي أصبح كل من هب ودب يدلي فيها بدلوه، ويفسرها بهواه، وبجهالة تدع الحليم حيران؛ فيستخف بعقول السذج، ويلهو بعقول من لا علم له ولافطنة.

❊ الأدب في طلب العلم:

لما قصد موسى الخضرَ عليهما السلام طلبًا للعلم؛ اشترط الخضر على موسى أمورًا يجدر بنا الوقوف عليها: فقد اشترط الخضر على موسى أن يتبعه دون أن يسأله ﴿ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ وهذا أمر بالنسبة لطلبة العلم قد يبدوا صعبًا لأن غالب حالَ طلبة العلم هو السؤال؛ فبالسؤال يتم التعلم، ولكن إذا طلب المعلم من المتعلم الصمت؛ وجب عليه ذلك احترامًا للمعلم وتوقيرًا له.



قصة مُوسى الكليم عليه الصلاة والسلام

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾

[مريم: ٥١ - ٥٣].

بعد أن علمنا من قصة يوسف عليه السلام كيف مكنَّ الله له ، وكيف جاء بأهله إلى مصر؛ جاء دور موسى عليه السلام؛ فقد دخل يعقوب عليه السلام - وهو المسمى بإسرائيل - مصر مع بنيه بطلب من ولده يوسف عليه السلام حين ولي وزارة مصر، وكانوا أفرادا معدودين، فآواهم يوسف عليه السلام وقال لهم: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

[يوسف:٩٩].

ولمكانة يوسف عند الملك أكرم الملك أبويه وإخوانه وأهله، وأحسن مثواهم ومكّن له في الأرض، حتى ولاهم مناصب عالية فيها.

ولأن قصة موسى عليه السلام من القصص التي اشتهرت في القرآن الكريم، وبسطها الله في كتابه؛ لهذا سنبدأ هذه القصة بملخص لها ثم نسردها بشيء من التفصيل، والله المستعان.

❊ ❊ ❊

ملخص القصة

مضت السنون بعد ذهاب يعقوب عليه السلام بأهله إلى مصر، ونـــزوله بها على وجه من وجوه التمكين؛ فكثر بنو إسرائيل في مصر وزاد عددهم، وبدأ الفراعنة يحسدونهم على ما وصلوا إليه في البلاد من مناصب مع غربتهم، ويقلقون بسبب وجود بني إسرائيل في مصر، فأخذوا يعزلونهم عن المناصب والولايات.

وحدث أن رأى فرعون رؤى، فُسرت له بأن هلاكه وذهاب ملكه سيكون على يد غلام يولد من بني إسرائيل، فاستشاط غضبا، وأصدر أوامره بذبح كل مولود ذكر من بني إسرائيل، وأخذ يستخدم كبار رجالهم ونسائهم في الأعمال الشاقة وفي ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص: ٤].

ولكن الله تعالى يريد غير ما يريد فرعون، ويقدّر غير ما يقدر الطاغية، والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم فينسون إرادة الله تعالى وتقديره، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون، ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون. والله يعلن إرادته، ويكشف عن تقديره، ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلا: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص:٥-٦].

ويولد موسى عليه السلام في هذه الظروف، والخطر محدّق به، والموت يتلفت عليه، وتحتار أمه، وترجف خشية أن تتناول عنقه السكين، ويوحي إليها ربها: ﴿ **أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ** ﴾ [طه: ٣٩].

❊ ❊ ❊

وهذا منتهى التحدي

لقد أعلنت الطوارئ، وصدرت الأوامر بذبح المواليد المساكين، تخوّفا من واحد سيكون هلاك فرعون على يده، وإذا بالقدرة الإلهية تحمل هذا الغلام نفسه إلى فرعون، مجردا من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد، وكأنها تقول له: يا فرعون! لا تتعب نفسك في البحث عن هذا الغلام الذي سيكون ذهاب ملكك على يده، فها هو بين يديك، فإن كان لك كيد أو تدبير فاصنع ما تريد.

وإذا بفرعون نفسه يبحث لموسى عن المراضع، ويأتيه بهن واحدة بعد الأخرى حتى آل إلى أمه ﴿ **كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص: ١٣].

ويربى موسى في قصر فرعون تحت رعايته وإشرافه، وفرعون يوفر له كل احتياجاته ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾ [القصص: ٨].

وتنتهي مدة الرضاع وفترة الصبي، ويبلغ موسى أشده، ويستوي عوده، ويكتمل نضجه العضوي والعقلي، فيؤتيه الله حكما وعلما، وبينما موسى يتجول في المدينة في وقت الظهيرة حين تغفوا العيون ﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ** ﴾ [القصص: ١٥].

فأجمعوا أمرهم ليقتلنه، فنصحه ناصح بالخروج من البلاد ﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ** ﴾ [القصص: ٢١].

حتى دخل مدين ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي**

ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٣-٢٨].

وقضى موسى أبر الأجلين وأوفاهما، ثم استأذن صهره في الرجوع إلى مصر! مصر التي قتل فيها رجلا بالأمس! مصر التي خرج منها خائفا يترقب! ترى هل نسي ما كان منه؟ هل نسي أن لهم عنده ثأرا؟ إنها إرادة الله! إنه القدر الذي ذكّر به الله موسى حين قال له: **﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾** [طه: ٤٠].

وفي الطريق اشتد البرد، وفقد النار، وضل الطريق، وبينما هو في هذه الظروف القاسية **﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾** [طه: ١٠].

فأتى موسى هذه النار فإذا هي نور عظيم، وعندها خير كثير: **﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾** [طه:١١- ١٤].

وبهذا نبئ موسى، وأرسل حين قال له ربه: **﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾** [طه: ٢٤].

وموسى يعرف من هو فرعون فسأل الله العون: **﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي ﴾** [طه: ٢٥-٣٠].

فقال الله له: **﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾** [طه: ٤٢-٤٤].

فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

ويأخذ موسى أخاه هارون ويتوجهان إلى فرعون، ويبدأ موسى الكلام فيقول لفرعون: **﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾** [الشعراء: ١٦].

هكذا من أول لحظة، ليشعر فرعون أنه ليس ربا ولا إلها، وأنه مربوب لرب العالمين الذي يجب أن يتخذه إلها يعبده.

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة: ﴿ **إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم: ﴿ **أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء: ١٧].

فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا في قصره منذ أن التقطوا تابوته، وأنه هرب بعد قتله للقبطي. فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين، ومن ثم بدأ فرعون متهكما مستهزئا مستعجبا: ﴿ **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾

[الشعراء: ١٨-١٩].

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا؟ بأن تأتي اليوم لتخالف ديننا ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟! ولقد قتلت نفسا بالأمس وأنت من الكافرين برب العالمين الذي تقول به اليوم؟! فما الذي حدث؟! ويرد موسى في ثبات وثقة وطلاقة لسان: ﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء: ٢٠-٢٢].

وعندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه، ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم.

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ** ﴾

[الشعراء: ٢٣-٣٠].

فسقط في يده، ورأى أنه لابد أن يستمع لبرهانه، فطلب منه أن يأتي بالدليل: ﴿ **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

وأحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق الملأ من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقوله، ليغطي على وقع

المعجزة المزلزلة: ﴿ **قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

فأشاروا عليه أن يأخذ من موسى موعدا يجتمع فيه السحرة من كل مكان، ويقابلون سحر موسى بسحرهم، فمن غلب اتبعوه، والأمر مفصول فيه أن السحرة هم الغالبون، فخيب الله سعيهم، وأبطل كيدهم، وجعل نبيه موسى هو الأعلى: ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى** ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨].

فجن جنون فرعون وأخذ يهدد ويتوعد، ولكن بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب لم يعبأ بأية تهديد، ولذا قال المؤمنون كلمتهم بكل جرأة وثبات: ﴿ **قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٥٠].

لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا ضير في التصليب والتعذيب، لا ضير في الموت والاستشهاد، لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، وليكن في هذه الأرض ما يكون، فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه أن يغفر لنا ربنا خطايانا جزاء أن كنا أول المؤمنين.

وهنا تدخل الملأ أهل الأهواء والمصالح والمطامع، تدخلوا ليهيجوا فرعون على موسى ومن معه، ويخوفونه عاقبة التهاون في أمرهم، فطمأنهم فرعون بأنه سيحكم القبضة، ويعيد العمل بقانون الطوارئ، فيقتل الذكران ويستحي النساء.

وأخذ موسى يعظ قومه وينصحهم بالصبر حتى يأتي أمر الله، ف ﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومضى فرعون وملؤه في جبروتهم، ومضى موسى وقومه يتحملون العذاب ويرجعون فرج الله، وعندئذ تدخلت القدرة الإلهية فأخذت آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون، ثم جاءت الإنذارات تترا ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ثم أعلنوها صريحة: ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾

[الأعراف: ١٣٢].

وأدرك موسى أن لا فائدة ترجى من القوم، وأنهم مصرون على الكفر والفساد في

الأرض ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ** ﴾ [الدخان: ٢٢].

فأوحى الله إليه أن ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ** ﴾ [الدخان:٢٣].

فإذا عبرت أنت ومن معك فاترك البحر رهوا أي ساكنا كما هو إغراء لفرعون بالعبور، فإنهم قوم مغرقون.

وفي الليلة الموعودة خرج موسى ببني إسرائيل، وعلم فرعون بخروجهم فجمع الجموع وخرج في طلبهم ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٣].

أي كالجبل العظيم، وصار البحر إثني عشر طريقا لكل سبط طريق، وأمر الله الريح فنشفت أرضه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا** ﴾ [طه: ٧٧].

وتخرّق الماء بين الطريق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم غيرهم فيطمئنوا عليهم.

وجاوز بنوا إسرائيل، فلما خرج آخرهم كان فرعون قد انتهى إلى شاطئ البحر، فوقف مترددا أيعبر خلفهم؟ أم يرجع وقد كُفيهم؟ فجاء جبريل عليه السلام على فرس فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها واقتحم جبريل فاقتحم فرعون وراءه، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك منهم أحدا إلا أقحمه، حتى إذا أدركوا في البحر جميعا جاءهم الموج من كل مكان وجعل يرفعهم ويخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وجاءته سكرة الموت فنادى : ﴿ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ به بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

فقيل له: ﴿ **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾ [يونس: ٩٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « **قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حل البحر فأدسّه في فيّ فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة** » .

وهكذا أنجى الله موسى والمسلمين، وأغرق فرعون والكافرين: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا** ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾

[الشعراء:٦٧-٦٨].

﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

فهنيئا للصابرين: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

* * *

القصة على نحو من البسط

قال الله تعالى:

﴿ طسم * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١ - ٦].

وقد أورد ابن كثير في تفسير معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [القصص: ٤] ، أن فرعون تجبّر وعتا، وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعًا، فقسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيارَ أهل الأرض، وقد سلّط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم، الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك - والله أعلم - حين كان جرَى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوءِ وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته. وهم يَسْمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حَذر من قدرَ.

وروي عن ابن عباس، وابن مسعود: أن فرعون رأى في منامه؛ كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله

ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة. وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النساء.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥] وهم بنو إسرائيل، ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥] أي الذين يئول ملك مصر وبلادها إليهم.

فجعل الله الضعيف فيهم قويًا، والمقهور قاهرًا، والذليل عزيزًا. وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية. وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى أو أي غلام ذكر آخر، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرًا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان، لتضعف شوكةُ بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم.

وهذا فيه نظر، بل هو باطل. وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر: ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذرًا من وجود موسى. هذا، وكأن القدَر يقول:

« يا أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه، واتساع سلطانه: قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره: أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه، من النفوس مالا يُعد ولا يُحصى، لا يكون مَرْباه إلا في دارك، وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منـــزلك، وأنت الذي تتبناه، وتربيه وتتفداه، ولا تطلع على سر

معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحي إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعَّال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة، والمشيئة التي لا مردّ لها » .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبَار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يَلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامَحة عن قتل الأبناء، أن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعًا، واحترزت من أول ما حبلت، و لم يكن يظهر عليها مخايل الحبل. فلما وضعت أُلهمت أن تتخذ له تابوتًا، ربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به. قال الله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص: ٧ – ٩].

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا** ﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩] الآية.

وليس هو بوحي نبوة كما زعمه غير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

قال السُّهيلي: واسم أم موسى « أيارخا » ، وقيل: « أياذخت » . والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وأُلقي في خَلدها ورَوْعها: ألا تخافي ولا تَحزني؛ فإنه إن ذهب فإن الله سيردُّه إليك، وإن الله سيجعله نبيًا مرسلاً، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ **فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ** ﴾ ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ [القصص: ٨] .

قال السدي: لما ولدت أمّ موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآية؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة.

وقال ابن جريج: أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان، فإذا خافت أن يصيح – لأن لبنها لا يكفيه – صنعت به هذا. والأوّل أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله: «فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ» و« إِذَا » لما يستقبل من الزمان؛ فيروى أنها اتخذت له تابوتًا من بَرْدى وقيّرته بالقَار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقته في نيل مصر.

قال ابن عباس: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي؛ فسّلط الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى.

قال وهب: بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفًا. ويروى أنها حين اقتربت وضَربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها؛ فقالت: لينفعني حُبُّك اليوم؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مَفْصِل منها، ودخل حبّه قلبها، ثم قالت: ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك حبًّا ما وجدت مثله قط، فاحفظيه؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنّور مسجور نارًا لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئًا، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنّور، وقد جعل الله عليه النار بردًا وسلامًا.

وذكر المفسرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلَق عليه، فلم يتجاسَرْن على فتحه، حتى وضعنهَ بين يدي امرأة فرعون « آسية » بنت مزاحم بن عبيد بن الريَان ابن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف.

وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته، فالله أعلم.

وآسية أمرأة فرعون ومريم بنت عمران، ورد في الحديث أنهما من أزواج رسول الله في الجنة.

فلما فتحت آسية الباب، وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه، أحبته حبًا شديدًا جدًا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: ﴿ **قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ** ﴾ فقال لها فرعون: أمَّا لك

فنعم وأما لي فلا. أي لا حاجة لي به.

وقولها: ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا** ﴾ قد أنالها الله ما رجت من النفع: أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه. ﴿ **أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا** ﴾ [القصص: ٩] وذلك أهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص: ٩] أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم، حين قيضهم لالتقاطه، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده؟وعند أهل الكتاب: أن التي التقطت موسى « دربتة » ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكْر بالكلية، وهذا من غلطهم على كتاب الله عزّ وجلّ. وقال الله تعالى: ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص: ١٠ - ١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا** ﴾ ﴿ **إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ** ﴾ ﴿ **لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾ ﴿ **لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ** ﴾[القصص: ١٠-١١].

وهي ابنتها الكبيرة: ﴿ **قُصِّيهِ** ﴾ أي اتبعي أثره، واطلبي لي خبره ﴿ **فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ** ﴾ ، قال مجاهد: عن بُعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال: ﴿ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لمّا استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذّوه برضاعة فلم يَقْبل ثديًا ولا أخذ طعامًا، فحاروا في أمره، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ** ﴾ ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ** ﴾ .

فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق؛ لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصُرت به أخته، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ** ﴾ قال ابن عباس: لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنُصْحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منـــزلهم، فأخذته أمه. فلما أرضعته التقم ثديها، وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى (آسية) يُعْلمها بذلك،

فاستدعتها إلى منـــزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولادًا، ولست أقدر على هذا، إلا أن ترسليه معي. فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات، والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها. قال الله تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ١٣].

وقد امتنَّ على موسى بهذا ليلة كلَّمه، فقال له فيما قال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ * إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ وذلك أنه كان لا يراه أحدٌ إلا أحبه ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٧ ٣٩] .

قال قتادة وغير واحد من السلف: أي تطعم وترفه وتغذي بأطيب المآكل، وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك، وقدَّرته من الأمور التي لا يَقْدر عليها غيري. ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠] . وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان. ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٤ – ١٧].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشدّه واستوى، وهو احتكام الخَلْق والخُلق، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين، آتاه الله حكمًا وعلمًا، وهو النبوة والرسالة التي كان بشَّر بها أمه حين قال: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مَدْين وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل وانقضى الأمَد، وكان ما كان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به. كما سيأتي.

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن

جُبير وعكرمة وقَتادة والسُّدي: وذلك نصف النهار،وكان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون؛ فركب فرعون يومًا وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف - قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر - ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ابن عباس. وقال أيضًا: هو بين العشاء والعَتَمة.

وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يومًا على حين غفلة من أهلها. بعد أن غاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد.

﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ** ﴾ أي يتضاربان ويتهارشان ﴿ **هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ** ﴾ أي إسرائيلي، ﴿ **وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ أي قِبطي. قاله ابن عباس وقتادة والسُّدي ومحمد ابن إسحاق.

﴿ **فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صَوْلة، بسبب نسبته إلى تبنِّي فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله أي من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى﴿ **فَوَكَزَهُ** ﴾ قال مجاهد: أي طعنه بجُمْع كفه، وقال قتادة: بعصا كانت معه، ﴿ **فَقَضَىٰ عَلَيْهِ** ﴾ أي فمات منها.

وقد كان ذلك القبطي كافرًا مشركًا بالله العظيم، و لم يُردْ موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه. ومع هذا، ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى: ﴿ **هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ** ﴾ [القصص: ١٥ - ١٧] أي من العز والجاه ﴿ **فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾ وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته. وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيليّ المؤدّية إلى القتل الذي لم يحلّ له قتله. وقيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمنا ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع.

وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيلي كان كافرًا، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيليًا و لم يرد الموافقة في الدين، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافرًا على كافر، فقال: لا أكون بعدها ظهيرًا للكافرين.

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۞ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۞ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ١٨ – ٢١].

فلما أصبح موسى بمدينة مصر خائفًا أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم **﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾** أي يتلفت، فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنّفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: **﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾** ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، فيردعه عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي **﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾** [القصص: ١٩] .

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه، لمّا عنفه قبل ذلك بقوله: **﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾** .

فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس. فذهب القبطي فاستَعْدى فرعون على موسى. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيّته انتصارًا جديدًا للإسرائيلي. فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دلّه على هذا. والله أعلم. والمقصود أن فرعون بلغه أن

موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه. وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب. ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [القصص: ٢٠] ساعيًا إليه مشفقًا عليه فقال: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾ أي من هذه البلدة ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ ، أي فيما أقوله لك.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه، قائلاً: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢١ – ٢٤].

خرج موسى من مصر خائفًا يترقب، أي يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا أين يذهب؛ وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها. ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه. ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه؛ ، ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وكانت بئرًا يستقون منها، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحابَ الأيكة، وهم قوم شُعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء.

ولما ورد الماء المذكور ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ، أي تكفكفان عنهما غنمهما أن تختلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضًا من الغلط، ولعلهن كن سبعًا، ولكن إنما كان تسقى اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظًا، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء، لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشْرعان غنمهما في

فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما.

ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السَّمُر وروى ابن جرير عن ابن مسعود، أنه رآها خضراء ترف ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خُضرة البقل لترى من داخل جوفه، إنه لمحتاج إلى شق تمرة.

قال عطاء بن السائب لما قال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أسمع المرأة.

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ * قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٥ - ٢٨].

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام. فأمر إحداهما، أن تذهب إليه فتدعوه، ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ أي مشي الحرائر، ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾ وأخبره خبره، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارًا من فرعونها، ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شُعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين. وممن نص عليه: الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرَّحًا به في حديث،

ولكن في إسناده نظر.

وصرح طائفة بأن شعيبًا عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه « يثرون » هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أي كبيرها وعالمها.

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب. وزاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿ **يَٰأَبَتِ ٱسْتَجِرْهُ** ﴾ أي لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوي أمين.

قال عمر وابنُ عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علِمك بهذا؟ فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاحْذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿ **أَكْرِمِى مَثْوَاهُ** ﴾ ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ **يَٰأَبَتِ ٱسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلامِينُ** ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمرَ بن الخطاب.

﴿ **قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [القصص: ٢٧]. استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، على صحة ما إذا باعه أحدَ هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك، أنه يصح؛ لقوله: ﴿ **إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَاتَيْنِ** ﴾ وفي هذا نظر؛ مراوَضة لا معاقَدة. والله أعلم.

واستدل أصحابُ أحمد على صحة الاستئجار بالطُّعمة والكسوة، كما جرت به العادة.

فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: « **إن موسى عليه السلام آجرَ نفسه بعفة فرجه**

وطعمة بطنه » .

ثم قال تعالى على لسان موسى: ﴿ **ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ [القصص: ٢٨].

قال موسى لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيتُ فلا عدوان عليَّ والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل علي وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كواملَ تامة.

روى البخاري عن سعيد بن جُبير، قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجَلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدَم على حبْر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل.

فعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: « **سألتُ جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما** » .

وقد رواه البزّار وابن أبي حاتم عن أبي ذر، أن رسول الله سُئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: « **أوفاهما وأبرهما** » : قال: «**وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما**».

فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه، من قالب لَوْن من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسانًا.

فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: « فأتأمت وألبنت » ووضعت كلها قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين.

واعد نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، وقال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فوضع حبالاً على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولةً فولدن كلهن بُلقًا إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام .

﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ**

إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٰمِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٢].

سَارَ موسى بِأَهْلِه من عند صهره، قيل لاشتياقه إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مُختَف، فلما سَار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه.

قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يوري زناده فلا يرى شيئًا، واشتد الظلام والبرد.

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعْد نارًا تأجَّج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه؛ ف ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص: ٢٩] أي لعلي أستعلم من عندها عن الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

وقال سبحانه ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧] .

استأذن موسى صهره في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله وغنمه، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى عليه السلام رجلاً غيورًا، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه، لئلا يروا امرأته؛ فأخطأ الرفقة - لما سبق في علم الله تعالى - وكانت ليلة مظلمة، وكانت ليلة الجمعة في الشتاء، فحاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار فلم تورِ المِقْدَحة شيئًا، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عناب، فوقف متعجبًا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار فرأى النار وهي في شجرة من العُلّيق، فقصدها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس في نفسه خيفة، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ

ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠]. وقال في النمل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل: ٩] . وقال في سورة طه: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١١ - ١٦].

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العَوْسج، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد. فوقف متعجبًا، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤] وكان موسى في واد اسمه طَوَى فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدس طوى، فأُمر أولاً بخلع نعليه تعظيمًا وتكريمًا وتوقيرًا لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة. وعند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور؛ مهابةً له وخوفًا على بصره.

* * *

الحكمة من خلع النعل لموسى عليه السلام وحكمها في الصلاة

الأولى: اختلف العلماء في السبب الذي من أجله أمر بخلع النعلين. والخلع النـــزع. والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض. فقيل: أمر بطرح النعلين؛ لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مُذَكًّى؛ قاله كعب وعِكرمة وقتادة.

وقيل: أمر بذلك لينال بركة الوادي المقدس، وتمس قدماه تربة الوادي؛ قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جريج.

وقيل: أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت. وقيل: إعظامًا لذلك الموضع كما أن الحرَم لا يُدخَل بنعلين إعظامًا له. قال سعيد بن جبير: قيل له طَإِ الأرض حافيًا كما تدخل الكعبة حافيًا. والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه؛ ولا تبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها. وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برًا بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة، والجثة الكريمة. ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخَصَاصِيّة وهو يمشي بين القبور بنعليه: « **إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك** » قال: فخلعتهما. وقول خامس: إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد.

وقيل: لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى، ولا ينبغي أن يطأ على بساط رب العالمين بنعله. وقد يحتمل أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّل فرض عليه.

الثانية: في الخبر أنّ موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي. وقال أبو الأحوص: زار عبد الله أبا موسى في داره، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى؛ فقال أبو موسى لعبد الله: تقدّم. فقال عبد الله: تقدّم؛ أنت في دارك. فتقدّم وخلع نعليه؛ فقال عبد الله: أبالوادي المقدس أنت؟!.

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال: قلت: لأنس: أكان رسول الله ﷺ يصلي في نعلين؟ قال: نعم.

ورواه النَّسائي عن عبد الله بن السائب: أن النبيّ ﷺ صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره.

وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: « **ما حملكم على إلقائكم نعالكم** » قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا.

فقال رسول الله ﷺ: « **إنّ جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قَذَرًا** » وقال: « **إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر إذا رأى في نعليه قذرًا أو أذًى فليمسحه وليصلّ فيهما** ».

ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرةً من ذكيّ، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ **خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف: ٣١] على ما تقدّم. وقال إبراهيم النخعي في الذين يخلعون نعالهم: لوددتُ أن محتاجًا جاء فأخذها.

الثالثة: فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه** » .

وقال أبو هريرة للمقبري: اخلعهما بين رجليك ولا تُؤذِ بهما مسلمًا . وما رواه عبدالله ابن السائب رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إمامًا، فإن كنت إمامًا أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأمومًا في الصف فلا تُؤذِ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قدام قدميك. وروي عن جُبَير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة: فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمَع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بني آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفًا فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهّرها المسح بالتراب من النعل والخفّ أو لا؟ قولان عندنا. وأَطلقَ الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزَاعيُّ وأبو ثور. وقال أبو حنيفة: يزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ما عدا البول، فلا يجزىء فيه عنده إلا الغسل. وقال الشافعي: لا يطهّر شيئًا من ذلك كله إلا الماء. والصحيح قول من قال:

إن المسح يطهّره من الخفّ والنعل؛ لحديث أبي سعيد. فأما لو كانت النعل والخفّ من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق .

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ **إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ المقدّس: المطهَّر. والقُدْس: الطهارة، والأرض المقدّسة أي المطهرة؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين. وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض، ولبعض الحيوان كذلك. ولله أن يفضل ما شاء. وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدسًا بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين؛ فقد شاركه في ذلك غيره. و « طُوًى » اسم الوادي.

وقال الضحاك: هو واد عميق مستدير مثل الطَّوِيّ. وقرأ عِكْرِمة « طِوًى » . والباقون « طُوًى » . قال الجوهري: « طوى » اسم موضع بالشام، وقال بعضهم: « طُوًى » مثل « طِوًى » وهو الشيء المَثْنِيُّ، وقالوا في قوله ﴿ **ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ : طُوِيَ مرتين أي قُدِّس. وقال الحسن: ثُنِيَتْ فيه البركة والتقديس مرّتين.

وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له طوى لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال: « إنك بالوادِ المقدس » الذي طويته طوى؛ أي تجاوزته فطويته بسيرك. الحسن: معناه أنه قدّس مرتين؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضًا.

هذا ما تيسر نم أمر الصلاة في النعل بغير توسع ، وأحكامه مبسوطة في أماكنها بكتب الفقه والله أعلم.

ونعود لتكليم الله عز وجل لموسى؛ فقد اصطفاه ربه بالتكليم والاستماع المباشر من الله؛ فقال سبحانه ﴿ **وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ** ﴾ ؛ فالاستماع هو الإنصات؛ لأنه بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

فمِن أدب الاستماع سكون الجوارح وغَضّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها. فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغضّ طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

قال سفيان بن عُيينة: أوّل العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورًا.

ثم خاطب الله تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿ **إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿ **إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ** ﴾ [طه: ١٤] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

فتلك كانت بداية للتكاليف التي كلف بها موسى وهي: إخلاص العبادة، كمعتقد يلزم كل عبد؛ ثم الصلاة ؛ فهذه ثلاث مسائل ينبغي أن يعرفها كل مسلم مؤمن بالله عز وجل:

المسألة الأولى: قضية التوحيد والعبودية: ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي** ﴾ فلابد أن تعلم هذه القضية، قولاً وعملاً، وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يعلمها ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [محمد: ١٩].

فلا معبود بحق إلا الله، ولا متصرف إلا الله، ولا خالق، ولا مدبر، ولا حاكم، ولا مسيطر، ولا مرجوّ، ولا مقصود إلا الله تبارك وتعالى.

المسألة الثانية: قضية الصلاة، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا امتثال لمعالم العقيدة بغير صلاة.

المسألة الثالثة: قضية الإيمان باليوم الآخر، وهي قضية كبرى، ركز عليها القرآن في مواضع كثيرة، وأبطل زعم الذين أنكروا هذا اليوم ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن: ٧].

تلكم كانت التكاليف التي كُلف بها موسى، وكُلف بها رسول الله محمدًا ﷺ، وهنا يجدر بنا نقف على بعض المسائل في الصلاة لأهمية هذه الشعيرة وعلوها عن بقية الشعائر التعبدية.

* * *

إقامة الصلاة وحكم تاركها، وقضاء الصلاة الفائتة

المسألة الأولى: اختلف أهل العلم في تأويل قوله تعالى: « لِذِكرِي » فقيل: يحتمل أن يريد لتذكرني فيها، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها، وقيل: المعنى؛ أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى، وقيام بين يديه؛ وعلى هذا فالصلاة هي الذكر. وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرًا في قوله: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة: ٩].

وقيل: المراد إذا نسيت فتذكرت فصلِّ كما في الخبر « **فليصلّها إذا ذَكَرها** » . أي لا تسقط الصلاة بالنسيان.

الثانية: روى مالك وغيره أن النبي ﷺ قال: « **من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذَكَرها فإن الله عز وجل يقول:** ﴿ **وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِذِكْرِيٓ** ﴾ » .

وروى عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال: « **كفارتها أن يصليها إذا ذكرها** » .

وروى الدارقطنيّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها** » ؛ فقوله: « **فليصلّها إذا ذكرها** » دليل على وجوب قضاء الصلاة على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قَلَّت، وهو مذهب عامّة العلماء.

وقد حكي خلاف شاذ لا يعتد به، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء.

قلت: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال: ﴿ **أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ** ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقًا لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاصٍ؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قوله عليه الصلاة والسلام: « **من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذَكَرها** » لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء؛ لأن القضاء بأمر متجدّد وليس بالأمر الأول.

الثالثة: فأما من ترك الصلاة متعمدًا، فالجمهور أيضًا على وجوب قضاء الصلاة عليه، وإن كان عاصيًا.

والفرق بين المتعمد والناسي والنائم، حط المأْثم؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة للجمهور قوله تعالى: ﴿ **أَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾ ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. هو أمر يقتضي الوجوب.

وأيضًا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مأثومين، فالعامد أولى. وأيضًا قوله: « **من نام عن صلاة أو نسيها** » والنسيان الترك؛ قال الله تعالى: ﴿ **نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٦٧] و﴿ **نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر: ١٩] سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن الله تعالى لا يَنْسى وإنما معناه تركهم و﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا** ﴾ [البقرة: ١٠٦] أي نتركها. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: « **من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي** » وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان وإنما معناه عَلمت. فكذلك يكون معنى قوله: « **إذا ذكرها** » أي علمها. وأيضًا فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يسقطها الإبراء كان في ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه.

وأيضًا فقد اتفق أنه لو ترك يومًا من رمضان متعمدًا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة. فإن قيل فقد روي عن مالك: من ترك الصلاة متعمدًا لا يقضي أبدًا. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلامًا خرج على التغليظ؛ كما روي عن ابن مسعود وعليّ: أن من أفطر في رمضان عامدًا لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه. ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء. وقد روى أبو المُطَوِّس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « **من أفطر يومًا من رمضان متعمدًا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه** » وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود. وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح، وفي بعضها قضاء اليوم؛ والحمد لله تعالى.

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: « **من نام عن صلاة أو نسيها** » الحديث؛ يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام: «**رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ**» والمراد

بالرفع هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: « **وعن الصبي حتى يحتلم** » وإن كان ذلك جاء في أثر واحد؛ فقف على هذا الأصل.

الخامسة: اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو في صلاة، فجملة مذهب مالك: أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها، وعلى نحو هذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا: الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خشي فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم.

وقد روي عن الثوري وجوب الترتيب، ولم يفرق بين القليل والكثير. وهو تحصيل مذهب الشافعي. قال الشافعي: الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر. وقال: لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه.

وروى الدَّارَقُطْني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: « **إذا ذكر أحدكم صلاة وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي** » وعمر بن أبي عمر مجهول.

قلت: وهذا لو صح كان حجة للشافعي في البداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله: أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله والله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب؛ فقال رسول الله ﷺ: « **فوالله إنْ صَلَّيتُها** » فنـــزلنا البطحان فتوضأ رسول الله ﷺ، وتوضأنا فصلى رسول الله ﷺ العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. وهذا نصٌّ في البداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيَّق غير ممتد .

وروى الترمذي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى، فأمر بالأذان بلالاً فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء.

وبهذا استدل العلماء على أن من فاتته صلاة قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها في وقت واحد. واختلفوا إذا ذكر فائتة في مضيَّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال: يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة، وبه قال مالك والليث والزهري وغيرهم كما قدّمناه. الثاني: يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعي وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا. الثالث: يتخير فيقدم أيتهما شاء، وبه قال أشهب.

السادسة: وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به يقول ، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته. والأصل في هذا ما رواه مالك والدارقطني عن ابن عمر قال: « إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصلّ الصلاة التي نسي ثم ليعد صلاته التي صلّى مع الإمام » .

واختلفوا؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يصلي التي ذكر، ثم يصلي التي صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين. وذكر الخِرَقِي عن أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتمها ويقضي المذكورة، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت واسعًا، فإن خشي خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألاّ يعيدها، وقد أجزأته ويقضي التي عليه. وقال مالك: من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين سَلَّم من ركعتين، فإن كان إمامًا انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلّم. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلّم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو انهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى.

السابعة: روى مسلم عن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر حديث الميضأة بطوله، وقال فيه ثم قال: « **أَمَا لكم فيّ أُسوة** » ثم قال: « **أَمَا إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها** » .

فظاهر الكلام يقتضي إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتي؛

ويعضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال في آخرها: « فمن أدرك منكم صلاة الغَداة من غدٍ صالحًا فليقضِ معها مثلها » .

قلت: وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة؛ لما رواه الدارقطني عن عمران ابن حصين قال: سرينا مع رسول الله ﷺ في غَزاة - أو قال في سريّة - فلما كان وقت السحر عرَّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حرُّ الشمس، فجعل الرجل منا يَثِب فَزِعًا دَهِشًا، فلما استيقظ رسول الله ﷺ أمرنا فارتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس، فقضى القوم حوائجهم، ثم أمر بلالاً فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة؛ فقلنا: يا نبي الله ألا نقضيهما لوقتهما من الغد ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : « **أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم** ».

وقال الخطّابي: لا أعلم أحدًا قال بهذا وجوبًا، ويشبه أن يكون الأمر به استحبابًا ليحرز فضيلة الوقت في القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام: « **أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم** » .

هذا ما تيسر على عجالة فيما يختص بمسألة الصلاة ما يتعلق ببعض أمورها والله أعلم.

* * *

ونعـــود إلى تكليم الله موسى عليه السلام؛ فقد أخبره الله عز وجل أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يومَ القيامة، التي لا بد من كونها ووجودها ﴿ **لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَـا تَسْـعَىٰ** ﴾ إن الساعة التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية أكادُ أُخْفيها، لئلا يطلع عليها أحد، ولا أظهر عليها أحدا غيري. فلا تأتيكم إلاَّ بغتة.

ولِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ولتثاب كلّ نفس امتحنها رها بالعبادة في الدنيا بما تسعى، وبما تعمل من خير وشرّ، وطاعة ومعصية.

﴿ **فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا** ﴾ أي فلا يردّنك يا موسى عن التأهُّب للساعة، من لا يؤمن بها، ومن لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا. ﴿ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ واتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهيه فَتَرْدَى وتهلك إن أنت أنصددت عن التأهُّب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد موتها.

ثم يتحدث الله بعد ذلك مع موسى حديثًا شيقًا، حديث الأنس واللطف؛ ليزيل الدهشة عنه، وليطرد الرعب عن نفسه، لأنه موقف صعب، لا يتحمله أي إنسان، تصور أنك تكلم الله تعالى، وتستمع إلى خطاب ملك الملوك، ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ** ﴾ ، موسى كاد يطير قلبه من بين جوانحه، فألقى الله عليه خطاب المؤانسة والملاطفة، حتى لا يستوحش، وحتى لا تسيطر عليه الأوهام، والعرب كانت تعرف ذلك، فهذا الأزدي يقول في قصيدته:

أحادث ضيفي قبل إنـــزال رحله وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ويخصب عندي والمكان جديب ولكنما وجه الكريم خصيب

ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي عصاي؛ لتثبت الحجّة عليه بعدما اعترف، وإلاّ فقد علم الله ما هي في الأزل.

وفي بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن؛ فقيل له: ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك

وأسهب موسى في الإجابة، فلم يقل: هي عصًا وسكت، وإنما لما لذّ له الخطاب زاد في الجواب؛ ليستمر الحوار بينه وبين رب العزة ﴿ **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [طه: ١٨] .

قال ابن عباس: رحم الله موسى، إنما كان يكفيه أن يقول عصًا، ولكن ارتاح لخطاب

ربه فزاد في الكلام. ﴿ **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ** ﴾ .

وفي هذه الآية دليل على أن جواب السؤال قد يكون بأكثر مما سئل؛ لأنه لما قال: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ** ﴾ ذكر معاني أربعة: وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا؛ والتوكؤ؛ والهش، والمآرب المطلقة. فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك.

وفي الحديث سئل النبي ﷺ عن ماء البحر فقال: «**هو الطَّهورُ ماؤه الحلُّ مَيتته**». وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: « **نعم ولك أجر** » . ومثله في الحديث كثير.

❊ ❊ ❊

ذكر بعض منافع العصى

ورد أن من منافع العصا ماروواه ابن عباس، قال: إذا انتهيت إلى رأس بئر فقَصُر الرِّشا وصلته بالعَصَا، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلني، وإذا خفت شيئًا من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم.

وروى عنه ميمون بن مِهْران قال: إمساك العصا سنة للأنبياء، وعلامة للمؤمن. وقال الحسن البصري: فيها ست خصال؛ سنة للأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغمّ المنافقين، وزيادة في الطاعات.

ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوّة إذا أعيا.

ولقى الحَجّاجُ أعرابيًا فقال: من أين أقبلت يا أَعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصايَ أَرْكزها لصَلَاتي، وأعدّها لعِداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني من العَثْر، وألقي عليها كسائي فيقيني الحرّ، ويُدفئني من القرّ، وتدني إليّ ما بعد مني، وهي مَحْمِل سُفْرتي، وعلاقة إداوتي؛ أعصي بها عند الضِّراب، وأقرع بها الأبواب، وأتّقي بها عَقور الكلاب؛ وتنوب عن الرمح في الطِّعان، وعن السيف عند منازلة الأقران؛ ورثتها عن أبي، وأورِّثها بعدي ابني؛ وأهشّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى!!.

وقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام عَنَــزة تُركز له فيصلّي إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحَرْبة فتوضع بين يديه فيصلّي إليها؛ وذلك ثابت في الصحيح.

وفي الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة. وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعَنَــزته؛ وكان عليه الصلاة والسلام يخطب بالقضيب، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب.

قال مالك: كان عطاء بن السائب يمسك المِخصرة يستعين بها. وقال: والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه.

وكان كثير من السلف، - وثلة من الخلف - إذا وقف أحدهم خطيبًا توكأ على سيف أو عصا، فالعصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل.

وقد جمع الله لموسى في عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون.

هذا وقد كنا عند سني الزغب تقرع أذننا بأن: العصا لمن عصى؛ فالحمد لله الذي جعلها في أيدينا منحة و لم يجعلها على أبداننا محنة ولله الفضل والمنة !!.

مرة أخرى مع عصا موسى؛ أو إن شئت فقل: العصا الحية؛ فقد أمر الله كليمه موسى عليه السلام أن يرمي أمامه بتلك العصا ﴿ **قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** ﴾ [طه: ١٩ – ٢٠].

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وأنه الفعال بالاختيار.

فإنه لما أراد الله تعالى أن يُدرِّب موسى عليه السلام على تلقي النبوّة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ **فَأَلْقَاهَا** ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها.

وكانت عصا ذات شُعبتين فصارت الشُّعبتان لها فمًا، وصارت حية تسعى أي تنتقل، وتمشي وتلتقم الحجارة ؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة ف﴿ **وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾ [النمل: ١٠] فقال الله له: ﴿ **خُذْهَا وَلَا تَخَفْ** ﴾ وذلك أنه ﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً** ﴾ [طه: ٦٧] أي لحقه ما يلحق البشر من الخوف.

وروي أن موسى تناولها بكمي جُبَّته فنُهي عن ذلك، فأخذها بيده فصارت عصًا كما كانت أول مرة وهي سيرتها الأولى، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

ويقال: إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله، وتضيء له الشُّعبتان بالليل كالشّمع؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشّعبتان كالدلو، وإذا اشتهى ثمرة ركزها في الأرض فأثمرت تلك الثمرة. وقيل: إنها كانت من آس الجنة. وقيل: أتاه جبريل بها.

وقيل: مَلَك. وقيل قال له شعيب: خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيده تلك العصا، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة. والله أعلم.

وعند أهل الكتاب: أنه سأل برهانًا صادقًا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عزّ وجلّ: ما هذه التي في يدك؟ قال: عصاي، قال: ألقها إلى الأرض ﴿ **فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** ﴾ فهرب موسى من قُدامها، فأمره الرب عزّ وجلّ أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده.

وقال الله تعالى في الآية الأُخرى: ﴿ **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾ [النمل: ١٠] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك، هي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرْب من الحيات يقال له الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جدًا، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة.

فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ **وَلَّىٰ مُدْبِرًا** ﴾ أي هاربًا منها، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿ **وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾ أي و لم يتفلت، فناداه ربه قائلاً له: ﴿ **يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ** ﴾ [القصص: ٣١] .

فلما رجع أمَره الله تعالى أن يمسكها ﴿ **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ** ﴾ [طه: ٢١] فيقال إنه هابَها شديدًا، فوضع يده في كُم مدْرَعته، ثم وضع يده في وسط فمها. وعند أهل الكتاب: أمسكَ بذنبها، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم، رب المشرقين والمغربين .

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنـــزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضًا من غير سوء، أي من غير برص ولا بَهق، ولهذا قال: ﴿ **ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ** ﴾ [القصص: ٣٢] قيل معناه: إذا خفْت فضع يدك على فؤادك يَسْكن جأشك. وهذا وإن كان خاصًا به، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

فإن الله أمر أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية.

وعن مجاهد وغيره عن ابن عباس؛ قال: ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب.

ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن كاتبًا كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض. فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي.

وقيل: المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما في صدرك من الخوف. وكان موسى يرتعد خوفًا إما من آل فرعون وإما من الثعبان. فضم جناحه ليسكن.

وقال في سورة النمل: ﴿ **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** ﴾ ؛ فقيل أن التسع آيات أي آيتين من تسع آياتٍ. والآيات هي: « أَلْقِ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات.

وقال القشيري معناه: كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم. أي خرجت عاشر عشرة. ف « في » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذ لي عشرًا من الإبل فيها فحلان أي منها.

وقيل: في بمعنى مع؛ فالآيات عشرة منها: اليد، والفلق والعصا والجراد والقُمَّل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطَّمْس.

﴿ **فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** ﴾

﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٠١ – ١٠٢] .

عن محمد بن كعب القرظي، قال: سألني عمر بن عبد العزيز، عن قوله: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيات بَيِّنات فقلت له: هي الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، وعصاه، والطمسةً، والحجر، فقال: وما الطمسة؟ فقلت: دعا موسى وأمَّن هارون، فقال: قد أجيبت دعوتكما، وقال عمر: كيف يكون الفقه إلا هكذا.

فدعا عمر بن عبد العزيز بخريطة كانت لعبد العزيز بن مروان أصيبت بمصر، فإذا فيها الجوزة والبيضة والعدسة ما تنكر، مسخت حجارة كانت من أموال فرعون أصيبت بمصر..

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟**

بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَآ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

[الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣] .

وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات؛ فإن التسع من كلمات الله القدرية، والعشر من كلماته الشَّرعية، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه.

وروى الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسّال المراديّ: أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله؛ فقال: لا تقل له نبيّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبيّ ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى لا سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف – شك شعبة – وعليكم (يا معشر اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت** » فقبلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبيّ. قال: « فما يمنعكما أن تسلما » قالا: إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وقد مضى في البقرة. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع: العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصَّلات. وقال الحسن والشعبيّ: الخمس المذكورة في « الأعراف » ؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. وروي نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون.

وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في « الأعراف » والبحر والعصا والحجر والطمس

على أموالهم.

وقوله تعالى ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ أي سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ.

فقال له فِرْعَون إنّي لأظنّك يا مُوسى مَسْحُورًا أي ساحرًا بغرائب أفعالك؛ كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي شائم ويامن. وقيل مخدوعًا. وقيل مغلوبًا. وقيل غير هذا.

وعن ابن عباس أنه قرأ « فسأل بني إسرائيل » على الخبر؛ أي سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون ۞ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون ۞ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

[القصص: ٣٣ - ٣٥].

أمر الله عز وجل عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام، بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فرارًا من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون ۞ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون ﴾ [القصص: ٣٣ - ٣٤] ؛ فقال موسى: ربِّ إني قتلت من قوم فرعون نفسا، فأخاف إن أتيتهم فلم أبن عن نفسي بحجة أن يقتلون، لأن في لساني عقدة، ولا أبين معها ما أريد من الكلام وأخي هارون هو أفصح مني لسانا، وأحسن بيانا عما يريد أن يبينه فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رَدْءا وعونا يصدّقني ويبين لهم عني ما أخاطبهم به؛ فإنه يفهم ما لا يفهمون.

وقيل: إنما سأل موسى ربه يؤيده بأخيه، لأن الاثنين إذا اجتمعا على الخبر، كانت النفس إلى تصديقهما، أسكن منها إلى تصديق خبر الواحد؛ فاجعله معي معينًا وردْءًا ووزيرًا يساعدني، ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لسانًا وأبلغ بيانًا.

قال الله تعالى مجيبًا له إلى سؤاله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾؛ أي نقوّيك ونُعينك بأخيك. تقول العرب إذا أعزّ رجل رجلاً، وأعانه ومنعه ممن أراده بظلم: قد شَدّ فلان على عَضُد فلان، وهو من عاضده على أمره: إذا أعانه.

ثم زاده الله بأن جعل لهما سُلْطانا وحجة؛ فَلا يَصلُونَ إلَيهما ولا يصل إليهما فرعون وقومه بسوء. ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فأنتما ومن اتبعكما غالبون فرعون وملأه بآياتنا أي بحجتنا وسلطاننا الذي نجعله لكما.

﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ فلا ينالون منكما مكروهًا بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل ببركة آياتنا.

وقال في سورة طه: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ [طه: ٢٤ – ٢٨].

قيل إنه أصابه في لسانه لثْغة، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه. فهمَّ بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها. فسأل زوالَ بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية.

ولهذا قال فرعون، قبحه الله، فيما زعم أنه يعيب به الكَليم: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده.

وقد تكرر طلب موسى ربه أن يجعل من هارو وزيرا ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٩ -٣٦].

فأجابه الله إلى جميع ما سأله، وأعطاه الذي طلب.

وهذا من وجاهته عند ربه عزّ وجلّ، حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه. وهذا جاه عظيم، قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] .

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأُناس وهم سائرون في طريق الحج: أيّ أخٍ أمَن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هَوْدجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠ – ١٩].

تقدير الكلام: فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أُرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسَطوته، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه.

وقيل: معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين. ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفًا.

* * *

المناظر الكبرى بين كليم الله وعدو الله

انطلق موسى وهارون إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البوّاب على فرعون فقال: هاهنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين.

فقال فرعون: ايذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلا عليه وأديا الرسالة.

وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعًا من أسد ونمور وفهودٍ يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟

قالا: ﴿ **إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛

فـــ ﴿ **قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا** ﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيرًا ولم نقتلك من جملة من قتلنا ﴿ **وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ** ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقوله: ﴿ **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ** ﴾ والفَعْلة بفتح الفاء المرة من الفعل. وقرأ الشعبي: « فِعلتك » بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك.

فتكبَّر فرعون في نفسه وعتا وطغَى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص .

وهذا يدل على أن فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرَّ منه، خلافًا لما عند أهل الكتاب: من أن فرعون الذي فرَّ منه مات في مدة مقامه بمدْيَن، وأن الذي بُعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿ **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾[الشعراء: ١٩] أي وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا وجحدت نعمتنا.

﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ [الشعراء: ٢٠] ؛ أي قبل أن يوحَى إلي وينـــزل علي، ﴿ **فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾

[الشعراء: ٢١] .

ثم قال مجيبًا لفرعون عما امتَّن به من التربية والإحسان إليه: ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ**

أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٢٢] وهذه النعمة التي ذكرت؛ من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجَّة والمناظَرة، وما أقامه الكلَيم على فرعون اللئيم؛ من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية.

وذلك أن فرعون – قبحه الله – أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى، وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣ – ٢٤] ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤] . ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثم ربٌّ أرسَله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٢٣] لأنهما قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] .

فكأنه يقول لهما: ومن رب العالمين؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟.

فأَجابه موسى قائلاً: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] .

يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهَدة، وما بينهما من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحْدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطبًا له ولهم: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم، من الآباء والأَجداد، والقرون السالفة في الآباد؛ فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمه، ولا يحدث من غير محدث، وإنما أوجدَه وخلقه ربُّ العالمين. وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ

أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

وهنا نقف وقفة مع المناظرة التي قامت بين موسى عليه السلام، وبين فرعون عليه لعائن الله.

فإنه لما غلب موسى فرعون بالحجة؛ رجع فرعون إلى الاستفهام؛ فأتى موسى بالصفات الدالّة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبيِّن للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها.

فقال فرعون: ﴿ **أَلَا تَسْتَمِعُونَ** ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغيِّر، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوِّن.

فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿ **إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** ﴾ أي ليس يجيبني عما أسأل؛ فأجاب موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿ **رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ** ﴾ أن ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلدًا واحدًا لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب؛ ﴿ **وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ .

وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما انقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلهًا غيره. وفي توعده بالسجن ضعف.

وكان فيما يروى أنه يفزع منه فزعًا شديدًا حتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل. وكان إذا سجن أحدًا لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مَخُوفًا.

ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعُّد فرعون

﴿ قَالَ ﴾ له على جهة اللطف به والطمع في إيمانه : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ فيتضح لك به صدقي، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ .

ولم يحتج الشرط إلى جواب؛ لأن ما تقدّم يكفي منه.

هذا وقد جاء موسى فرعون بجميع مالديه من دلائل الربوبية والألوهية الخالصة لرب العالمين؛ فكذب وعصى، وكان من الكافرين؛ وأحال القضية بكاملها إلى السحر؛ فما كان من موسى إلا أن قبل التحدي معتصمًا بالله واثقًا بنصره.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ .

❊ ❊ ❊

يوم الزينة

ضرب موسى الموعد الذي كان يوم الزينة، واختلف في يوم الزينة، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزيَّنون ويجتمعون فيه؛.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم عاشوراء.

وقال سعيد بن المسيّب: يوم سوق كان لهم يتزيَّنون فيها.

وقال الضحاك: يوم السبت.

وقيل: يوم النيروز؛ ذكره الثعلبي.

وقيل: يومٌ يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنــــزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبل النيل.

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسُّلَمي وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزِّينَةِ » بالنصب. ورويت عن أبي عمرو؛ أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا.

وحدد الساعة أيضًا إمعانًا في التحدي ﴿ **وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى** ﴾ أي في ضحوة النهار بعد طلوع الشمس .

﴿ **فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ** ﴾ فرجع فرعون إلى قصره ليجمع السحرة.

قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا، مع كل ساحر منهم حبال وعصيّ.

وقيل: كانوا أربعمائة. وقيل: كانوا اثني عشر ألفًا. وقيل: أربعة عشر ألفًا. وقال ابن المنكدر: كانوا ثمانين ألفًا.

وقيل: كانوا مجتمعين على رئيس يقال له شمعون.

وقيل: كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيبًا، مع كل نقيب عشرون عريفًا، مع كل عريف ألف ساحر.

وقيل: كانوا ثلاثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلاثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمائة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمائة ألف، وكان رئيسهم أعمى.

وهنا قام موسى في سحرة فرعون ناصحًا مبلغًا عن رب العالمين ﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ**

﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ ؛ فلا تختلقوا على الله الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات التي يهبها الله لمن شاء من عباده إنها سحر. **﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾** من عنده أي يستأصلكم بالإهلاك. أي خسر وهلك، **﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾** وخاب من الرحمة والثواب من ادعى على الله ما لم يأذن به.

﴿ فَتَنَازَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴾ .

تشاور السحرة قبل أن يبدأ التحدي بينهم وبين موسى وهارون؛ خاصة وأن فرعون ينتظر منهم الغلبة؛ فقد توعدهم، وأوعدهم.

فقالوا : إن غرضهما - أي غرض موسى وهارون - إفساد دينكم الذي أنتم عليه؛ فأتوا بحيلكم وسحركم الذي تعلمتموه من قبل؛ فاليوم هو الفصل عند فرعون والناس، وسيفلح الغالب، ولاشك.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۞ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلأَعْلَىٰ ۞وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۞ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۞ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ٱلسِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ .

اجتمع الناس وبدأ التحدي، وبادر السحرة موسى بتخييره بالبدء هو أم هم؛ فطلب منهم موسى أن يبدأوا هم؛قالوا يا موسى، **﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾** فألقوا عصيهم؛ فخيل للناس أن تسير وتسعى، وذلك أنهم لطخوا العصيّ بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزّت. قال الكلبي: خُيّل إلى موسى أن الأرض حيّات وأنها تسعى على بطنها. وقرئ « تَخيَّلُ » بمعنى تتخيل. وقرئ « نُخيّل » بالنون على أن الله هو المخيِّل للمحنة والابتلاء. وقيل: الفاعل « أَنَّهَا تَسْعَى » ف« أنّ » في موضع رفع؛ أي يخيّل إليه سعيها؛ قاله الزجاج.

وقيل: أن أوّل ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد.

وقيل: أن السحرة ألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا ﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ** ﴾ .

وقيل: أحسّ. أي من الحيات وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم.

وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه.

وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا فالتفت فإذا جبريل على يمينه فقال له يا موسى تَرفَّق بأولياء الله.

فقال موسى: يا جبريل هؤلاء سحرة جاؤوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردّوا دين الله، تقول: تَرفَّق بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة.

فلما قال له ذلك، أُوجس في نفس موسى، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْم الله فيّ، فلعلّي أكون الآن في حالة، وعِلْم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء. فلمّا علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه ﴿ **لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة؛ للنبوّة والاصطفاء الذي آتاك الله به. وأصل « خِيفة » خِوْفة فَانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء.

وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

وهنا أمر الله موسى بأن يبدأ في البيان العملي للمعجزة الربانية على يد موسى: ﴿ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟** ﴾ أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العُوَيد الصغير الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يتلقّفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها. وجائز أن يكون تعظيمًا لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئًا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنــزره عندها؛ فألقه يتلقّفها بإذن الله ويمحقها؛ فتأخذ وتبتلع.

واللقْف الأخذ بسرعة. يقال: لَقفتُ الشيء (بالكسر) ألقَفه لَقْفًا، وتلقّفته أيضًا أي تناولته بسرعة.

فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان مبين فاغر به فاه، فابتلع حبالهم وعصيهم، ﴿ **فَأُلْقِي السَّحَرَةُ سُجَّدا** ﴾ عند ذلك، لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا؛ فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصيّ؛ وكانت حمل ثلاثمائة بعير ثم عادت عصًا لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصيّ إلا الله تعالى.

وقيل لما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزرًا إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصًا ولا حبلاً إلا ابتعلته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عز وجل، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله، ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون

قيل: فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما، فعند ذلك قالوا﴿ **لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءنا مِنَ البيِّنات** ﴾ .

﴿ **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ آمَنَّا برَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ۞ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ** ﴾.

هنا آمن السحرة؛ ففجع فرعون،وتحجج بكبيرهم ﴿ **إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ** ﴾ . أي رئيسكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم. وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته.

وأخذ فرعون في التخبط؛ فقال: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا** ﴾ أي جرت بينكم وبينه مُواطأة في هذا لتستولوا على مصر، وكان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾ تهديد لهم.

﴿ **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ** ﴾.

قال ابن عباس: كان فرعون أوّلَ من صَلبَ، وقَطَع الأيدي والأرجل من خلافٍ، الرجل اليُمنَىٰ واليد اليسرىٰ، واليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ .

﴿ **قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا**

تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَآ * إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعَّدهم به: لَنْ نُؤْثِرَكَ فنتبعك ونكذّب من أجلك موسى عَلى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ يعني من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى. وعلى الذي فطرنا.

فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ واصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك إنما تَقْضِي هَٰذِهِ الحَياةَ الدُّنيا، وإنما تقدر أن تعذّبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى.

وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل لاَ ضَيْرَ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدلّ على شدّة استبصارهم وقوّة إيمانهم.

قال مالك: دعا موسى عليه السلام فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد؛ فسبحان من بيده قلوب عباده؛ يهدي من يشاء ويضل من يشاء؛ فمن يهدي الله؛ فلامضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وانظر لقوة إيمان السحرة، وصبرهم على عذاب فرعون حين قالوا: ﴿ **إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا** ﴾ وإنا أقررنا بتوحيده، وصدقنا بوعده ووعيده. وأن ما جاء به موسى حقّ لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وليعفو لنا عن ذنوبنا فيسترها علينا ﴿ **وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِن السِّحْرِ** ﴾ وتعلمنا ما تعلمناه منه، وعملنا به الذي أكرهتنا على تعلُّمه والعمل به. وذُكر أن فرعون كان أخذهم بتعليم السحر.

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِه مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّالِحَاتِ فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون.

(والحمد لله رب العالمين) .

بعد أن غلب موسى فرعونَ، وأسلم السحرة الذي استنصرهم فرعون على موسى وانحازوا إلى معسكر الإيمان؛ انقسم الناس إلى معسكرين، أو فريقين: مؤمن أو كافر.

فالذين آمنوا ازدادوا إيمانًا. والذين كفروا مازدادوا إلا كفرًا وعنادًا، وصدًا عن سبيل الله، واجتمع بطانة فرعون يحثونه على قتل موسى، ومن معه ﴿ **وَقَالَ ٱلْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾.

فقالت جماعة رجال من قوم فرعون لفرعون: أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل ليفسدوا في الأرض، ويفسدوا خدمك وعبيدك عليك في أرضك من مصر، ﴿ **وَيَذَرَكَ وآلِهَتَكَ** ﴾ ويدع موسى خدمتك ، وعبادتك وعبادة آلهتك.

هذا وقد ورد عن ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها. فأجابهم فرعون فيما سألوا بقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرًا من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضًا إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل .

فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسله الله إليهم بالحقّ من عنده، وذلك مجيئه إياهم بتوحيد الله، والعمل بطاعته، مع إقامة الحجة عليهم، بأن الله ابتعثه إليهم بالدعاء إلى ذلك ﴿ **قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ مَعَهُ** ﴾ من بني إسرائيل وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ واستبقوهن للخدمة.

فكان رد فرعون ردًا عاجزًا، وإن بدا قاهرًا؛ فحيلة العاجز يده، وحيلة المؤمن عقله كل بحسب؛ ﴿ **قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ** ﴾ فسنقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل. وَنَسْتَحِيي نساءَهُمْ ونستبقي إناثهم.

﴿ **وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ** ﴾ وعالون عليهم بالقهر، يعني بقهر الملك والسلطان.

و لم يدر فرعون أنه يسعى بقدمه إلى إهلاك نفسه وأتباعه، ورغم أن الله قد أقام الحجة عليه بموسى إلا أن الله أراد أن يرسل له ناصحًا، ومذكرًا قبل أن يقضي عليه؛ هذا الناصح هو: ابن عمه – على أصح الأقوال – ، وهو فيما عرف بمؤمن آل فرعون.

وقبل: أن نبرح المكان يجدر بنا أن نقف على معنى السحر وحكمه في الإسلام:

السحر، وكيفية تعلمه، وحكمه في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام؟

اختلف أهل العلم في معنى السحر، فقال بعضهم: هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر، حتى يخيل إلى المسحور الشيء أنه بخلاف ما هو به نظير الذي يرى السراب من بعيد، فيخيل إليه أنه ماء، ويرى الشيء من بعيد فيثبته بخلاف ما هو على حقيقته. وكراكب السفينة السائرة سيرا حثيثا يخيل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائر معه.

قالوا: فكذلك المسحور ذلك صفته، يحسب بعد الذي وصل إليه من سحر الساحر أن الذي يراه أو يفعله بخلاف الذي هو به على حقيقته.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبيّ ﷺ لما سُحِرَ كان يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشيء و لم يفعله.

وعنها رضي الله عنها، قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زُرَيْق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله.

وكان عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب يحدثان: أن يهود بني زريق عقدوا عُقَدَ سحر لرسول الله ﷺ، فجعلوها في بئر حزم حتى كان رسول الله ﷺ ينكر بصره ودله الله على ما صنعوا. فأرسل رسول الله ﷺ إلى بئر حزم التي فيها العقد فانتزعها، فكان رسول الله ﷺ يقول: « **سَحَرَتْنِي يَهُودُ بَنِي زُرَيْقٍ** » .

وأنكر قائل هذه المقالة أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شيء عن حقيقته، واستسخار شيء من خلق الله إلا نظير الذي يقدر عليه من ذلك سائر بني آدم، أو إنشاء شيء من الأجسام سوى المخاريق والخدع المتخيلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها التي وصفنا.

وقالوا: لو كان في وُسْع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لحقائق الأعيان عما هي به من الهيئات، لم يكن بين الحقّ والباطل فَصْل، ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة فقلبت أعيانها.

قالوا: وفي وصف الله جل وعزّ سحرة فرعون بقوله: ﴿ **فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ**

إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .

وفي خبر عائشة عن رسول الله ﷺ أنه كان إذ سحر يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، أوضح الدلالة على بطول دعوى المدعين: أن الساحر ينشيء أعيان الأشياء بسحره، ويستسخر ما يتعذّر استسخاره على غيره من بني آدم. كالموات والجماد والحيوان.

وقال آخرون: قد يقدر الساحر بسحره أن يحوّل الإنسان حمارا، وأن يسحر الإنسان والحمار وينشيء أعيانا وأجساما. واعتلّوا في ذلك بما يلي:

عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها قالت: قدمت عليَّ امرأةٌ من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حَدَاثة ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر و لم تعمل به. قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها، كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوج فغاب عني، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، فإذا برجلين معلقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر؟ فقالا: إما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي، فأبيت وقلت: لا، فقالا: اذهبي إلى ذلك التّنور فبُولي فيه فذهبت ففزعت فلم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ قلت: نعم، فقالا: فهل رأيت شيئا؟ قلت: لم أر شيئا، فقالا لي: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت، فاقشعررت وخفت. ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئا، فقالا: كذبت لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارسا متقنعا بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت، فقالا: ما رأيت؟ فقلت: فارسا متقنعا خرج مني فذهب في السماء حتى ما أراه، فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك اذهبي فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئا وما قالا لي شيئا، فقالت: بلى، لن تريدي شيئا إلا كان، خذي هذا القمح فابذري فبذرت، فقلت: أطلعي فأطلعت، وقلت: أحقلي فأحقلت، ثم قلت: أفركي فأفركت، ثم قلت: أيبسي فأيبست، ثم قلت: أطحني فأطحنت، ثم قلت: أخبزي فأخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئا إلا كان سقط في يدي وندمت والله يا أمّ المؤمنين، والله ما فعلت

شيئا قط ولا أفعله أبدا.

قالوا: لولا أن الساحر يقدر على فعل ما ادّعى أنه يقدر على فعله ما قدر أن يفرّق بين المرء وزوجه .

وقالوا: قد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يتعلمون من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه، وذلك لو كان على غير الحقيقة وكان على وجه التخييل والحسبان، لم يكن تفريقا على صحة، وقد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يفرّقون على صحة. وقال آخرون: بل السحر أخذ بالعين.

وقالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿**وما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ**﴾ .

وتأويل ذلك: وما يعلم الملكان أحدا من الناس الذي أنــزل عليهما من التفريق بين المرء وزوجه حتى يقولا له: إنما نحن بلاء وفتنة لبني آدم فلا تكفر بربك. كما قال: إذا أتاهما يعني هاروت وماروت إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له: لا تكفر إنما نحن فتنة. فإن أبى قالا له: ائت هذا الرماد فبُلْ عليه.

فإذا بال عليه خرج منه نور يسطع حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان وقيل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء منه، فلذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر. فذلك قول الله: ﴿ **وَما يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ** ﴾ الآية.

وأقول كما قال أهل العلم: لا يجترىء على السحر إلا كافر. نسأل الله العافية.

فإن قال قائل: وكيف يفرّق الساحر بين المرء وزوجه؟

قيل: قد دللنا فيما مضى على أن معنى السحر تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته. فإن كان ذلك صحيحا بالذي استشهدنا عليه، فتفريقه بين المرء وزوجه تخييله بسحره إلى كل واحد منهما شخصَ الآخر على خلاف ما هو به في حقيقته من حُسْن وجمال حتى يقبحه عنده فينصرف بوجهه ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لامرأته فراقا، فيكون الساحر مفرقا بينهما بإحداثه السبب الذين كان منه فرقة ما بينهما. وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا على أن العرب تضيف الشيء إلى مسببه من أجل تسببه وإن لم يكن باشر فعل ما حدث عن السبب، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه.

فيُؤَخِّذ كل واحد منهما عن صاحبه، ويبغِّض كلّ واحد منهما إلى صاحبه.

وبقي أن نعلم أن هذا كله بقدر الله وعلمه ﴿ **وَمَا هُمْ بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أحَدٍ إلاَّ بإذْنِ اللّه** ﴾.

فالذي يفرّقون به بين المرء وزوجه من أحد من الناس، إلاّ من قد قضى الله عليه أن ذلك يضرّه فأما من دفع الله عنه ضرّه وحفظه من مكروه السحر والنفث والرُّقَى، فإن ذلك غير ضارّه ولا نائله أذاه.

نسأل الله العافية من السحر، والسحرة، وأعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة.

لم تنته قصة موسى؛ ولكن السياق يستلزم منا أن نُعرِّج على قصة مؤمن آل فرعون؛ سائلاً ربي العون، والسداد.

❊ ❊ ❊

قصة مؤمن آل فرعون

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

بعد أن استجارموسى بربه، من كلّ متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء وإنما خصّ موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدّقا، لم يكن للثواب على الإحسان راجيا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

جاء دور مؤمن آل فرعون؛ وقد اختلف أهل العلم في هذا كان من قوم فرعون، غير أنه كان قد آمن بموسى، وكان يُسرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه.

ويقال: وهو ابن عمّ فرعون الذي نجا مع موسى، وذكر أن اسم هذا الرجل المؤمن من آل فرعون: جبريل.

وذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب. واختلف هل كان إسرائيليًا أو قبطيًا فقال الحسن وغيره: كان قبطيًا.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: « **الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم** » وفي هذا تسلية للنبي ﷺ أي لا تعجب من مشركي قومك.

وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء.

فحذرهم أنواعًا من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم العذاب الذي يقوله موسى في الدنيا وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب في الآخرة أيضًا. وقيل: وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا.

وتعجب هذا الرجل المؤمن من فعل فرعون وقومه؛ فسألهم سؤال استنكار: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ؟؛ تلك الكلمة قالها الصديق رضي الله عنه فيما رواه البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال : بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ لفظ البخاري.

وقال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله ﷺ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يتلتله، فاستغاث النبي ﷺ يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا ويقول بأعلى صوته: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ والله إنه لرسول الله؛ فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذ.

﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي ٱلأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

قال مؤمن آل فرعون؛ لفرعون وملئه: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ في أرض مصر، ولكم السلطان على بني إسرائيل فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ ويدفع عنا بأس الله وسطوته إن حلّ بنا، وعقوبته إن جاءتنا،فلا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

فقال فرعون لقومه رادًا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ وما رأيكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحا وصوابا، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد وما أدعوكم إلا إلى طريق الحقّ والصواب في أمر موسى وقتله، فإنكم إن لم تقتلوه بدّل دينكم، وأظهر في أرضكم الفساد.

وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من لرسالة ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنـزَلَ هَٰؤُلاء إِلاَّ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ وقال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ فقوله: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿ وَمَا

أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضًا في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد** ﴾ وقال جلت عظمته: ﴿ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ** ﴾ ، وفي الحديث « **ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام** » .

فرد مؤمن آل فرعون ﴿ **يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ** ﴾ ، وفي قوله: « يَا قَوْمِ » دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: « يَا قَوْمِ » ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه لَكُمُ ٱلْمُلْكُ فاشكروا الله على ذلك. وأنتم ﴿ **ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ وغالبين إن أنتم آمنتم.

والمراد بالأرض أرض مصر؛ كقوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ [يوسف: ٥٦] أي في أرض مصر.

وحذرهم من عقاب الله لهم في حال تمسكهم بالكفر، والعناد والصد عن دين الله الذي جاء به موسى ﴿ **فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا** ﴾ أي من عذاب الله تحذيرًا لهم من نقمه إن كان موسى صادقًا، فذكر وحذر فعلم فرعون ظهور حجته فقال : ﴿ **مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ** ﴾ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿ **وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي.

فزادهم مؤمن آل فرعون في الوعظ ﴿ **إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ** ﴾ يعني أيام العذاب التي عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

﴿ **وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ** ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلمًا موطنًا نفسه على القتل، أو واثقًا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ﴿ **فَوَقَٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ** ﴾ . و « التناد » بتخفيف الدال وهو يوم القيامة .

❊ ❊ ❊

فائدة في معنى (التناد)

سمي يوم القيامة بيوم التناد: لأنه يوم مناداة الناس بعضهم بعضًا؛ فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿ **أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا** ﴾ ، وتنادي الملائكة أصحاب الجنة ﴿ **تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُ** ﴾ ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿ **أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ** ﴾، وينادي المنادي أيضًا بالشقوة والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا. وهذا عند وزن الأعمال. - نسأل الله سعادة الدنيا والآخرة -.

وينادي حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت. وينادي كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء.

فيستجيب الناس على أحوال فمنهم من يستجيب بأعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح - نسأل الله العافية -.

فيرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق في الطين.

وقيل: إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع.

وقد روى والطبري وغيره من حديث أبي هريرة، وفيه: « فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضًا وهي التي يقول الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ ٱلتَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ » .

ونعود إلى مؤمن آل فرعون فلما لم يجد لما حذر به فرعون وقومه تنــزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿ **وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ** ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه

فلا تؤذوه فإن يك كاذبًا فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يكن صادقًا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ ٱلسَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ .

قال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به وزجره عن قتل موسى نبيّ الله وحذره من بأس الله عليه؛ قال فرعون لوزيره، وزير السوء هامان: يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ يعني بناءً عاليًا.

لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ اختلف أهل التأويل في معنى الأسباب في هذا الموضع، فقال بعضهم: أسباب السموات: أي طُرُق السموات. وقيل أي أبواب السموات.

وقيل هو كلّ ما تُسَبِّبَ به إلى الوصول إلى ما يطلب من حبل وسلم وطريق وغير ذلك.

وأخذ يخاطب حاشيته فيقول لهم إني سأرقى في السماء لانظر كيف كذب علينا موسى — بزعمه – وإني لأظنّ موسى كاذبا فيما يقول ويدّعي من أن له في السماء ربا أرسله إلينا **﴿ فأطَّلِعَ إلى إلَهِ مُوسَى وَإني لأَظُنُّهُ كاذبا ﴾** .

هذا وقد روى الطبري بسنده؛ عن ابن عباس رضي الله عنه: هو أوّل -أي فرعون- من صنع الآجرّ وبنى به. ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال - قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء - وأمر بطبخ الآجرّ والجص، ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوا بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه.

حكى السدّي: أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشَّابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى. فروي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة في البحر، وقطعة في الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئًا. والله أعلم بصحة ذلك.

وهكذا زين الله لفرعون حين عتا عليه وتمردّ، قبيح عمله، حتى سوّلت له نفسه بلوغ أسباب السموات، ليطلع إلى إله موسى.

وَصُدَّ فرعون عن سبيل الله التي ابتُعث بها موسى استكبارًا وعلوًا.

﴿ **وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاَّ في تَباب** ﴾ وما احتيال فرعون الذي يحتال للاطلاع إلى إله موسى، إلا في خسار وذهاب مال وغبن، لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرح باطلاً، و لم ينل بما أنفق شيئا مما أراده، فذلك هو الخسار والتباب.

فلما وجد موسى من فرعون العناد والاستكبار؛ أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّواْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّى ءاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ** ﴾ .

وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش : أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسوه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته قال الله عز وجل: ﴿ **قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ أي أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحًا مبينًا، فـــ ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾ فإن كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون لكان أمره بينًا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

وكرر ذلك المؤمن نصحه وتذكيره ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِيٓ آمَنَ يٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * يٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ** ﴾ .

فإن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بيَّنت لكم طريق الصواب الذي تَرشدُون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى. يقول: إِنَّمَا هَٰذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيا مَتاعٌ يقول لقومه: ما هذه الحياة الدنيا العاجلة التي عجلت لكم في هذه الدار إلا متاع تستمتعون بها إلى أجل أنتم بالغوه، ثم تموتون وتزول عنكم وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ يقول: وإن الدار الآخرة، وهي دار القرار التي تستقرّون فيها فلا تموتون ولا تزول عنكم، فلها

فاعملوا، وإياها فاطلبوا. ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرار﴾ أي استقرّت الجنة بأهلها، واستقرّت النار بأهلها.

فإن من يتمتع بالدنيا فقد تمتع بها قليلاً ثم تنقطع وتزول. ﴿ وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ الاستقرار والخلود. ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان. بيّن ذلك بقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ يعني الشرك ﴿ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ وهو العذاب. ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾؛ قال ابن عباس: يعني لا إله إلاَّ الله. ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء. ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَاةِ ﴾ أي إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ وهو يعني ما قاله فرعون حين قال: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فهو سبيل الغيّ عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه؛ ولهذا قال: ﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهو فرعون ﴿ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ ﴾ .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي إنه لأمر حق . ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ ﴾ ومَا بمعنى الذي أي الذي تدعونني إليه ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ وليس له استجابة عند الله؛ وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَلاَ فِي ٱلآخِرَةِ ﴾ .

وقال الكلبي: ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة. وكان فرعون أوّلاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبَد ما كانت شابة، فإذا هَرِمت أمر بذبحها، ثم دعا بأخرى لتعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى.

﴿ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ ﴾ ويعني بالمسرفين: المشركون.

وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقّها.

وقال عكرمة: الجبارون والمتكبّرون.

وقيل: هم الذين تعدوا حدود الله.

ثم هددهم وتوعدهم؛ فقال: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ إذا حلّ بكم العذاب. ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي أتوكل عليه وأسلم أمري إليه. فإنه الكافي مَنْ تَوكَّل عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بالعِباد ﴾ فالله عالم بأمور عباده، ومن المطيع منهم، والعاصي له، والمستحق جميل الثواب، والمستوجب سَيِّيء العقاب.

فدفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه من العذاب والبلاء، فنجاه منه ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** ﴾ .

ثم حل بآل فرعون ووجب عليهم هم وكل من تبعهم وأهل طاعة فرعون أشد العذاب، ﴿ **وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾ وهو ما ساءهم من عذاب الله، ونار جهنم.

﴿ **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** ﴾ .

فبين تعالى ذكره؛ سوء العذاب الذي حلّ بهؤلاء الأشقياء من قوم فرعون وحاق بهم من سوء عذاب الله ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا** ﴾ .

فإنهم لّما هلكوا وغرّقهم الله، جُعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كلّ يوم مرتين غُدُوّا وَعَشِيًّا إلى أن تقوم الساعة.

فعن السديّ، قال: بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار غدوّا وعشيًّا، حتى تقوم الساعة.

وعن حماد بن محمد الفزاري البلخي، قال: سمعت الأوزاعيّ وسأله رجل فقال: رحمك الله، رأينا طيورا تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشيّ رجع مثلُها سُوْدا، قال: وفَطَنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون يعرضون على النار غدوّا وعشيًّا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها، وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رياش بيض، وتتناثر السود، ثم تغدو، ويُعرضون على النار غدوّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دَأْبُها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة، قال الله: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ قالوا: وكانوا يقولون: إنهم ستّمائة ألف مقاتل. والله أعلم .

وليس في الآخرة ليل ولا نصف نهار، وإنما هو بُكْرة وعشيّ، وذلك في القرآن في آل فرعون ﴿ **يُعْرَضُونَ عَلَيْها غَدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾ وكذلك قال لأهل الجنة لَهمْ رِزْقُهُمْ فيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

وقيل: عني بذلك: أنهم يعرضون على منازلهم في النار تعذيبا لهم غدوّا وعشيًّا.

فعن قتادة ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّا وَعَشِيًّا﴾ قال: يُعرضون عليها صباحا ومساء، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصغارا لهم.

وهذا ما كانت الدنيا، وبقيت إلى يوم القيامة.

فإذا قامت ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ - نسأل الله العافية-.

وعن ميمون بن مهران؛ أنه قال: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمد لله وعُرِضَ آلُ فرعون على النار. فإذا أمسى نادى: أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوّذ بالله من النار.

وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشيّ** » ؛ ثم تلا ﴿ **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾ ، « **وإن المؤمن إذا مات عُرِض روحه على الجنة بالغَدَاة والعشي** » .

وخرّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « **إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة** » - .

اللهم نسألك مقاعد الجنة ومجاورة نبيك محمد ﷺ؛ بغير سابقة حساب ولا سؤال.

روى ابن مسعود عن النبي ﷺ « **إن العبد يولد مؤمنًا ويحيًا مؤمنًا ويموت مؤمنًا منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمنًا وحيي مؤمنًا ومات مؤمنًا وإن العبد يولد كافرًا ويحيا كافرًا ويموت كافرًا منهم فرعون ولد كافرًا وحيي كافرًا ومات كافرًا** » ذكره النحاس.

فالحمد لله الذي جعلنا من أصلاب أهل الإسلام،وأبناء أرحامهم، وإلى تتمة قصة النبي موسى كليم الله، والله المستعان.



تتمة قصة موسى عليه السلام

بعد أن ذكرنا قصة النصيحة الأخيرة لفرعون وأتباعه ، والتي قام بها مؤمن آل فرعون؛ نشرع هنا في ذكر نهاية فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، وهي التي كانت ولابد من حصولها؛ نصرًا لأولياء الله، وخذلانًا لأعداءه.

فقد بدأت نذر العذاب الدنيوي تظهر في الأفق وتدنوا من فرعون وقومه؛ نقص في الثمرات، قحط، طوفان، آيات وجنود ربانية؛ وما ذاك إلا يسير من عذاب الآخرة، وكانت تذكيرًا لفرعون وقومه لعلهم....!!

﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾.

فاختبر الله فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة بالسنين، والقحط. وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمرات ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ عظة لهم وتذكيرا لهم، لينـــزجروا عن ضلالتهم ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

وعن قتادة، أخذهم الله بالسنين والجوع عاما فعاما. وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ فأما السنين فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم، وأما بنقص من الثمرات فكان ذلك في أمصارهم وقراهم.

﴿ **فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلآ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾.

فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم قالُوا لَنا هَذه نحن أولى بها. ﴿ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ** ﴾ من جدب وقُحط وبلاء، ﴿ **يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ** ﴾ ويتشاءموا بهم ويقولوا: ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية، منذ جاءنا موسى، وقالوا: ما أصابنا هذا إلا بك يا موسى وبمن معك، ما رأينا شرّا ولا أصابنا حتى رأيناك. وقد قال مثلها قوم صالح: ﴿ **اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ** ﴾ فقال الله: ﴿ **إِنَّمَا طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** ﴾ .

وهنا في نفس الآية يقول الله جل ذكره ﴿ **ألاَّ أَنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا**

يَعْلَمُونَ ﴾ . أي ألا إن طائر آل فرعون وغيرهم، وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب إلا عند الله. ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك كذلك، فلجهلهم بذلك كانوا يطَّيرون بموسى ومن معه.

❊ ❊ ❊

فائدة في معنى الطيرة والتطير، والنهي عن ذلك

الأصل في الطِّيرة: هو ما كان يفعله العرب من زَجْر الطَّير، فكانوا يتفائلون بالطير السانح وهو الذي يأتي من ناحية اليمين. ويتشاءمون بالبارح؛ وهو الذي يأتي من ناحية الشّمال. ثم كثُرَ استعمالهم حتى قيل لكل من تشاءم: تَطَيَّر. وكانوا يتطيرون أيضًا بصوت الغراب؛ ويتأوّلونه البَيْن. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضًا على أُمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك.

وهكذا الظّباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا بَرَحت: مَنْ لي بالسّانح بعد البارح. إلا أنّ أقوى ما عندهم كان يقع في جميع الطير؛ فسَمَّوْا الجميع تَطَيُّرًا من هذا الوجه.

وتطيّر الأعاجمُ إذا رأُوا صبيًّا يذهب به إلى المُعَلّم بالغداة، ويتيمَّنون برؤية صبيّ يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السَّقاء على ظهره قربة مملوءةٌ مشدودة، ويتيمّنون برؤية فارغ السِّقاء مفتوحة « قربته » ؛ ويتشاءمون بالحَمّال المثقّل بالحِمْل، والدابة المُوقرة، ويتيمنون بالحَمّال الذي وضع حِمله، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلُها.

فجاء الإسلام بالنَّهْي عن التّطيّر والتشاؤم بما يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان، وعلى أيّ حال كان؛ فقال عليه السلام: « **أَقِرُّوا الطير على مَكِناتها** » .

وذلك إن كثيرًا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وَكْرها فنفّرها؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم. فنهى النبيّ ﷺ عن هذا بقوله: « **أَقِرُّوا الطير على مكناتها** » .

والوُكْنة: آسم لكلّ وكْر وعُشّ. والوكن: موضع الطائر الذي يبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخرق في الحيطان والشجر. ويقال: وَكَن الطائر يَكِن وكُونًا إذا حضن بيضه. وكان أيضًا من العرب من لا يرى التطيّر شيئًا، ويمدحون من كذّب به. قال المُرَقّش:

ولقــد غَدَوْتُ وكنــتُ لا أغــدُو عــلى وَاقٍ وحــاتم
فــإذا الأشائِــمُ كالأيــا مِــنِ والأيــامِنُ كالأشائــم

وقال عكرمة: كنت عند آبن عباس فمرّ طائر يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير.

فقال ٱبن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر.

قال علماؤنا: وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتُخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان ﷺ من ذلك، فٱلتحق التطيّر بجملة الباطل. والله أعلم.

ومن الآحاديث الصريحة أيضًا في النهي عن التطير؛ قوله ﷺ: « **ليس منّا من تحلّم أو تكهّن أو ردّه عن سفره تطيّر** » .

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: « **الطِّيَرة شرك – ثلاثًا – وما منا إلاّ – ولكنّ الله يذهبه بالتوكّل** » . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: « **من رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقد أشرك** » . قيل: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: « **أن يقول أحدهم اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلاَّ خَيْرُكَ ولا إلَه غيرُك ثم يمضي لحاجته** » .

وفي خبر آخر: إذا وجد ذلك أحدكم فليقل« **اللّهُمّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك؛ ثم يذهب متوكّلاً على الله؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك، وكفاه الله تعالى ما يُهمّه** » .

ونرجع إلى آل فرعون؛ ﴿ **وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ . أمعن آل فرعون في العناد لموسى فمهما يأتهم من علامة ودلالة ليلفتهم عما هم عليه من دين فرعون، ﴿ **فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي فما نحن لك في ذلك بمصدّقين على أنك محقّ فيما تدعونا إليه.

﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾ .

عن ابن عباس، قال: لما جاء موسى بالآيات، كان أوّل الآيات الطوفان، فأرسل الله عليهم السماء.

أي أن الله أرسل عليهم سيول الماء؛ التي تغرق الحرث والنسل.

وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل

الجراد وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « **أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد والكبد والطحال** » فقال : « **أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه** » وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه.

والقمل تعيث فيهم وتدخل في فراشهم فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم من النوم أو الراحة، والضفادع يجدونه في طعامهم؛ فلا يستطيعون معها طعاما، والدم في شرابهم ؛ فلا يستطيعون معه سقيا.

فعن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئًا خافوا أن يكون عذابًا فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل .

فأنبت لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمار والكلأ فقالوا: هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا لموسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا.

فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل.

فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا .

وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال: إنه قد

سحركم، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا فأتوه وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل .

فأبى عدو الله فرعون إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين وأرسل عليه مرة أخرى الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا حتى جهدوا جوعًا فلما بلغهم ذلك ﴿ **قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل؛ فأمر الله موسى عليه السلام أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرارة، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطًا.

هذا؛ والله سبحانه يمهلهم بحلمه ويتوعدهم بآياته، ولا يعجل عليهم فيقضي عليهم من أولها، ولكن الله عزيز ذو انتقام، أخذه شديد، وبأسه عتيد، وقد قدم الوعيد، ولكن كانوا في ضلال بعيد، فالحمد لله الذي ذل الجبابرة، وأرغم أنوف الفراعنة والقياصرة،فالحمد له في الأولى والآخرة.

❊ ❊ ❊

هلاك فرعون وجنوده وغرقهم

لما تمادى فرعون وقومه في العناد، وصدوا موسى عن الدعوة لدين الله؛ فما آمن به إلاّ ذرية من قوم موسى على خوف من بطش فرعون وعذابه؛ كما قال جل ذكره ﴿ **فَمَآ آمَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ** ﴾ .

فلم يؤمن لموسى مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا ذرية من قومه خائفين من فرعون وملئهم.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى الذرّية في هذا الموضع، فقال بعضهم: الذرية في هذا الموضع: القليل. قاله: ابن عباس .

وقال آخرون: معنى ذلك: فما آمن لموسى إلا ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل لطول الزمان لأن الآباء ماتوا وبقي الأبناء، فقيل لهم ذرّية، لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى عليه السلام.

وقيل: كانت الذرّية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

فإن فرعون كان جبار مستكبر على الله في أرضه. وإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ والمتجاوزين الحقّ إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به وجحوده وحدانية الله وادّعاؤه لنفسه الألوهية وسفكه الدماء بغير حلها.

فجمع موسى عليه السلام كل من آمن به وصدق رسالته، ووعظهم ونصحهم ليثبتهم على الدين الحق، وقال لهم ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۞ فَقَالُواْ عَلَىٰ ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ .

فاشترط عليهم إن كنتم صدّقتم؛ فعليكم بالتوكل على الله، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله. فأجابوا: أسلمنا أُمورنا إليه، ورضينا بقضائه وقدره، وانتهينا إلى أمره. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ فلا تنصرهم علينا، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، ولا

تمتحنّا بأن تعذّبنا على أيديهم. ولا تهلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا: لو كانوا على حق لم نسلَّط عليهم؛ فيُفتنوا. أو يقال: أنهم خير منا فيزدادوا طغيانًا.

فأوحى الله لموسى ﴿ **أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلّون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أُرسل موسى أمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخرّبت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن ٱتخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتًا بمصر، أي مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة. وٱجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل قبلتهم كانت: بيت المقدس، وهي قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر. وقيل الكعبة.

عن ٱبن عباس قال: وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه، وهذا يدلّ على أن القبلة في الصلاة كانت شرعًا لموسى عليه السلام، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة.

وقيل: المراد صلّوا في بيوتكم سرًّا لتأمنوا؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله: ﴿ **قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] الآية.

وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم.

❊ ❊ ❊

صلاة البيوت في شريعة محمد ﷺ

خصت أمة الإسلام بالصلاة في جميع الأرض؛ كما في الصحيح قوله عليه السلام: « **جعلت لي الأرض مسجدًا وطَهورًا** » ، وهذا مما خُصّ به دون الأنبياء؛ فنحن بحمد الله نصلِّي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة؛ إلا أن النافلة في المنازل أفضل منها في المساجد، حتى الركوع قبل الجمعة وبعدها. وقبل الصلوات المفروضات وبعدها؛ إذ النوافل يحصل فيها الرياء، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خلَص العمل من الرياء كان أوزن وأزلف عند الله سبحانه وتعالى.

روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ عن تطوّعه قالت: « **كان يصلّي في بيتي قبل الظهر أربعًا، ثم يخرج فيصلّي بالناس، ثم يدخل فيصلّي ركعتين، وكان يصلّي بالناس المغرب، ثم يدخل فيصلي ركعتين، ثم يصلّي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلي ركعتين...** » الحديث.

وعن ٱبن عمر قال: صلّيت مع النبيّ ﷺ قبل الظهر سجدتين وبعدها سجدتين وبعد المغرب سجدتين؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبيّ ﷺ في بيته.

وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة. أن النبيّ ﷺ أتى مسجد بني الأشهل فصلى فيه المغرب؛ فلما قضْوا صلاتهم رآهم يسبحون بعدها فقال: « **هذه صلاة البيوت** » .

وٱختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان، هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد ؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضل لمن قوِي عليه، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحاب الشافعي. وذهب ٱبن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعي إلى أن حضورها في الجماعة أفضل. وقال الليث: لو قام الناس في بيوتهم و لم يقم أحد في المسجد لا ينبغي أن يخرجوا إليه. والحجة لمالك ومن قال بقوله قولُه ﷺ في حديث زيد بن ثابت: « **فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة** » خرّجه البخاريّ. احتج المخالف بأن النبيّ ﷺ قد صلاّها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدوام على ذلك، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم: « **فعليكم بالصلاة في بيوتكم** » . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزاعًا متفرقين، إلى أن جمعهم عمر على قارىء واحد

فاستقر الأمر على ذلك وثبت سُنّة. والله أعلم.

ونرجع إلى موسى فقد دعا ربه أن يطمس عل أفئدة فرعون وقومه، وأن يذهب بأموالهم؛ فقال عليه السلام فيما أخبر عنه ربه جل وعلا ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمَ** ﴾ .

قيل : أن كان لهم مال من فُسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزّبرجد والزّمرد والياقوت؛ فلإنه لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلّوا، ويَبْطَروا ويتكبروا. فعاقبهم الله — في الدنيا – على كفرهم بإهلاك أموالهم. وطمس عليها؛ وطَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته.

قال ابن عباس: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافًا، و لم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقال محمد بن كعب: وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين؛ قال: وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أُصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة. وقال السدّي: وكانت إحدى الآيات التسع.

ومنعهم الله من الإيمان. بأن جعل قلوبهم قاسية، وطبع عليها حتى لا تنشرح لذكر الله.

وقد ٱستشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا موسى عليهم والرسل تصبر على قومهم .

فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبيّ على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن؛ والدليل قول الله عز وجل لنوح عليه السلام: ﴿ **أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ** ﴾ [هود: ٣٦] وعند ذلك قال: ﴿ **رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا** ﴾ [نوح: ٢٦] . والله أعلم.

فاستجاب الله لموسى وهارون دعواهما فقال: ﴿ **قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم..

وأمرهما اله الله بالاستقامة « فاسْتَقيما » فإنه أمر من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرها من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجابهما فيه.

﴿ وَلا تَتَّبِعانِ سَبِيلَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فلا تسلكان طريق الذين يجهلون حقيقة وعد الله، فتستعجلان قضائه، فإن وعده لا خالف له، وإن وعيده نازل بفرعون وعذابه واقع به وبقومه.

❊ ❊ ❊

الغرق. الغرق. الغرق

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَآءَى ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى: ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛

فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَرًا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسُرَى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان.

قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل.

وأخذ فرعون يهون من شأن موسى ومن معه ووصفهم بالشرذمة؛ والشِّرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشَّراذم. ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا. ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أي نحن ممتلئون غيظًا عليهم .

فأخرجهم الله من أرضهم؛ لمصرعهم ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعني من أرض مصر.

وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشّقتين جميعًا من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع. والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سَخا، وخليج دمياط، وخليج سَرْدُوس، وخليج مَنْف، وخليج الفيوم، وخليج المَنْهَى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلها.

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيّ إِسْرَائِيلَ ﴾ ؛ فجميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل.

قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، وورثوا ذلك كله.

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ .

ولحق فرعون بجمعه، وجمعَ موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القويّ والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فردّ عليهم قولهم وزَجَرهم وذكَّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿ كَلاَّ ﴾ أي لم يدركوكم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي سيدلّني على طريق النجاة .

فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، أي الجبل العظيم .

فصار لموسى وأصحابه طريقًا في البحر يَبَسًا؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون؛ انصب عليهم وغرق فرعونُ؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعونُ؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه.

* * *

روايات غرق فرعون

الأولى: روى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا له بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق؛ فقالا له:افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقًا له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان.

وأوحى الله إلى البحر فيما ذكر إذا ضربك موسى بعصاه فانفلقْ له، قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضا فَرَقا من الله وانتظار أمره، فأوحى الله جل وعزّ إلى موسى: ﴿ **أنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْرَ** ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه، ﴿ **فانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظِيم** ﴾ أي كالجبل على يبس من الأرض.

يقول الله لموسى: ﴿ **اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقا .فِي البَحْرِ يَبَسا لاَ تَخافُ دَرَكا وَلا تَخْشَى** ﴾ ؛ فلما استقرّ له البحر على طريق قائمة يَبَسٍ سلك فيه موسى ببني إسرائيل، وأتبعه فرعون بجنوده.

فلما دخل بنو إسرائيل البحر، فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذه فعرض له جبريل على فرس أنثى وَدِيق، فقرّبها منه فشمها الفحل، فلما شمها تبعها، فتقدم معها الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون فرعونَ قد دخل دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتبعون فرعون وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم، يقول: الحقوا بصاحبكم.

حتى إذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى وليس خلفه أحد، طبق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله عزّ وجلّ وقدرته ما رأى وعرف ذلته وخذلته نفسه: ﴿ **آمَنْتُ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاّ الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرَائِيلَ وأنا مِنَ المُسْلِمِينَ** ﴾ ، وهيهات هيهات ثم هيهات!!.

الرواية الثانية: أنه لما خرج موسى ببني إسرائيل بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى يصيح الديك. قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه

ستمائة ألف من القبط. ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمرك ربك يا موسى؟ قال: أمامك يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به ثم رجع، فقال: أين أمرك ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ﴿ **أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ يقول: مثل جبل. قال: ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿ **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ قال معمر: قال قتادة: كان مع موسى ستمائة ألف، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومائة ألف حصان. فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى أن اضْرِبْ بِعَصَاكَ البحر وأوحى إلى البحر: أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك. قال: فثاب البحر له أفكل يعني له رعدة لا يدرى من أيّ جوانبه يضربه، قال: فقال يوشع لموسى: بماذا أمرت؟ قال: أمرت أن أضرب البحر. قال: فاضربه قال: فضرب موسى البحر بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقا، كل طريق كالطود العظيم، فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فيه. فلما أخذوا في الطريق، قال بعضهم لبعض: ما لنا لا نرى أصحابنا؟ قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم.

قال سفيان، قال عمار الدهني: قال موسى: اللهمّ أعني على أخلاقهم السيئة. قال: فأوحى الله إليه: أن قل بعصاك هكذا وأومأ إبراهيم بيده يديرها على البحر قال موسى بعصاه على الحيطان هكذا، فصار فيها كُوًى ينظر بعضهم إلى بعض، فساروا حتى خرجوا من البحر، فلما جاز آخر قوم موسى هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذَنُوب حصان. فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وَديق. فلما رآها الحصان تقحّم خلفها، وقيل لموسى: اترك البحر رَهْوا قال: طرقا على حاله قال: ودخل فرعون وقومه في البحر، فلما دخل آخر قوم فرعون وجاز آخر قوم موسى أطبق البحر على فرعون وقومه فأغرقوا.

الرواية الثالثة: عن السدي: أن الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل، فقال: ﴿ **أَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** ﴾ فخرج موسى وهارون في قومهما، وأُلقي على القبط الموت فمات كل بكر رجل. فأصبحوا يدفنونهم، فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس، فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: ﴿ **فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ** ﴾ فكان موسى على ساقة بني إسرائيل،

وكان هارون أمامهم يقدُمُهم. فقال المؤمن لموسى: يا نبيّ الله، أين أمرت؟ قال: البحر. فأراد أن يقتحم، فمنعه موسى. وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل، لا يعدّون ابنَ العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره، وإنما عدوّا ما بين ذلك سوى الذرية. وتبعهم فرعون وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماذبانه، يعني الأنثى وذلك حين يقول الله جل ثناؤه: ﴿ **فأرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المَدَائِنِ حاشِرِينَ إنَّ هَؤُلاءِ لَشرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴾ يعني بني إسرائيل.

فتقدم هارون، فضرب البحر، فأبى البحر أن ينفتح، وقال: من هذا الجبار الذي يضربني؟ حتى أتاه موسى، فكناه أبا خالد وضربه فانفلق فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطّوْدِ العَظِيم يقول: كالجبل العظيم. فدخلت بنو إسرائيل. وكان في البحر اثنا عشر طريقًا، في كل طريق سبط، وكانت الطرق انفلقت بجدران، فقال كل سبط: قد قتل أصحابنا: فلما رأى ذلك موسى، دعا الله، فجعلها لهم قناطر كهيئة الطِّيقان. فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعا. ثم دنا فرعون وأصحابه، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقا، قال: ألا ترون البحر فرق مني قد انفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم؟ فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: ﴿ **وأزْلَفْنا ثَمَّ الآخرِينَ** ﴾ أي قرّبنا ثم الآخرين يعني آل فرعون.

فلما قام فرعون على أفواه الطرق أبت خيله أن تقتحم، فنــزل جبريل على ماذبانه، فشامَّ الحصان ريح الماذبانه، فاقتحم في أثرها، حتى إذا همّ أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم.

الرواية الرابعة: عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: لما أخذ عليهم فرعون الأرض إلى البحر قال لهم فرعون: قولوا لهم يدخلون البحر إن كانوا صادقين.

فلما رآهم أصحاب موسى، قالوا: ﴿ **إنّا لَمُدْرَكُونَ قال كَلاَّ إنَّ مَعي رَبي سَيَهْدِين** ﴾ فقال موسى للبحر: ألست تعلم أني رسول الله؟ قال: بلى. قال: وتعلم أن هؤلاء عباد من عباد الله أمرني أن آتي بهم؟ قال: بلى. قال: أتعلم أن هذا عدوّ الله؟ قال: بلى. قال: فانفرقْ لي طريقا ولمن معي. قال: يا موسى، إنما أنا عبد مملوك ليس لي أمر إلا أن يأمرني الله تعالى.

فأوحى الله عزّ وجل إلى البحر: إذا ضربك موسى بعصاه فانفرق، وأوحى إلى موسى أن يضرب البحر، وقرأ قول الله تعالى: ﴿ **فاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقا في البَحْرِ يَبَسا لاَ تَخافُ دَرَكا وَلا تَخْشَى** ﴾ وقرأ قوله: ﴿ **وَاتْرُكِ البَحْرَ رَهْوا** ﴾ سَهَلاً ليس فيه تعدّ. فانفرق اثني عشرة

فرقة، فسلك كل سبط في طريق. قال: فقالوا لفرعون: إنهم قد دخلوا البحر. قال: ادخلوا عليهم، قال: وجبريل في آخر بني إسرائيل يقول لهم: ليلحق آخركم أولكم. وفي أول آل فرعون، يقول لهم: رويدا يلحق آخركم أولكم. فجعل كل سبط في البحر يقولون للسبط الذين دخلوا قبلهم: قد هلكوا.

فلما دخل ذلك قلوبهم، أوحى الله جلّ وعزّ إلى البحر، فجعل لهم قناطر ينظر هؤلاء إلى هؤلاء، حتى إذا خرج آخر هؤلاء ودخل آخر هؤلاء أمر الله البحر فأطبق على هؤلاء.

وهذا في قوله تعالى: ﴿ **وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ أي تنظرون إلى فَرْق الله لكم البحر وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه في الذي أراكم من طاعة البحر إياه من مصيره رُكاما فَرقا كهيئة الأطواد الشامخة غير زائل عن حدّه، انقيادا لأمر الله وإذعانا لطاعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك.

وهلك فرعون وجنوده وعلا الحق وزهق الباطل ، وأقيمت التوراة التي أنـــزلت على موسى ورفع نوار الدين وحُمد الله ووحّد . والحمد لله رب العالمين .

وبالجملة، فقد كانت تلك قصة موسى بعد أن اختصرت بعضها، ولكن بالجملة؛ فإن شريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة، وأُمته كانت أُمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعُبَّاد وزهاد وألِبّاء، وملوك وأمراء، وسادات وكبراء، لكنهم كانوا فبادُوا، وتبدَّلوا كما بُدِّلت شريعتهم ومسِخوا قردةً وخنازير، ثم نُسخت ملتهم، وجرت عليهم خطوبٌ وأمور يطول ذكرها. فقنعت بذكر ماسبق .

(والحمد لله رب العالمين)

❊ ❊ ❊

قصة صاحب يس

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونَ ۞ إِنِّيۤ إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ۞ إِنِّيۤ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۞ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۞ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

يضرب الله عز وجل مثالاً آخر من أمثلة الإيمان الذي يتجلى من بين ركام الكفر والشرك؛ فيصيب بنوره من يشاء له الله الهداية، ويعمي من كتب الله عليه الضلالة.

والمثل الذي معنا الآن هو: حبيب بن مري ، ذلك المؤمن الذي وقف متحديًا عناد الكفر، وصلفه.

اسمه حبيب النجار، وكان – في غالب الأقوال – يَنْحَت الأصنام.

قال وهب: وكان حبيب مجذومًا، ومنـزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يَعكِفُ على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما ٱستجابوا له، فلما أبصر الرسل الذين ورد ذكرهم في سورة يس ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوۤاْ إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ [يس : ١٣-١٤].

هؤلاء الرسل أرسلوا إلى القرية التي كان فيها حبيبًا؛ وكانوا رسل عيسى بن مريم عليه السلام، فقيل أن عيسى بن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية ، وهي مدينة بالروم فكذّبوهما ، فأعزّهما بثالث ، ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ .

وعن وهب بن مُنَبه، قال: كان بمدينة أنطاكية، فرعون من الفراعنة يقال له أبطيحس بن أبطيحس يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله المرسلين، وهم ثلاثة: صادق، ومصدوق، وسلوم، فقدم إليه وإلى أهل مدينته، منهم اثنان فكذّبوهما، ثم عزّز الله بثالث فلما دعته الرسل

ونادته بأمر الله، وصدعت بالذي أُمرت به، وعابت دينه، وما هم عليه، قال لهم ذاك الملك: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وذكر القرطبي أن نبي الله عيسى عليه السلام أرسل إليهم رسولين، فلقيا شيخًا يرعى غُنيمات له وهو حبيب النجار صاحب « يٓس » فدعوه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله. فطالبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى وكان له ٱبن مجنون.

وقيل: مريض على الفراش فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحًا؛ فآمن الرجل بالله.

وقيل: هو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشَفَيَا كثيرًا من المرضى، فأرسل الملك إليهما – وكان يعبد الأصنام – يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتكما؟ قالا: نبرىء الأكمه والأبرص ونبرىء المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده. فهمَّ الملكُ بضربهما.

وقال وهب: حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة؛ فٱنتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثًا.

قيل: اسمه: شمعون الصفا رأس الحواريين أرسله لنصرهما؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، وٱستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته؛ ثم قال يومًا للملك: بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما ما وراءهما.

فقال: إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما.

قال: فلو أحضرتهما. فأمر بذلك؛

فقال لهما شمعون: ما برهانكما على ما تدّعيان؟

فقالا: نبرىء الأكمه والأبرص. فجيء بغلام ممسوح العينين؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما فٱنشق موضع البصر، فأخذا بندقتين طينًا فوضعاهما في خديه، فصارتا مقلتين يبصر بهما .

فعجب الملك وقال: إن هاهنا غلامًا مات منذ سبعة أيام و لم أدفنه حتى يجيء أبوه فهل يحييه ربكما؟ فدعوا الله علانية، ودعاه شمعون سرًّا، فقام الميت حيًّا، فقال للناس: إني متّ منذ سبعة أيام، فوُجدت مشركًا، فأدخلتُ في سبعة أودية من النار، فأحذّركم ما أنتم فيه فآمِنوا بالله، ثم فتحت أبواب السماء، فرأيت شابًا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون

وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله.

فقالوا له: وهذا شمعون أيضًا معهم؟ فقال: نعم وهو أفضلهم. فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، فأثر قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فآمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون.

وحكى القشيري أن الملك آمن و لم يؤمن قومه، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار.

وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبيّ الله إنا لا نعرف أن نتكلم بألسنتهم ولغاتهم. فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبُّوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله: ﴿ **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ** ﴾ .

فدعا الرسل حبيبًا إلى عبادة الله فقال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربَّنا القادر فيفرج عنك ما بك. فقال: إن هذا لَعجب! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرِّج عني فلم تستطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم، ربُّنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئًا ولا تضر.

فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس؛ فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدّق بكسبه، فأطعم عياله نصفًا وتصدّق بنصف، فلما همّ قومه بقتل الرسل جاءهم ﴿ **فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ الآية.

وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به أجرًا ؟ قالوا: لا؛ ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ﴿ **فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا** ﴾ فلو كانوا متَّهمين لطلبوا منكم المال ﴿ **وَهُمْ مُّهْتَدُونَ** ﴾ فاهتدوا بهم.

﴿ **وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ .

قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟! فقال: ﴿ **وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ أي خلقني. ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ وهذا آحتجاج منه عليهم. وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن

ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم؛ لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر؛ فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرًا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرًا.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعني أصنامًا. ﴿ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونَ ﴾ ﴿ يخلصوني مما أنا فيه من البلاء إِنِّيٓ إِذًا ﴾ يعني إن فعلت ذلك ﴿ لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي خسران ظاهر. ﴿ إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ .

قال ٱبن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم. ومعنى « فَاسْمَعُونِ » أي فٱشهدوا، أي كونوا شهودي بالإيمان. وقال كعب ووهب: إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذي كفرتم به.

وقيل: إنه لما قال لقومه ﴿ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه.

قال ٱبن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصبُه من دبره، وأُلقي في بئر وهي الرَّسُّ وهم أصحاب الرَّسِّ. وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة.

وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم ٱهدي قومي حتى قتلوه.

وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردما.

وقال الحسن: حرقوه حرقًا، وعلّقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية؛ حكاه الثعلبي.

وقال القشيري: وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أُدخلها.

وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فلما شاهدها ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ أي بغفران ربي لي؛ وقيل كأنه قال: ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي.

فقيل ﴿ ٱدْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ .قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حيّ يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والله أعلم.

﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند

ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿ **بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ** ﴾ وقرىء « مِنَ الْمُكَرَّمِينَ » ، وفي معنى تمنيه قولان:

أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته.

الثاني: تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله.

قال ابن عباس: نصح قومه حيًا وميتًا.

وقال ٱبن أبي ليلى: سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يٓس، فهم الصدّيقون؛ ذكره الزمخشري مرفوعًا عن رسول الله ﷺ. والحديث فيه نظر لتشيع راويه.

وفي هذه القصة تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في ٱفتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام.

فلما قتل حبيب؛ غضب الله له وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿ **وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ** ﴾ أي ما أنـزلنا عليهم من رسالة ولا نبيّ بعد قتله؛ قال الحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء. وقيل: الجند العساكر؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر؛ بل أهلكهم بصيحة واحدة. ففي قوله ﴿ **وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ** ﴾ تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء.

وقيل: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ [الأحزاب: ٩] ، فالله سبحانه لايعجزه شيء؛ والله أعلم بعدد جنوده الذين أنـزلهم؛ فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة، ولكن الله فضل محمدًا ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحدًا؛ ﴿ **إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴾ فوقعت عليهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون وهامدون؛ تشبيهًا بالرماد الخامد. قال المفسّرون بعث الله إليهم

جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون. أي قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم و لم يبق منهم عين تطرف.

ونرجع إلى صاحب يَس؛ الذي جهر بالدعوة لدين الله أمام الطغاة الجباريين، المعاندين؛ وذلك من أفضل أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الذي أصبح في زماننا هذا من الأمور الخطيرة، ومن الخطوب المدلهمة التي لا يقربها إلا (المشاكسون!) أو (المتنطعون!)، وقليل من علماء الأمة وطلبة العلم الشرعي؛ لما لتلك المسألة من تبعات لا يقوى عليها إلا من قيده الله لحفظ تلك الشعيرة، وما دمنا قد تطرقنا لهذا الباب؛ فلا بأس أن نقف على شيء من فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1] :

(١) وقد استقيت جلها من كتاب الشيخ ذياب الغامدي (أحكام المجاهرين بالكبائر) بعد استئذانه.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ شروط وأحكام

لاشك أنَّ شعيرةَ « الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنْكرِ » من شَعَائرِ الإسلام العظَام، ومن أوجبِ واجباتِ الدِّين ؛ بل هو منْ آكَدِ أصولِ قواعدِ الملَّة ، فهو بحقٍّ القُطْبُ الأعظمُ في الدِّين ، والأمرُ الذي بعثَ الله له الأنبياء والمُرسلين ، في حين أنَّه عُنْوانُ الإسلامِ والإيمان، وما ذلك إلاَّ أنَّه من أشقِّ ما يحملُه المُكلَّف ؛ لأنَّه مقامُ الرُّسُلِ ، الذين ابْتُلُوا في طريقه ، وجاهدوا من أجله ، حتى ضَحَّوْا بالغالي والرَّخيصِ ، والنَّفسِ والنَّفيس .

فمتى تَهاوَنَ به أهلُه المسلمون ، أو تَخَاذلَ عنه أربَابُه العالمون ؛ فعندها يَعُمُّ العذابُ، ويَحلُّ الهوانُ، ويَتسلَّطُ الأعداءُ ، وتتغَيَّرُ رسومُ الدِّين، وعندها تنْتَشرُ البدعُ وتُهْجَرُ السُّننُ، وتَظْهَرُ المعاصي ويسْتَعْلي أهلُها ، وتختفي الطَّاعةُ ويَضْعُفُ أهلُها ... إلى غير ذلك من الفتنِ والضَّلالاتِ التي يكفي بعضُها لهدمِ معالمِ الإسلامِ العظام .

فلذا وجب على كل مسلم أن يقوم بما وَجَبَ عليه من الدَّعوةِ إلى الإسلامِ، و(الأمر بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر) ، وإرشاد الناسِ، ووعظهم، وتذكيرهم بما فيه صلاحُهم واستقامتُهم، قال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

لذا كان « الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المُنكر » من أعظمِ أسبابِ إحياءِ السُّننِ، وإماتَةِ البدعِ، وعزِّ الطَّاعةِ وأهلِها، وذُلِّ المعصيةِ وأهلِها ، وحصنِ الدِّينِ، وسياجه المتين .

يقول الإمام ابنِ القيم – رحمه الله – إذ يصفُ لنا حالَ أكثرِ المسلمين بقوله : (وقد غرَّ إبليسُ أكْثَرَ الخلْقِ بأنْ حَسَّنَ لهم القيامَ بنَوْعٍ من الذِّكرِ ، والقراءة ، والصَّلاةِ ، والصِّيام ، والزُّهدِ في الدُّنيا والانقطاعِ ، وعَطَّلُوا هذه العُبُوديَّات ، فلم يُحَدِّثُوا قلوبَهم بالقيام بها ، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقَلِّ الناسِ دينًا ؛ فإنَّ الدِّينَ هو القيامُ لله بما أمرَ به ؛ فتاركُ حُقُوقِ الله التي تَجبُ عليه أسْوأَ حَالاً عند الله ورسوله منْ مُرْتكبِ المَعاصي ؛ فإنَّ تَرْكَ الأمرِ أعظمُ من ارتكَابِ النَّهي من أكثرِ منْ ثلاثين وجْهًا ذكرها شيخُنا رحمه الله « أي : ابن تيمية » في بعض تصانيفه .

ومَنْ له خبْرةٌ بما بَعَثَ الله به رسولَه ﷺ ، وبما كان عليه هو وأصحابُه ؛ رأى أنَّ أكْثَرَ مَنْ يُشَارُ إليهم بالدِّينِ هم أقلُّ الناس دينًا ، والله المستعان .

وأيُّ دين ، وأيُّ خَيْرٍ فيمن يرى : مَحَارِمَ الله تُنْتَهك ، وحُدُودَه تُضَاعُ ، ودينَه يُتْرك، وسُنَّةَ رسولِه فيُرْغبُ عنها ؛ وهو باردُ القَلْبِ ، سَاكِتُ اللِّسانِ ، شَيْطانٌ أخْرسٌ ؛ كما أنَّ المُتَكلِّمَ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ ؟! .

وهل بَلِيَّةُ الدِّينِ إلاَّ مِنْ هؤلاءِ الذين إذا سَلِمتْ لهم مآكلُهم ورياساتُهم ؛ فلا مُبَالاة بما جرى على الدِّينِ ؟! .

وخيارُهم المُتَحزِّنُ المُتَلَمِّظُ ، ولو نُوزِعَ في بعضِ ما فيه غَضَاضَةٌ عليه في جاهِهِ أو مالِه؛ بَذَلَ وتَبَذَّل ، وجَدَّ واجْتَهد ، واستعملَ مَرَاتِبَ الإنكارِ الثلاثة حسب وُسْعه .

وهؤلاء - مع سُقُوطِهم من عينِ الله ومقت الله لهم - قد بُلُوا في الدُّنيا بأعْظَمِ بَلِيَّة تكون وهم لا يَشْعرون ، وهو مَوْتُ القُلُوبِ ؛ فإنَّ القلبَ كلَّما كانت حياتُه أتَمَّ ؛ كان غَضَبُه لله ورسولِه أقوى ، وانْتِصَارُه للدِّينِ أكمل)[1] .

والذين يُؤْثِرُون السَّلامَةَ في أديانهم - فيما زعموا - وفي أبدانهم ، ويَتْرُكُون الأمرَ والنَّهيَ الواجبَ عليهم - مع القُدْرةِ عليه - لهذا السبب : هم كالمُسْتجيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنَّارِ[2] ؛ إذْ صُورَةُ حَالِهم أنَّهم يَهْرُبُون من ضَرَرٍ مُتَوقَّعٍ إلى ضَررٍ واقعٍ ؛ كما قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة : ٤٩] .

وفي هذا يقول شيخ الإسلامِ ابنُ تيمية : « ولَمَّا كان في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنكرِ ، والجهادِ في سبيلِ الله مِنَ الابتلاء والمحَنِ ما يَتَعرَّضُ به المَرْءُ للفِتْنة ؛ صَارَ في النَّاسِ مَنْ يَتعلَّلُ لتركِ ما وجب عليه من ذلك بأنْ يَطْلُبَ السَّلامَةَ من الفتنةِ ؛ كما قال تعالى عن المنافقين: ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا » [التوبة : ٤٩] .

ويقولُ أيضًا - رحمه الله - : « وإذا كان كذلك فمعلومٌ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن

---

(١) انظر (إعلام الموقعين) لابن القيم (٢/١٧٦-١٧٧) .

(٢) انظر (جمهرة الأمثال) (٢/١٦٠) ، (ومجمع الأمثال) للميداني (٢/١٤٩) ، و(موسوعة أمثالالعرب) لأميل يعقوب (٤/٦٤٠) .

المُنكر ، وإتْمامَه ، والجهادَ هو من أعظمِ المعروف الذي أُمِرْنا به ... وإذا كان هو أعظمُ الواجبات والمُستحبَّات ، فالواجباتُ والمستحبَّاتُ لا بُدَّ أنْ تكون المصلحةُ فيها راجحةً على المفسدة ؛ إذ بهذا بُعثَت الرُّسُلِ ، وأُنــزلت الكُتُبِ والله لا يُحبُّ الفسادَ » [١] .

ومنْ هنا كان « الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المُنكر » من الأهمِّيَّة بمكان ، وأنَّه من شعائرِ الإسلامِ العظامِ التي أولتْهُ الشريعةُ الإسلامية اهتمامًا بالغًا ، كلُّ هذا قيامًا بواجب النَّصيحة ، وإبراءً للذِّمَّة ، وحفاظًا على حِيَاضِ الإسلام ، وأخذًا على أيدي العابثين بأحكامِ الدِّين .

لقد جَاءت النُّصوصُ الشَّرعيةُ من الكتاب ، والسنة ، والإجماعِ ، وأقوالِ السَّلفِ بوجوب الأمر بالمَعروف والنهي عن المُنكر ، وهي كثيرةٌ جدًّا لا يحيطُ بها مثل هذا المَقام ؛ لذا سنقتصر هنا على ما فيه مَقْنَعٌ وغُنْيةٌ .

يقول الله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

قال ابنُ كثير – رحمه الله – في تفسير الآية : « المقصودُ منْ هذه الآية أنْ تكونَ فرْقةٌ من هذه الأمَّة مُتصدِّيةً لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبًا على كلِّ فردٍ من الأمَّة بحسبه ، كما ثبتَ في صَحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قالَ رسول الله ﷺ: « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ... » [٢] » ، ثم ساق الحديث .

وقال تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** . . ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، ولذا نجدُ عُمَرَ بنَ الخطاب –رضي الله عنه– يقول بعد أن قرأ الآيةَ السَّابقَة: (يا أيها الناس مَنْ أراد أن يكون من هذه الأمَّة فليُؤَدِّ شَرْطَ الله فيها) [٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة : ٧٨-٧٩] .

وفي حديث أبي سعيد الخُدْري – رضي الله عنه – قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

---

(١) انظر (الحسبة) لابن تيمية ص (٣) .

(٢) انظر (تفسير ابن كثير) (١/٢٩٠) .

(٣) انظر (الدر المنثور) للسيوطي (٢/٦٣) .

« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعفُ الإيمان » [١] مسلم .

فقد أوجبَ النبيُّ ﷺ على كلِّ من رأى مُنْكرًا تغييرَه ؛ وذلك بحسبِ مَرَاتبه الثلاث؛ التي مِن آخِرها : تغييرُه بالقلبِ وهو أضعفُ الإيمان .

وهذه بعضُ أقوالِ أهلِ العلمِ في شرحٍ ومعنى هذا الحديث ، يقولُ أبو الفضل عياض – رحمه الله – : « هذا الحديث أصلٌ في صفة التَّغيير فحقُّ المُغيِّر أن يُغيِّرَه بكلِّ وجه أمكن زوالُه به ، قولاً كان أو فعلاً ، فيكسر آلات الباطل ، أو يُريق المُسكر بنفسه ، أو يأمرُ من يفعله ، وينـــزعُ المغصُوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره إذا أمكنه » [٢] .

وقال ابنُ رَجَب – رحمه الله – : فتبيَّنَ بهذا أنَّ الإنكارَ بالقلبِ فَرْضٌ على كُلِّ مُسلمٍ في كُلِّ حَال ، وأمَّا الإنكارُ باليد واللِّسان فبحسب القُدْرة ، كما في حديث أبي بكرٍ الصديق رضي اللهُ عنه ، عن النبي ﷺ، قال : **«ما مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي ، ثُمَّ يَقْدِرُونَ على أنْ يُغَيِّرُوا، فلا يُغَيِّرُوا، إلاَّ يُوشكُ أن يَعُمَّهم الله بعقاب»** خرَّجه أبو داود بهذا اللفظ، وقال: قال شعبةُ فيه: « **ما مِنْ قومٍ يُعملُ فيهم بالمعاصي هم أكْثَرُ مِمَّن يَعْمَلُه** »[٣] .

وقال ﷺ: « **والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكرِ ، أو لَيُوشِكَنَّ الله أن يبعثَ عليكم عذابًا منه ، ثم تَدْعُونه فلا يُسْتَجابُ لكم** » [٤] أحمد والترمذي .

أمَّا ما أُثِرَ عن بعضِ السَّلَف – رضي الله عنهم – فقد رُوِيَ عن أبي بكر –رضي الله عنه– قوله : « **يا أيها الناس ائْتَمِرُوا بالمعروفِ وانْهَوْا عن المنكرِ ، تَعيشُوا بخيرٍ** » [٥] .

وقال علي – رضي الله عنه – : « من أمر بالمعروفِ شَدَّ ظَهَرَ المؤمنين ، ومن نَهَى عن المنكرِ رَغَّمَ أنْفَ المنافقين » [٦] .

وقال حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – حين سُئِلَ عن ميتِ الأحياءِ ؟ فقال : « الذي

---

(١) أخرجه مسلم (١/٦٩) .

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢/٢٥) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) ، وابن ماجه (٤٠٠٩) ، وصححه ابنُ حبان (٣٠٠ ، ٣٠٢) .

(٤) أخرجه أحمد (٥/٣٨٨)، والترمذي (٢١٦٩) وغيرهما، وقد حسَّنه الألباني (صحيح الترمذي) (١٧٦٢).

(٥) انظر (تفسير الرازي) (٨/١٧٩) .

(٦) انظر (نصاب الاحتساب) لعمر السنامي (٩٧) .

لا يُنكرُ المُنكرَ بيده ولا بلسانه ولا بقلبه » [١] .

والنُّصوصُ في وجوبِ الأمرِ بالمعروفِ ، والنَّهي عن المنكرِ من الكتابِ ، والسنة كثيرةٌ ، وحسبنا منها ما ذُكر .

كما دلَّ على وُجُوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ إجماعُ الأمَّة ، كما نقل ذلك الإمامُ النَّوويُّ حيث قال : « وقد تطابق على وُجُوب الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر : الكتابُ ، والسنةُ ، وإجماعُ الأمةِ ، وهو أيضًا من النَّصيحةِ التي هي الدِّين ، ولم يخالفْ في ذلك إلاَّ بعضُ الرَّافضة ولا يُعْتدُّ بخلافهم » [٢] .

وقال ابن عبد البرِّ – رحمه الله – : « وأجمع المسلمون على أنَّ تغيير المنكر واجبٌ على من قَدرِ عليه . . . » [٣] .

وبعد أن ذكرْنا الأدلَّةَ القاطعةَ على وجوب « الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر » ؛ كان من المُناسبِ أن نَذْكُرَ شُرُوطَ الآمرَ بالمعروف والنَّاهي بالمُنكر على وجه الاختصار، وهي كما يلي : (شروطٌ مُتَّفقٌ عليها ، وشروطٌ مُختلفٌ فيها) .

* **فأمَّا الشُّروطُ المُتَّفقُ عليها ؛ فهي**: الإسلامُ ، والتَّكليفُ ، والاستطاعة.

* **أمَّا الشُّروطُ المُختلفُ فيها ؛ فهي** : العدالةُ ، وإذنُ الوالي .

وهذا ما قاله ابنُ النَّحَّاسِ – رحمه الله – : « يُشترطُ لإيجاب الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكرِ ؛ ثلاثةُ شُرُوطٍ : الإسلامُ ، والتَّكليفُ ، والاستطاعةُ . واختُلفَ في العدالةِ ، والإذْنِ من الإمام » [٤] .

أمَّا السُّنَّةُ : فقد روى مسلمٌ عن طارق بنِ شهاب قال : أوَّلُ من بدأ الخُطبةَ قبلَ الصَّلاة مَروانُ ، فقامَ إليه رجلٌ فقال : الصَّلاةُ قبل الخُطبة . فقالَ : قد تُرك ما هُنالك ، فقال أبو سعيد الخُدْري – رضي الله عنه – : أمَّا هذا فقد قضى ما عليه ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : **« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك**

---

(١) انظر (إحياء علوم الدين) للغزالي (٣١١/٢) .
(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢٢/١) .
(٣) انظر (الكنــز الأكبر) لعبد الرحمن الحنبلي ص (١١٣) .
(٤) انظر (تنبيه الغافلين) للنحاس ص (٣٣) .

الإيمان » [١] مسلم .

وهناك شروح كثيرة لهذا الحديث في كتب الشروح كشرح النووي وغيرهما؛ لمن أراد التفصيل، ويأتي بيان بعض منها في فعل الصحابة، المذكور لاحقًا.

أمَّا الإجماعُ : وقد دَلَّ على وُجُوبِ (الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ) إجماعُ الأمَّة ، كما نقل ذلك الإمامُ النَّوويُّ كما مرَّ معنا ، حيث قال : « وقد تطابق على وُجُوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر: الكتابُ، والسنةُ، وإجماعُ الأمة ... »[٢] .

وكذا ابنُ عبد البرِّ – رحمه الله – : « وأجمع المسلمون على أنَّ تغيير المنكر واجبٌ على من قَدرِ عليه ، وإنَّه إذا لم يلحقه بتغييرِه إلاَّ اللَّوم الذي لا يتعدَّى إلى الأذى فإنَّ ذلك لا يجب أن يمنعه، فإن لم يقدرْ فبلسانه، فإن لم يقدرْ فبقلبه ، ليس عليه أكثر من ذلك ، وإذا أنكر بقلبه فقد أدَّى ما عليه إذا لم يستَطِعْ سوى ذلك »[٣] .

أمَّا فعلُ الصحابة : فعن أبي سعيد – رضي الله عنه – قال : كان رسولُ الله ﷺ يخرجُ يوم الفطر والأضحى إلى المصلَّى ، فأوَّلُ شيءٍ يبدأ به الصلاة ، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس – والناس جلوس على صفوفهم – فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم ، فإن كان يريدُ أن يقطعَ بعثًا قطعه ، أو يأمرَ بشيءٍ أمر به ثم ينصرف .

قال أبو سعيد : فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجتُ مع مروان – وهو أمير المدينة – في أضحى أو فطر ، فلمَّا أتينا المُصَلَّى إذا منبرٌ بناه كثيرُ بنُ الصلت، فإذا مروان يريدُ أن يرتقيه قبل أن يُصلِّي فَجَبَذْتُ بثوبه فجبذني ، فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : غيَّرْتُم والله! ، قال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم ، فقلت : ما أعلم والله خيرَ ممَّا لا أعلم ، فقال : إنَّ الناس لم يكونوا يجلسونَ لنا بعد الصلاة فجعلتُها قبل الصلاة[٤] .

قال الإمامُ النووي في شرح هذا الحديث : « وفيه الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وإن كان المنكرُ عليه واليًا ، وفيه أنَّ الإنكارَ عليه يكون باليدِّ لمن أمكنه ، ولا يجزئ عن اليدِّ

---

(١) أخرجه مسلم (١/٦٩) .

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (١/٢٢) .

(٣) انظر (الكنـــز الأكبر) لعبد الرحمن الحنبلي ص (١١٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٩٥٦) واللفظ له ، ومسلم (٨٨٩) .

اللِّسانُ مع إمكانِ اليدِّ » [١] . وهناك الكثيرُ من صَنيعِ الصحابةِ - رضي الله عنهم - ممَّا فيه دلالةٌ واضحةٌ على الإنكارِ باليدِّ .

قال الإمامُ الشوكاني - رحمه الله - : « كلُّ مسلم يجب عليه إذا رأى منكرًا أن يُغَيِّره بيده ، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه ، كما صحَّ ذلك عن رسولِ الله ﷺ، وظهورُ كونِ الشيء منكرًا يحصلُ بكونه مخالفًا لكتابِ الله سبحانه أو لسنةِ رسولِه ﷺ أو لإجماعِ المسلمين ، ثم إذا كان قادرًا على تغييره بيده كان ذلك فرضًا عليه ولو بالمقاتلة، وهو إن قُتلَ فهو شهيدٌ، وإن قتَلَ فاعلَ المنكرِ فهو بالحقِّ والشرعِ قتَلَه ، ولكنه يُقَدِّمُ الموعظةَ بالقولِ اللَّيِّنِ، فإن لم يُؤَثِّرْ ذلك جاء بالقولِ الخَشِنِ ، فإن لم يُؤثِّرْ ذلك انتقلَ إلى التغييرِ باليدِّ ، ثم المقاتلة إن لم يمكن التغيير إلا بها ، فإذا كان غيرَ قادرٍ على الإنكارِ باليدِّ أنكرَ باللِّسان فقط وذلك فرضٌ ، فإن لم يستطعْ الإنكارَ باللِّسان أنكرَ بالقَلب ، وهذا يقدرُ عليه كُلُّ أحدٍ ، وهو أضعفُ الإيمانِ ، كما أخبر الصادقُ المصدوقُ ﷺ » [٢] .

* * *

---

(١) انظر (شرح مسلم) للنووي (١٧٨/٦) .

(٢) انظر (السيل الجرار) للشوكاني (٥٨٦/٤) .

ضَوابطٌ وتنبيهاتٌ

هناك بعضُ الضَّوابطِ التي ينبغي مُرَاعاتُها في القيامِ بواجبِ الإنكارِ باليدِّ ، وهي كثيرةٌ نأخذُ منها ما هو مهمٌّ :

الأول : الالتزامُ بدرجاتِ الإنكارِ الشرعيةِ كما ذكرها أهلُ العلم ، ومن ذلك : التَّعريفُ باللِّسانِ أولاً ثم باليدِّ ، قال ابنُ العربي : « وإنَّما يبدأُ باللِّسانِ والبيانِ، فإن لم يَكُنْ فباليدِّ » (١) .

وكذا ما ذكره الشوكاني آنفًا : « . . . ولكنه يُقَدِّمُ الموعظةَ بالقولِ اللِّين ، فإن لم يُؤَثِّرْ ذلك جاء بالقولِ الخَشنِ ، فإن لم يُؤثِّرْ ذلك انتقلَ إلى التغييرِ باليدِّ ، ثم المقاتلةِ إن لم يمكن التغيير إلا بها . . . » (٢) .

الثاني : أن لا يُؤدِّي تغييرُ المُنْكَرِ إلى منكرٍ أكبر منه .

يقول ابن تيمية – رحمه الله – : « فإنَّ الأمرَ والنَّهيَ وإن كان مُتضمِّنًا لتحصيلِ مصلحة ودفعِ مَفْسدة ، فيُنظرُ في المُعَارضِ له ، فإن كان الذي يَفُوتُ من المصالحِ أو يحصلُ من المَفاسدِ أكثر ، لم يكن مأمورًا به ؛ بل يكون مُحرَّمًا إذا كانت مفْسَدتُه أكثرُ من مصلحتهِ » (٣) .

ويقولُ ابنُ القيم – رحمه الله – : « إنكارُ المُنكرِ أربعُ درجاتٍ :

الأولى : أن يزُولَ ويخْلُفه ضدُّه .

الثانية : أن يَقلَّ وإن لم يزَلْ بجُملته .

الثالثة : أن يخْلُفَه ما هو مثلُه .

الرابعة : أن يخْلُفَه ما هو شرٌّ منه ، فالدَّرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثةُ موضعُ اجتهادٍ ، والرَّابعةُ مُحرَّمةٌ » (٤) .

---

(١) انظر (السيل الجرار) للشوكاني (٤/٥٨٦) .

(٢) انظر (السيل الجرار) للشوكاني (٤/٥٨٦) .

(٣) انظر (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (٢٨/١٢٩) .

(٤) انظر (إعلام الموقعين) لابن القيم (٣/٧) .

وقصَّةُ شيخِ الإسلامِ ابن تيمية – رحمه الله – مع التَّتارِ مشهورةٌ؛ إذ يقولُ فيها: « مررتُ أنا وبعضُ أصحابي في زمنِ التتارِ بقومٍ منهم يشربون الخمرَ ، فأنكرَ عليهم من كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلتُ له: إنَّما حرَّمَ الله الخمرَ لأنَّها تصدُّ عن ذكرِ الله والصَّلاة ، وهؤلاء يصدُّهم الخمرُ عن قتلِ النُّفوسِ ، وسَبْيِ الذُّرِّيَّة ، وأخذ الأموالِ فدعهم »[1] .

الثالث : أن لا يُنكرَ العاميُّ إلاَّ في الأمورِ الجَليَّةِ الظَّاهرةِ التي لا تحتاجُ إلى اجتهاد .

وقد أوضح النَّووي – رحمه الله – هذا بقوله : « إنَّما يأمرُ وينهى من كان عالمًا بما يأمرُ به وينهى عنه ، وذلك يختلفُ باختلاف الشيء ، فإن كان من الواجبات الظَّاهرة والمُحرَّمات المشْهورة ؛ كالصَّلاة والصِّيامِ والزِّنى والخَمْرِ ونحوها ، فكُلُّ المسلمين علماءُ بها ، وإنْ كان من دقائقِ الأفعالِ والأقوالِ ، وممَّا يتعلَّقُ بالاجتهادِ لم يكن للعوامِ مدْخلٌ فيه ، ولا لهم إنكارُه؛ بل ذلك للعلماء »[2] .

وإنَّما اشتُرِطَ ذلك في العاميِّ ؛ لأنَّه قد يُوقعُه جهلُه في الأمرِ بالمُنكرِ ، والنَّهي عن المعروفِ وهو لا يدري، والله تعالى يقولُ: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ** ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، فمنْ أينَ له البصيرةُ في دقائقِ العلمِ وهو عاميٌّ جاهلٌ[3] ؟! .

الرابع : أن لا يؤدِّي إنكارُه إلى ضررٍ مُتعدٍ على غيره ؛ كالأهلِ أو عمومِ المسلمين .

تنبيهات :-

وقبل الخروجِ من هذا البحثِ المُهمِّ ؛ كان من المُناسبِ أن نقفَ مع بعضِ الأخطاءِ التي لم يفتأ يتناقلها أهلُها بين الحين والآخرِ دون علمٍ أو حُجَّةٍ ، لذا نجدهم يستدلُّون ببعضِ الآياتِ في غيرِ محلِّها ، مثل :

الأولى : قولُه تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، ويقصدون بهذه الآية : أنَّ الإنسانَ عليه أن يستقيم في نَفْسِه، فإذا فعلَ ذلك فلا شأنَ له بالآخرين .

وهذا فهمٌ خاطئٌ ولا شك ؛ وقد كفانا مؤونةَ الرَّدِّ على هؤلاء أبو بكرٍ الصديق

---

(١) انظر السابق (٣/٧–٨) .

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢/٢٣) .

(٣) انظر (حكم تغيير المنكر . .) لعبد الآخر (٤٥–٥٠) .

- رضي الله عنه - حيث قال : « يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونَها على غير مواضعها : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وإنَّما سمعنا النبيَّ ﷺ يقول: « **إنَّ النَّاسَ إذا رَأوْا الظَّالِمَ ، فلم يأخُذُوا على يَدِهِ ، أوْشَكَ أنْ يَعُمَّهُم الله بعقابٍ** » »[1] أحمد ، وأبو داود.

والمقصود من ذلك ؛ أنَّ المؤمنين إذا قاموا بواجبهم في (الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر) فإنَّهم يكونون قد اهْتَدَوْا ، وبعد ذلك لا يَضُرُّهم ضَلالُ مَنْ ضَلَّ ، قال ابن تيمية : « وإنَّما يَتِمُّ الاهتداءُ إذا أُطيعَ الله ، وأُدِّي الواجبُ من الأمرِ والنَّهي وغيرهما »[2] .

الثانية : إنَّ المُنكرات التي يُتَعرَّضُ لها بالإنكارِ هي المُنكراتُ الظَّاهرةُ المُعْلَنةُ، أمَّا المُنكراتُ الباطنةُ فإنَّ أمْرَها مَوْكُولٌ إلى صاحبِها ، وإذا ظَهَرت المُنكراتُ التي أنكرتْها الشَّريعةُ وَجَبَ إنكارُها بقطعِ النَّظرِ عن سَرِيرَةِ صاحبِها أو نيَّته فيها ، فعند ذلك لا يجوزُ إعلانُ البدعِ والمنكرات ، أو ما هو مُخالفٌ للشرع ؛ فإذا أُعْلِنت وجبَ إنكارُها علانيةً ، وعُقُوبةُ مُعْلِنها علانيةً أيًّا كان ، كلُّ هذا حفاظًا على شرائعِ الإسلامِ .

وحاصلُ ما هنالك: أنَّ المُنكرَ إذا كان مَسْتورًا فمصيبتُه على صاحبه خاصةً، فإذا أظْهرَه صاحبُه كان ضرَرُه عامًّا ، فمن ابْتُليَ بفعلِ المعاصي سرًّا فَعَلِمَ شخصٌ مِنَ أمْرِه ما عَلِمَ ، فنصحَه سرًّا وسَترَ عليه فلم يَنْتِه ، وَجَبَ على النَّاهي أن يفعلَ ما يَنْكَفُّ به المنكرُ من الهجرِ ، أو غيره إذا كان ذلك أنفعُ في الدِّين ، أمَّا إذا أظْهَرَ المُنْكَرَ فإنَّه يَجبُ الإنكارُ عليه علانيةً[3] .

نسأل الله أن يجعلنا ممن يحلون حلاله، ويحرمون حرامه؛ آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩) ، وأبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨ ، ٣٠٥٧) ، وهو صحيحٌ ، انظر (صحيح أبي داود) للألباني (٣٦٤٤) .

(٢) انظر (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (٤٨٠/١٤) .

(٣) انظر (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (١٠٥/٢٨، ٢١٧-٢١٨) ، (١٧٥/٢٣) .

قصة أصحاب الأخدود

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۞ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۞ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ .

مع قصة جديدة من قصص القرآن والتي تشير إلى معنى من معاني التضحية من أجل الزود عن حرمة الدين، والموت على الحق؛ وأنه خير من حياة الهون والكفر.

فسورة أصحاب الأخدود؛ سورة مكية بدأت بقسم يقسمه الله تعالى ببعض مخلوقاته، والله يقسم بما يشاء؛ فأقسم جلّ ثناؤه ب ﴿ والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ ﴾ .

واختلف أهل التأويل في معنى البروج في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُني بذلك: والسماء ذات القصور. قالوا: والبروج: القصور، وعن ابن عباس: قصور في السماء، وقال غيره: بل هي الكواكب. وقيل: البروج: النجوم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج: جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله: ﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَة ﴾ ، وهي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجا، فمسير القمر في كلّ برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منــزلاً، ثم يستسرّ ليلتين، ومسير الشمس في كلّ برج منها شهر.

ثم يقسم سبحانه ب (وَالْيَوْمِ المَوْعُودِ) وهو اليوم الذي وعد الله عباده، لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة.

فقد ورد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « الْيَوْمُ المَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيامَةِ ».

وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى ﴿ **وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾ ، فقال بعضهم: هو يوم الجمعة، وقالوا: وهو يوم عرفة.

وقيل: الشاهد: الإنسان، والمشهود: يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

وتبدأ القصة

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ . فمن هم أصحاب الأخدود ؟.

في صحيح مسلم عن صُهَيب:

أن رسول الله ﷺ قال: « كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر؛ فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فٱبعث إليّ غلامًا أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلامًا يعلمه؛ فكان في طريقه إذا سَلَك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه؛ فإذا أتى الساحر ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحرَ فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فٱقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني؛ أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلي؛ فإن ٱبتليت فلا تدلَّ عليّ.

وكان الغلام يبريء الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفِي الله؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك: مَنْ ردّ عليك بصرك؟ قال ربيِّ. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربُّك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الغلام؛ فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! أقد بلغ من سحرك ما تبريء الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! قال: إنا لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب؛ فجيء بالراهب، فقيل له: ٱرجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشقه حتى وقع شِقاه. ثم جيء بِجليس الملِكِ فقيل له: ٱرجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه، فشقه به حتى وقع شِقاه.

ثم جيء بالغلام فقيل له: ٱرجع عن دينك، فأبي فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: ٱذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فٱصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذِروته فإن رجع عن دينه وإلا فٱطرحوه؛

فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا.

وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناسَ في صعيد واحد، وصلبه على جذْع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات .

فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نـــزل بك حَذرك، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود في أفواه السِّكك ، فخدّت ، وأضرم النيران ، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها - أو قيل له اقتحم - ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبيّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمَّة اصبِري فإنك على الحق » .

وروى الترمذي أنه: « **وكان على طريق الغلام راهب في صومعة** » قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين. وفيه: « **أن الدابة التي حَبَستِ الناس كانت أسدًا، وأن الغلام دُفن - قال - فيذكر أنه أُخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل** » . وقال: حديث حسن غريب. ورواه الضحاك عن ابن عباس قال: كان مَلك بنَجْران، وفي رعيته رجل له فتى، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب، فدخل في دين الراهب؛ فأقبل يومًا فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم، فأخذ حجرًا فقال باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلها. وذكر نحو ما تقدم. وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك: لا إله إلا إله عبد الله بن ثامر؛ وكان اسمَ الغلام، فغضب الملك، وأمر فخُدّت أخاديد، وجُمع فيها حطب ونار، وعَرَض أهل مملكته عليها، فمن رجعِ عن التوحيد تركه،

ومن ثبت على دينه قذفه في النار.

وجيء بٱمرأة مُرْضعٍ فقيل لها ٱرجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدك — قال- فأشفقت وهمَّت بالرجوع، فقال لها الصبيّ المُرْضَع: يا أمي، ٱثبتُي على ما أنت عليه، فإنما هي غميضة؛ فألقَوها وٱبنها.

وروي عن ٱبن عباس أن النار ٱرتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعًا فأحرقتهم.

وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مَبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحبيل بن تُبّع الحميري، وكانوا نيفًا وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدودًا وأحرقهم فيه.

وحكى الماورديّ، والثعلبيّ عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذُوا رجالاً ونساء، فخدّوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها. وقيل لهم: تكفرون أو تُقْذَفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه.

ورُوي نحو هذا عن ٱبن عباس. وقال عليّ رضي الله عنه: إن ملكًا سُكر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعًا في رعيته فلم يقبلوا، فأشارت إليه أن يخطُب بأن الله - عز وجل - أحل نكاح الأخوات، فلم يُسمع منه. فأشارت إليه أن يخدّلهم الأخدود، ويلقي فيه كل من عصاه. ففعل. قال: وبقاياهم ينكِحون الأخوات وهم المَجُوس، وكانوا أهل كتاب.

ورُوي عن عليّ أيضًا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيًا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فٱتبعه ناس، فحذّلهم قومهم أخدودًا، فمن ٱتبع النبيّ رمي فيها، فجيء بٱمرأة لها بُنَيّ رضيع فجزِعت، فقال لها: يا أمّاه، ٱمضي ولا تجزعي.

وقال أيوب عن عكرمة قال: الأخدود ثلاثة؛ واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أمّا الذي بالشام فأنطنيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نُواس.

فلم ينــزل الله في الذي بفارس والشام قرآنًا، وأنــزل قرآنًا في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة، والآخر بنجران، آجر أحدهما نفسه، فجعل

يعمل ويقرأ الإنجيل؛ فرأت ٱبنة المستأجِر النورَ في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباها فأسلم. وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وٱمرأة، بعد ما رفع عيسى، فخدّ لهم يوسف بن ذي نُواس بن تُبَّعٍ الحِميريّ أخدودًا، وأوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار، وقال: من رجع عن دين عيسى لم يقذف. وإن ٱمرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها ٱبنها: يا أمّاه، إني أرى أمامك نارًا لا تُطْفَأ، فقَذَفا جميعًا أنفسهما في النار، فجعلها الله وٱبنها في الجنة. فقُذِف في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانًا.

وقال ٱبن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له قيميون، وكان رجلاً صالحًا مجتهدًا زاهدًا في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحًا في القرى، لا يُعْرَف بقرية إلا مضى عنها، وكان بَنَّاء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القُرَظيّ: وكان أهل نَجْرانَ أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريبًا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نـــزل بها قيميون، بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامرُ عبدَ الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم، فوحَّد الله وعبده، وجعل يسأله عن ٱسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه، فكتمه إياه وقال: يا ابن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن ٱبنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخِل عليه بتعليم ٱسم الله الأعظم، عمد إلى قِداح فجمعها، ثم لم يُبق لله تعالى ٱسمًا يعلمه إلا كتبه في قِدْح، لكل اسم قِدْح؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها نارًا، ثم جعل يقذفها فيها قِدْحًا قِدْحًا، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقِدحه، فوثب القِدْح حتى خرج منها لَم يضرَّه شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم ٱسم اللهَ الأعظم الذي كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يٱبنَ أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدًا به ضُرٌّ إلا قال: يا عبد الله، أتوحِّد الله وتدخل في ديني، فأدعوَ الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحِّد الله ويسلم، فيدعو الله له فيُشْفَى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فٱتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رُفِع شأنه إلى ملكهم، فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل

قريبي، وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلنّ بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح عن رأسه، فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجرانَ، بحار لا يلقَي فيها شي إلا هلك، فيلقَى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه قال له عبدالله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله وتؤمن بما آمنت به؛ فإنك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليّ وقتلتني.

فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعصا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانَه، وآجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكْمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نُواس اليهوديّ بجنوده من حمْير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فآختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود؛ فحَرَّق بالنار وقتل بالسيف، ومَثَّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفًا. وقال وهب بن منبه: آثني عشر ألفًا. وقال الكلبيّ: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفًا. قال وهب: ثم لما غَلَب أرياط على اليمن خرج ذو نُواس هاربًا، فاقتحم البحر بفرسه فغرِق.

قال آبن إسحاق: وذو نُواس هذا آسمه زُرْعة بن تُبّان أسعد الحميريّ، وكان أيضًا يسمى يوسف، وكان له غدائر من شعر تَنُوسُ، أي تضطرب، فسمى ذا نُواس؛ وكان فعل هذا بأهل نجران، فأفلت منهم رجل آسمه دَوْسٌ ذو ثَعْلَبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر؛ ألقى نفسه فيه.

قال الإمام القرطبي: قال علماؤنا: أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية — أي آية الأخدود – ، ما كان يلقاه من وَحَّد قبلهم من الشدائد، يُؤنِّسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسّوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم.

فالصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبرًا عن لقمان: ﴿ **يابُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ**

ٱلْأُمُورِ ﴾ ، وروى أبو سعيد الخُدرِيّ أن النبي ﷺ قال: « **إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر** » .

ورَوَى محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبي ﷺ قالت: كنت أوضيء النبي ﷺ، فأتاه رجل، قال: أوصني: فقال: « **لا تشرك بالله شيئًا وإن قُطِّعت أو حُرِّقْت بالنار...** » الحديث.

ولقد امتُحِن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصَّلْب والتعذيب الشديد، فصبروا و لم يلتفتوا إلى شيء من ذلك. فيعلم من ذلك أن المؤمن يبتلى، فمن صبر ورضي فله الرضى، ومن سخط؛ فله السخط!.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه القصة: وقد روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قصة أصحاب الأخدود، وفيها: « أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل مصلحة ظهور الدين » ؛ ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه؛ إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

فإذا كان الرجل يفعل ما يعتقد أنه يقتل به لأجل مصلحة الجهاد، مع ان قتله نفسه أعظم من قتله لغيره: كأن ما يفضى إلى قتل غيره لأجل مصلحة الدين التي لا تحصل إلا بذلك، ودفع ضرر العدو المفسد للدين والدنيا الذي لا يندفع إلا بذلك أولى. وإذا كانت السنة والإجماع متفقة على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل: قتل، وإن كان المال الذي يأخذه قيراطًا من دينار. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون حرمه فهو شهيد » فكيف بقتال هؤلاء الخارجين عن شرائع الإسلام، المحاربين لله ورسوله، الذين صولهم وبغيهم أقل ما فيهم.

فإن قتال المعتدين الصائلين ثابت بالسنة والإجماع، وهؤلاء معتدون صائلون على المسلمين في أنفسهم، وأموالهم، وحرمهم، ودينهم. وكل من هذه يبيح قتال الصائل عليها. ومن قتل دونها فهو شهيد، فكيف بمن قاتل عليها كلها، وهم من شر البغاة المتأولين الظالمين.

لكن من زعم أنهم يقاتلون كما تقاتل البغاة المتأولون فقد أخطأ خطأ قبيحًا، وضل ضلالاً بعيد؛ فإن أقل ما في البغاة المتأولين أن يكون لهم تأويل سائغ خرجوا به؛ ولهذا قالوا:

إن الإمام يراسلهم، فإن ذكروا شبهة بينها، وإن ذكروا مظلمة أزالها. فأي شبهة لهؤلاء المحاربين لله ورسوله، الساعين في الأرض فسادًا، الخارجين عن شرائع الدين. ولا ريب أنهم لا يقولون انهم أقوم بدين الإسلام علمًا وعملاً من هذه الطائفة؛ بل هم مع دعواهم الإسلام يعلمون أن هذه الطائفة أعلم بالإسلام منهم، وأتبع له منهم. وكل من تحت أديم السماء من مسلم وكافر يعلم ذلك، وهم مع ذلك ينذرون المسلمين بالقتال، فامتنع أن تكون لهم شبهة بينة يستحلون بها قتال المسلمين، كيف وهم قد سبوا غالب حريم الرعية الذين لم يقاتلوهم؟! حتى ان الناس قد رأوهم يعظمون البقعة ويأخذون ما فيها من الأموال، ويعظمون الرجل ويتبركون به ويسلبونه ما عليه من الثياب، ويسبون حريمه، ويعاقبونه بأنواع العقوبات التي لا يعاقب بها إلا أظلم الناس وأفجرهم، والمتأول تأويلاً دينيًا لا يعاقب إلا من يراه عاصيًا للدين، وهم يعظمون من يعاقبونه في الدين ويقولون انه أطوع لله منهم. فأي تأويل بقي لهم؟! ثم لو قدر أنهم متأولون لم يكن تأويلهم سائغًا؛ بل تأويل الخوارج ومانعي الزكاة أوجه من تأويلهم. والله أعلم.

قلت: وبهذا يعلم أن المرء قد يفتدي نفسه لمصلحة أعلى من نفسه وذاته، وهي مصلحة دينه الذي يموت من أجله؛ فإذا كانت الشهادة تُنال من أجل الزود عن بعض الدراهم؛ فكيف تكون الشهادة من أجل رفع كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فكم من حي وهو في نفسه ميت، وكم من ميت وهو عند الله حي عزيز.

(والحمد لله رب العالمين)

❊ ❊ ❊

قصة لوط عليه الصلاة والسلام

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ ۞ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۞ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۞ إِنَّا مُنــزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۞ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

كان قوم النبي لوط يأتون نوعًا من أنواع الفواحش لم يسبقهم بها أحد من الأمم، ألا وهي إتْيان الذكور.

وقد ذكرها الله باسم الفاحشة ليبيِّن أنها زنًى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

فأرسل الله لهم لوطًا نبيًا؛ ينهاهم عن الفاحشة، ويأمرهم بالمعروف، فاستهانوا به، وكذبوه؛ قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوط من أرسله الله إليهم من الرسل حين قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ لُوطٌ: ألاَ تَتَّقُونَ الله أيها القوم إنّي لَكُمْ رَسُولٌ من ربكم أمينٌ على وحيه، وتبليغ رسالته فاتَّقُوا اللَّهَ في أنفسكم، أن يحلّ بكم عقابه على تكذيبكم رسوله وأطِيعُون فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد وَما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ فلا أبتغي منكم جزاءً ولا ثوابا إنْ أجْرِيَ إلاَّ على رَبِّ العالَمِينَ.

فشخص لهم النبي لوط مرضهم الذي يوردهم موارد التهلكة فقال : ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ** ﴾ .

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قول لوط لقومه أئِنَّكُمْ أيها القوم لَتأْتُونَ الرِّجالَ في أدبارهم وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ فتقطعون المسافرين عليكم بفعلكم الخبيث، وذلك أُهم فيما ذُكر عَنْهم كانوا يفعلون ذلك بمن مرّ عليهم من المسافرين، من ورد بلادهم من الغرباء.

وَتأْتونَ فِي ناديكُمُ الْمُنْكَرَ؛ فقد كان ذلك أنهم كانوا يتضارطُون في مجالسهم.

وقد ورد عن أمّ هانىء، قالت: سألت النبيّ ﷺ عن قوله وتَأْتُونَ فِي ناديكُمُ الْمُنْكَرَ قالَ: « **كانُوا يَخْذِفُونَ أهْلَ الطَّرِيقِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ** » فهو المنكر الذي كانوا يأتون.

وورد أنه كان يجامع بعضهم بعضا في المجالس؛ فكان يأتي بعضهم بعضا وهم ينظرون، وكانوا يعترضون بالراكب فيأخذونه ويركبونه.

﴿ **فَمَا كانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ .

فلم يكن جواب قوم لُوط إذ نهاهم عما يكرهه الله من إتيان الفواحش التي حرمها الله إلا أن قَالوا: ائتنا بعذاب الله الذي تعدنا، إن كنت من الصادقين فيما تقول، والمنجزين لما تعد. استكبارًا منهم وسخرية.

بل وازداد عنادهم؛ فقالوا: ﴿**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ**﴾ أي سنخرجك من بين أظهرنا وبلدنا؛ فرد عليهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكران في أدبارهم من القالين، ومن المبغضين، المنكرين فعله. ﴿ **قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القالِينَ** ﴾ .

فاستغاث لوط بربه حين توعده قومه بالإخراج من بلدهم إن هو لم ينته عن نهيهم عن ركوب الفاحشة، فقال: ﴿ **رَبِّ نَجِّني وَأَهْلِي** ﴾ من عقوبتك إياهم على ما يعملون من إتيان الذكران ﴿ **فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَه** ﴾ من عوقبتنا التي عاقبنا بها قوم لوط أجْمعينَ إلاَّ عَجُوزا فِي الغابِرِينَ يعني في الباقين، لطول مرور السنين عليها، فصارت هَرِمة، فإنها أهْلِكت من بين أهل لوط، لأنها كانت تدلّ قومها على الأضياف.

وقد قيل: إنما قيل من الغابرين لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، وأنها إنما أصابها الحجر بعد ما خرجت عن قريتهم مع لوط وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطر على بقايا قوم لوط من الحجارة . بما سيأتي ذكره إن شاء الله.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَلما جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهِيمَ بالبُشْرَى ﴾ من الله بأنه سيولد له إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ﴿ قالُوا إنَّا مُهْلِكُوا أهْلِ هَذِه القَرْيَة ﴾؛ قالت رسل الله لإبراهيم: إنا مهلكو أهل هذه القرية، وهي قرية سَدُوم، وهي قرية قوم لوط فإنَّ أهْلَها كانُوا ظالِمِينَ بمعصيتهم الله، وتكذيبهم رسول الله ﷺ.

﴿ ولَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إبْرَاهِيمَ بالبُشْرَى ﴾ فلوط - كما نقل القرطبي - هو ٱبن عم إبراهيم عليه السلام، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنـزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونـزلوا عنده، وكان كل من نـزل عنده يحسن قِراه وضيافته، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافًا.

قال ٱبن عباس: أن الرسل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ وقال السّدي: كانوا أحد عشر ملَكًا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاءة وجمال بارع.

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ وهو العجل المشويّ. وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار. وهو معروف إلى الآن بأرض الجزيرة العربية.

فالسُّنة إذا قُدِّم للضّيف الطعام أن يبادر المقدِّم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضّيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنـزل المبادرة بالقبول .

فلما جاء النبي إبراهيم بالطعام؛ إذ الرسل قد قبضوا أيديهم؛ فنكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروي أنهم كانوا يَنكُتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم، فلما رأى ذلك منهم. ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً ﴾ . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرًا؛ فقالت الملائكة ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ ﴾ أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس.

وإبراهيم عليه السلام في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوّم وحده بمائة رجل. فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رسل الله، ففرح بذلك، فضحكت ٱمرأته سرورًا بفرحه، وقيل: إنها كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينـــزل بهم عذاب فضم لوطًا إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت.

وذكر الطبريّ أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعامًا إلا بثمن؛ فقال لهم: « ثمنه أن تذكروا الله في أوّله وتحمدوه في آخره » فقال جبريل لأصحابه: بحق ٱتخذ الله هذا خليلاً.

قال علماؤنا: ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل. وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسدًا وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضّيافة حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى فجأة، وكذلك امرأته. ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ فإنه لما ولد لإبراهيم إسمٰعيل من هاجر؛ تمنّت سارة أن يكون لها ابن، وأَيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيًا ويلد نبيًا، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها، ونبي ابن نبي.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۞ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۞ يٰإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

لما بُشر إبراهيم عليه السلام بإسحق ويعقوب. وقيل: بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، جادل إبراهيم رسل الله، وأضافه إلى نفسه.

وهذه المجادلة رواها حُميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لما قالوا ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أهلكوهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة – أو خمسة شك حميد

- قالوا: لا. قال قَتادة: نحوًا منه؛ قال فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم.

وقيل إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أهلكوها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] .

وقال عبد الرحمن بن سَمُرة: كانوا أربعمائة ألف.

وقيل وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف. أي أربعة ملايين كافر!!؛

فقالت الملائكة: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

﴿ لَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط - وهما تستقيان - بالملائكة ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أَبِها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم، وساءه مجيئهم ؛ ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ .

فلما رأت ٱمرأة لوط الكافرة، الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم: إن لوطًا قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً؛ وكذا وكذا؛ فحينئذ جاؤوا يُهرعون إليه.

ويروى أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطًا في حرث له. وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سَدوم؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم؛ فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض – وقد كان الله عزّ وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات – فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة.

فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعًا، وقال: ﴿ **هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي** ﴾.

وقد اختلف في قوله: « هَؤُلاءِ بَنَاتِي » فقيل: كان له ثلاث بنات من صُلبه. وقيل: بنتان؛ زيتا وزعوراء؛ فقيل: كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ٱبنتيه. وقيل: ندبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزًا ثم نسخ؛ فزوج رسول الله ﷺ بنتًا له من عُتْبَة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين.

وقالت فرقة – منهم مجاهد وسعيد بن جُبير – أشار بقوله: « بَنَاتِي » إلى النساء جملة؛ إذ نبيّ القوم أب لهم؛ ويقوّي هذا أن في قراءة ابن مسعود: « ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أنفسهم وَأَزواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم » . وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة و لم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنــزير أحل لك من هذا.

وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا.

وقال ٱبن عباس: كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته.

﴿ **فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي** ﴾ أي لا تهينوني ولا تذلّوني. ﴿ **قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ** ﴾ ، روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من ردّ في خِطبة ٱمرأة لم تحل له أبدًا ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ**

حَقٍّ ﴾ وبعد ألاّ تكون هذه الخاصيّة. فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا همّ قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك. ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف.

فلما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونًا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي أنصارًا وأعوانًا. وقال ٱبن عباس: أراد الولد.

ويروى أن لوطًا عليه السلام لما غلبه قومه، وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنحّ عن الباب؛ فتنحّى وانفتح الباب؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر: ٣٧] .

وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم.

وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين مَن بَعُد ومَن قَرُب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقًا، ولا ٱهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط قومًا هو أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه.

فلما رأت الملائكة حزن لوط وٱضطرابه ومدافعته أمروه أن يترك القرية؛ فقالوا: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ .

فخرج لوط بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له: إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطًا سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت ٱبنتاه فلا يهولنّك ما ترى. فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.وجاءهم العذاب؛ وإذا بجبريل عليه السلام قد أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس سدوم – وهي القرية

العظمى - وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها؛ حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم، لم تنكفىء لهم جرّة، و لم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة. نسال الله العافية في الدنيا والآخرة.

وهكذا كانت نهاية قوم لوط أصحاب الفواحش الشاذة والتي يبقى وزر من عمل بمثلها على عاتق هؤلاء القوم . فهم أول من ابتدعها لا ينقص من وزر أحدهم شيء .

فلله الفضل والمنّة على يسرّه لأمة محمد ﷺ من فضائل النكاح بما شرّع الله على فطرة الله .

(والحمد لله رب العالمين)

❊ ❊ ❊

حكم من عمل بعمل قوم لوط

للعلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه؛ عدة أقوال؛ منها ما ذهب إليه الإمام مالك: يُرْجَم؛ أحْصِن أو لم يُحصَن. وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتلمًا. وروي عنه أيضًا: يرجم إن كان مُحْصَنًا، ويحبس ويؤدّب إن كان غير محصن. وهو مذهب عطاء والنخعيّ وٱبن المسيب وغيرهم.

وقال الشافعيّ: يحدّ حَدّ الزِّنَى قياسًا عليه.

واحتج مالك بقوله تعالى: ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** ﴾ [الحجر: ٧٤] . فكان ذلك عقوبة لهم وجزاءً على فعلهم. فإن قيل: لا حجة فيها لوجهين؛

أحدهما : أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم.

الثاني : أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها؛ فدلّ على خروجها من باب الحدود.

قيل: أمّا الأوّل فغلط؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها؛ منها هذه. وأمّا الثاني فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه. وهي حكمة الله وسنته في عباده. وبَقِي أمرُ العقوبة على الفاعلين مستمرًا. والله أعلم.

وقد رَوَى أبو داود وابن ماجه والترمذيّ والنسائي والدَّارَقُطْنِيّ أن رسول الله ﷺ قال: « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فٱقتلوا الفاعل والمفعول به** » .لفظ أبي داود وابن ماجه.

وعند الترمذيّ « **أحْصنا أو لم يحصنا** » .

وروى أبو داود والدارقطنيّ عن ٱبن عباس في البِكر يوجد على اللُّوطية قال: يرجم.

وقد رُوي عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه حرَّق رجلاً يُسمّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار. وهو رأي عليّ بن أبي طالب؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبيّ ﷺ وٱستشارهم فيه؛ فقال عليّ: إن هذا الذنب لم تَعْصِ به أُمّةٌ من الأُمم إلا أُمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم، أرى أن يُحرق بالنار.

فٱجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه. ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه. ثم أحرقهم هشام بن الوليد. ثم

أحرقهم خالد القَسْرِي بالعراق. ورُوي أن سبعة أُخذوا في زمن ابن الزبير في لِوَاط؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحْصِنوا فأمر بهم فخرجوا (بهم) من الحرم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا، وحدّ الثلاثة؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه.

فإن أتى بهيمة فقد قيل: يقتل هو و البهيمة.

وفي الباب حديث رواه أبو داود والدّارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: « **من وقع على بهيمة فاْقتلوه واْقتلوا البهيمة معه** » . فقلنا لابن عباس: ما شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل.

قال اْبن المنذر: إن يَكُ الحديث ثابتًا فالقول به يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرًا، وإن عزّره الحاكم كان حسنًا. والله أعلم.

وقد قيل: إن قتل البهيمة لئلا تُلْقِي خَلْقًا مُشَوَّهًا؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة. والله أعلم.

وقال محمد بن سِيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنــزير والحمار.

نعوذ بالله من الفطرة الممسوخة التي تردي صاحبها فيركب ذكرًا، أوحمارًا، أو خنــزيرًا؛ نسأل الله فطرة سوية، وعيشة رضية،

(والحمد لله رب العالمين)



قصة ذا النون عليه الصلاة والسلام

﴿ وَذَا ٱلنُّون إذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ .

مع قصة جديدة من قصص القرآن الكريم؛ قصة (ذا النون) .

قال أهل التفسير، والتاريخ: ذا النون هو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه. والنون الحوت. واسم النبي: يونس بن متى.

وعن ابن عباس: بعثه الله يونس إلى أهل قريته، فردّوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه. فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم فأعلم قومه الذين وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم. فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبحها أدلج ورآه القوم، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرّقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله، فاستقالوه، فأقالهم، وتنظّر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مرّ به مارّ، فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها. وعجُّوا إلى الله وتابوا إليه. فقبل منهم، وأخَّر عنهم العذاب.

قال: فقال يونس عند ذلك وغضب: والله لا أرجع إليهم كذّابا أبدا، وعدتهم العذاب في يوم ثم رُدّ عنهم ومضى على وجهه مغاضبا.

وقيل أن يونس قال: جرّبوا عليّ كذبا فذهب مغاضبا لربه حتى أتى البحر.

وفي رواية؛ إن يونس بن متى كان عبدا صالحا، وكان في خلقه ضيق. فلما حملت عليه أثقال النبوّة، ولها أثقال لا يحملها إلا قليل، تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل، فقذفها بين يديه، وخرج هاربا منها.

وقيل: إنما فعل ما فعل من ذلك كراهة أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم، واستَحْيَا منهم، ولم يعلم السبب الذي دفع به عنهم البلاء. وقال بعض من قال هذا

القول: كان من أخلاق قومه الذين فارقهم قتل من جرّبوا عليه الكذب، عسى أن يقتلوه من أجل أنه وعدهم العذاب، فلم ينـــزل هم ما وعدهم من ذلك.

وقال آخرون: بل إنما غاضب ربه من أجل أنه أمر بالمسير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل ربه أن يُنْظره ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: الأمر أسرع من ذلك و لم يُنْظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلاً ليلبسها، فقيل له نحو القول الأوّل. وكان رجلاً في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعلاً فذهب مغاضبا.

وقيل: ذهب مغاضبا لقومه لأن ذهابه عن قومه مغاضبا لهم، وقد أمره الله تعالى بالمُقام بين أظهرهم، ليبلغهم رسالته ويحذّرهم بأسه وعقوبته على تركهم الإيمان به والعمل بطاعته لا شك أن فيه ما فيه. ولولا أنه قد كان ﷺ أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه ويصفه بالصفة التي وصفه بها، فيقول لنبيه ﷺ: ﴿ **وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ .

وظنّ يونس عليه السلام أن الله لن يعاقبه على تركه قومه؛ فذهب إلى البحر، وهناك كان جند من جنود الله ينتظر تنفيذ الأمر الرباني.

﴿ **فالْتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُليمٌ فَلَوْلا أنهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾.

فمكث في بطن الحوت أربعين من بين ليلة ويوم، فأمسك الله نفسه، فلم يقتله هناك. فتاب إلى ربه في بطن الحوت، وراجع نفسه.

ونادى يونس ربه معترفا بذنبه، تائبا من خطيئته : ﴿ **إنْ لا إلهَ إلا أنْتَ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ قال: فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته بما كان سلف من العبادة والتسبيح، فجعله من الصالحين.

فكأن يونس يقول: لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ سُبْحانَكَ ما صنعتُ من شيء فلم أعبد غيرك، إنّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ حين عصيتك.

وقيل: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات. ثم حرّك رجله، فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا ربّ اتخذتُ لك مسجدا في موضع ما اتخذه أحد .

وعن عبد الله بن رافع، مولى أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: « **لَمَّا أَرادَ اللَّهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، أوْحَى اللَّهُ إلى الحُوتِ: أنْ خُذْهُ**

وَلا تَخْدِشْ لَهُ لَحْما وَلا تَكْسِرْ عَظْما فأخَذَهُ، ثُمَّ هَوَى به إلى مَسْكَنه منَ البَحْرِ فَلَمَّا انْتَهَى به إلى أسْفَلِ البَحْرِ، سَمِعَ يُونُسُ حِسًّا، فَقالَ في نَفْسه: ما هَذَا؟ قالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إلَيْه وَهُوَ في بَطْنِ الحُوت: إنَّ هَذَا تَسْبيحُ دَوَابِّ البَحْرِ، قالَ: فَسَبَّحَ وَهُوَ في بَطْنِ الحُوت، فَسَمِعَت المَلائكَةُ تَسْبيحَهُ، فَقالُوا: يا رَبَّنا إنَّا نَسْمَعُ صَوْتا ضَعيفا بأرْضٍ غَريبَة؟ قالَ: ذَاكَ عَبْدي يُونُسُ، عَصَاني فَحَبَسْتُهُ في بَطْنِ الحُوت في البَحْرِ. قالُوا: العَبْدُ الصَّالِحُ الَّذي كانَ يَصْعَدُ إلَيْكَ منْهُ في كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَة عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذلكَ، فَأَمَرَ الحُوتَ فَقَذَفَهُ فِي السَّاحِلِ كما قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى : وَهُوَ سَقيمٌ » .

وفي الخبر في وصف يونس عليه السلام: إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوّة تَفسَّخ تحتها تفسّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل، فمضى على وجهه مضي الآبق النادّ. وهذه المغاضبة كانت صغيرة. و لم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم.

وقال ابن مسعود: أبق من ربه أي من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان يتوعد قومه نـــزول العذاب في وقت معلوم، وخرج من عندهم في ذلك الوقت، فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم و لم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضبًا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدّد.

وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلاً ليلبسها فلم يُنظر، وقيل له: الأمر أعجل من ذلك –وكان في خلقه ضيق– فخرج مغاضبًا لربه؛ أي خرج مغاضبًا من أجل ربه، فغضب على قومه من أجل كفرهم بربه. وقيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارًّا بنفسه، و لم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله.

وفي رواية أخرى: أن يونس كان شابًا و لم يحمل أثقال النبوّة؛ ولهذا قيل للنبيّ ﷺ: ﴿ **وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ** ﴾ [القلم: ٤٨] . فإن يونس خرج مغاضبًا لقومه؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل.

وقالت فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضبًا للملك الذي كان على قومه. قال ابن عباس: أراد شعيبا النبي والملك الذي كان في وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى،

وكان غزا بني إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه، فيعمل على وحي ذلك النبي، وكان أوحى الله لشعيا: أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيًا قويًا أمينًا من بني إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل فإني ملق في قلوب ملوكهم وجبابرهم التخلية عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سماني لك؟ قال: لا. قال: فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء. فألحوا عليه فخرج مغاضبًا للنبي والملك وقومه، فأتى بحر الروم؛ فابتلي ببطن الحوت لتركه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ [الصافات: ١٤٢] والمليم من فعل ما يلام عليه. وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى.

وقيل: خرج و لم يكن نبيًا في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نينوى؛ ليدعو أهلها بأمر شعيبًا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله، فخرج مغاضبًا للملك؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به.

وقال القشيري: والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم.قلت: هذا أحسن ما قيل فيه.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتل فغضب، وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تجر. فقال أهلها: أفيكم آبق؟ فقال: أنا هو. وكان من قصته ما كان، وابتلي ببطن الحوت تمحيصًا من الصغيرة كما قال في أهل أحد: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢] إلى قوله: ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ [آل عمران: ١٤١]؛ فمعاصي الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجري تمحيص ويتضمن ذلك زجرًا عن المعاودة. وقيل: إنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقًا.

وذكر ابن أبي الدنيا حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال: حدّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى في الظلمات، وكانت ظلمات ثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر؛ فقال: ﴿ **أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ** ﴾ كهيئة

الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش.

وروي: أن الله تعالى أوحى إلى الحوت: « لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك » ؛ فسبحان الله الذي عطّل عمل أسنان الحوت وأمعاءه، وجعل يونس أمانة لدى الحوت!!.

روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: « **دعاء ذي النون في بطن الحوت لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ، لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له** » .

وقد قيل في: « لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ » إنه اسم الله الأعظم. رواه سعد عن النبي ﷺ.

وفي هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجاب يونس، وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ، نسأل الله قبول الدعاء.

❊ ❊ ❊

فضل الدعاء، وكيفية التداوي به

أخرج البخاري ومسلم في « صحيحيهما » من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: « **لاَ إِلَهَ إلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إلا اللهُ رَبُّ العَرش العَظِيمُ، لاَ إِلَهَ إلا اللهُ رَبُّ السماوات السبع، وَرَبُّ الأرض رَبُّ العَرش الكَرِيمُ** » .

وفي « **جامع الترمذي** » عن أنس، أن رسول الله ﷺ ، كان إذا حَزَبَهُ أمر، قال: « **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ برَحمَتكَ أَستَغيثُ** » .

وفيه: عن أبي هريرة، أن النبي ، كان إذا أهمهُ الأمرُ، رفع طرفه إلى السماء فقال: « **سُبحَانَ اللهِ العَظيم** » ، وإذا اجتهد في الدعاء قال: « **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ** » .

وفي « **سنن أبي داود** » عن أبي بكر الصديق، أن رسول الله ﷺ قال: « **دَعَواتُ المَكرُوب: اللهُم رَحمَتكَ أَرجُو، فَلاَ تَكلني إلَىٰ نَفسي طَرفَةَ عَينٍ، وَأَصلح لي شَأني كُلهُ، لاَ إِلَهَ إلا أَنتَ** » .

وفيها أيضًا عن أسماء بنت عُميس قالت: قال لي رسول الله : أَلاَ أُعَلمُك كَلمَات تَقُوليهن عندَ الكَرب، أَو في الكَرب: **اللهُ رَبي لاَ أُشركُ به شَيئًا**. وفي رواية أنها تقال سبعَ مرات.

وفي « مسند » الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قالَ: «**مَا أَصَابَ عَبدًا هَمٌّ وَلاَ حُزنٌ فَقَالَ: اللهُم إِني عَبدُكَ، ابنُ عَبدكَ، ابنُ أمتك نَاصيَتي بيَدكَ، مَاضٍ في حُكمُكَ، عَدلٌ في قَضاؤُكَ، أَسأَلُكَ بكُل اسمٍ هُو لَكَ سَميتَ به نَفسَكَ، أَو أَنــزلتَهُ في كتَابكَ، أَو عَلمتَهُ أَحَدًا من خَلقك، أو استَأثَرتَ به في علم الغَيب عندَكَ؛ أن تَجعَل القُرآنَ العَظيم رَبيعَ قَلبي، وَنُورَ صَدري، وجلاَ حُزني، وذَهَابَ هَمي. إلا أَذهَبَ اللهُ حُزنَهُ وَهَمهُ، وأَبدَلَهُ مَكَانَهُ فَرحًا** » .

وفي « **الترمذي** » عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسولُ الله ﷺ : « **دَعوةُ ذي النُّون إذ دَعَا رَبهُ وَهُوَ في بَطن الحُوت: لاَ إِلَهَ إلا أَنتَ سُبحَانَكَ إني كُنتُ منَ الظالمينَ، لَم يَدعُ بهَا رَجُلٌ مُسلمٌ في شَيءٍ قَطُّ إلا استُجيب لَهُ** » .

وفي رواية : « **إني لأَعلَمُ كَلمَةً لاَ يَقُولُهَا مَكرُوبٌ إلا فَرج اللهُ عَنهُ: كَلمَةَ أخي يُونُس** ».

وفي « **سنن أبي داود** » عن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: « **يا أبَا أُمَامَة مَا لي أرَاكَ في المَسجد في غَير وَقت الصلاَة** » فقال: هومٌ لَزِمَتني، وديونٌ يا رسولَ الله، فقال: « **ألاَ أعَلمُكَ كَلاَمًا إذَا أنتَ قُلتَهُ أذهَبَ اللهُ عَز وجَل هَمكَ وَقَضَىٰ دينَكَ** » قال: قلتُ: بلى يا رسولَ الله، قال: « **قُل إذَا أصبَحتَ وَإذَا أمسَيتَ: اللهُم إني أعُوذُ بكَ منَ الهَم والحزَن، وَأعُوذُ بكَ منَ العَجز والكَسَل، وأعُوذُ بكَ منَ الجُبن والبُخل، وأعُوذُ بكَ من غَلَبَة الدين وَقَهر الرجَال** » ، قال: ففعلتُ ذلك، فأذهب الله عز وجل همي، وقضى عني ديني.

وفي « **سنن أبي داود** » عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ : « **مَن لَزمَ الاستغفَارَ، جَعَلَ اللهُ لَهُ من كُل هَم فَرَجًا، ومن كُل ضيقٍ مَخرَجًا، وَرَزَقَهُ من حَيثُ لاَ يَحتَسب** » .

وفي « **المسند** » أن النبي كان إذا حَزَبَه أمرٌ، فَزعَ إلى الصلاة، وقد قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ .

وفي « **السنن** » : « **عَلَيكُم بالجهَاد، فإنهُ بَابٌ من أبواب الجَنة، يَدفَعُ اللهُ به عَن النُّفُوس الهَم والغَم** » .

ويذكر عن ابن عباس، عن النبي ﷺ : « **مَن كَثُرَت هُمُومُهُ وغُمُومُهُ، فَليُكثر من قَول: لاَ حَولَ وَلاَ قُوةَ إلا بالله** » .

وثبت في « **الصحيحين** » أنها كنــز من كنوز الجنة.

وفي الترمذي: « **أنها بابٌ من أبواب الجنة** » .

فإن أنت جرب العبد ذلك – بيقين – و لم يذهب عنه همه؛ فعليه ترسيخ توحيد الله في قلبه قولاً وعمل؛ ثم عليه بالآتي:

أولاً: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

ثانيًا: التوسُّل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهو أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحيُّ القيوم.

ثالثًا: الاستعانة به وحده.

رابعًا: إقرار العبد له بالرجاء.

خامسًا: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه

كيف يشاء، وأنه ماض فيه حُكمُه، عدلٌ فيه قضاؤه.

سادسًا: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع ، والنور في الظلمات، وأن يَستضيء به في ظلمات الشُّبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفي به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

سابعًا: الاستغفار.

ثامنًا: التوبة.

تاسعًا: جهاد النفس، وصدها عن هواها.

عاشرًا: لزوم الصلاة على وقتها، وإكثار النوافل.

حادي عشر: البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده سبحانه.

هذا وليُعلم أن في الدعاء أسرار تتفاوت بحسب القرب والتقوى ودرجة الإيمان .

فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

(والحمد لله رب العالمين)



قصة نوح عليه الصلاة والسلام

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۞ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَقَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلاَّ فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ .

أرسل الله تعالى نُوحا إلى قَوْمِهِ داعيهم إلى طاعته وتوحيده والبراءة من كلّ معبود سواه. فما لهم من معبود يجوز لهم أن يتعبدوه غيره.

ونوح: هو أبو البشر الثاني، ومن أولي العزم. وأبناؤه: سام، وحام، ويافث،

هذا وقد مكث نوح في قومه تسعمائة وخمسين عامًا؛ كما ورد ذلك في كتاب الله العزيز ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ .

روى الإمام الطبري: أن نوحًا أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاما يدعوهم إلى التوحيد، وفراق الآلهة والأوثان، فلم يزدهم ذلك من دعائه إياهم إلى الله من الإقبال إليه، وقبول ما أتاهم به من النصيحة من عند الله إلاّ فرارا.

وذُكر أنه أُرسل إلى قومه وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة.

فالله تعالى أرسل رسوله نوحًا لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب فالنذارة أولاً وهي عامة في جميع الأمم والرسل.

كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ، وذلك لإقامة الحجة أولاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وقد بين تعالى أن طاعة النّبي هي طاعة الله، فهي في الأصل طاعة لله لأنه مبلغ عن الله كما في قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ .

فالنذارة قد حصلت لقوم نوح قبل أن يعمهم العذاب، فلا حجة للكافرين بعد ذلك **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُوٓاْ إِلاَّ ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلاَّ ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾** .

وقد وردت الآيات في محاجة نوح قومه بصورة متعددة في كتاب الله، فما كان منهم إلا أن هموا بقتله، والبطش به، وشوشوا على دعوته بشبه باطلة قاصدين رفض الحق، وصادين عن سبيل الله؛ فلذلك استحقت عليهم كلمة الله بأن يكونوا أصحاب النار وأهلها.

عن عبيد بن عمير الليثي: كان قوم نوح يبطشون به؛ فيخنقونه حتى يغشي عليه، فإذا أفاق قال: اللهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتدّ عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من القرن الذي قبله، حتى إن كان الآخرُ منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنونا لا يقبلون منه شيئا. حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله تعالى، كما قصّ الله علينا في كتابه: **﴿ رَبِّ إني دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلاً ونَهارا فَلم يَزِدْهُم دُعائي إلاَّ فِرارا ﴾** ، حتى **﴿ قالَ رَبِّ لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيَّارا إنَّكَ إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إلاَّ فاجِرا كَفَّارا ﴾** .

فلما شكا ذلك منهم نوح إلى الله واستنصره عليهم، أوحي الله إليه **﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلاَ تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾** .

فأقبل نوح على عمل الفلك، ولَهِيَ عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلا هو. وجعل قومه يمرّون به وهو في ذلك من عمله، فيسخرون منه ويستهزئون به، فيقول: **﴿ إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كما تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقيمٌ ﴾** .

ويقولون له: يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوّة قال: وأعقم الله أرحام النساء، فلا يولد لهم ولد؛ ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعا، وأن يجعله ثلاثة أطباق: سفلاً ووسطًا وعلوًا، وأن يجعل فيه كُوًى. ففعل نوح كما أمره الله، حتى إذا فرغ منه وقد عهد الله إليه إذا جاء أمرنا وفار التنور فاحمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق

عليه القول ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل، وقد جعل التنور آية فيما بينه وبينه فقال ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ﴾ . وقوله: وَفَارَ التَّنُّورُ معناه: انبجس الماء من وجه الأرض، وفار التنور، وهو وجه الأرض.

وقيل: إذا طلع الفجر.

فلما فار التنور حمل نوح في الفلك من أمره الله، وكانوا قليلاً كما قال الله، وحمل فيها من كلّ زوجين اثنين مما فيه الروح والشجر ذكر وأنثى، فحمل فيه بنيه الثلاثة: سام وحام ويافت ونساءهم، وستة أناس ممن كان آمن به، فكانوا عشرة نفر: نوح وبنوه وأزواجهم، ثم أدخل ما أمره به من الدوابّ وتخلّف عنه ابنه يام، وكان كافرًا.

وعن ابن عباس، قال: لما كان نوح في السفينة، قرض الفأر حبال السفينة، فشكا نوح، فأوحي الله إليه فمسح ذنب الأسد فخرج سنّوران. وكان في السفينة عذرة، فشكا ذلك إلى ربه، فأوحي الله إليه، فمسح ذنب الفيل، فخرج خنـــزيران.

وورد أنه لما كانَ آخرَ زَمان نوح ذهب فغَرَس شَجَرَةً، فعَظُمَتْ وذهَبَتْ كُلَّ مَذْهَب، ثُمَّ قَطَعَها، ثُمَّ جَعَل يَعْمَلُ سَفينَةً، ويَمُرُّونَ فيسألُونَهُ، فَيَقُولُ: أعْمَلُها سَفينَةً، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: تَعْمَلُ سَفينَةً في البَرّ فكَيْفَ تَجْري؟ فَيَقُولُ: سَوْفَ تَعْلَمُونَ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْها وَفارَ التَّنُّورُ وكَثُرَ الماءُ في السِّكَك خَشيَتْ أُمَّ الصَبيّ عَلَيْه، وكانَتْ تُحبُهُ حُبًّا شَّديدا، فخَرَجَتْ إلى الجَبَل حتى بَلَغَتْ ثُلُثَهُ فَلَمَّا بَلَغها الماءُ خَرَجَتْ حتى بَلَغَتْ ثُلُثي الجَبَل فَلَمَّا بَلَغها الماءُ خَرَجَتْ حتى اسْتَوَتْ على الجَبَلِ فَلَمَّا بَلَغَ الماءُ رَقَبَتَها رَفَعَتْهُ بينَ يَدَيْها حتى ذَهَبَ بِها الماءُ، فَلَوْ رَحِمَ اللَّهُ مِنْهُمْ أحَدا لَرَحِمَ أُمّ الصَّبِيّ.

وذُكر أن طول السفينة ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسون ذراعا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعا، وبابها في عرضها.

وقيل: كان طول سفينة نوح ألف ذراع ومئتي ذراع، وعرضها ستّ مئة ذراع.

وعن ابن عباس، قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها قال: فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب، فأخذ كفًّا من ذلك التراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: فضرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. قال

له عيسى: هكذا هلكت؟ قال: لا، ولكن متّ وأنا شاب، ولكني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبْت.

قال: حدِّثنا عن سفينة نوح قال: كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع، وعرضها ستّ مئة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدوابّ، أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنـــزير وخنـــزيرة، فأقبلا على الروث.

فلما وقع الفأر بحبل السفينة يقرضه، أوحى الله إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت، قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت، قال: فطوّقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت.

قال: فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا، فيجلس معنا، ويحدثنا؟. قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، قال: فعاد ترابا!!.والله أعلم بصحة تلك الرواية التي رواها الطبري والقرطبي وغيرهما.

وقيل أن نوحًا عمل السفينة في أربع مئة سنة، وأنبت الساج أربعين سنة حتى كان طوله أربع مئة ذراع، والذراع إلى المنكب.

وهكذا حقت كلمة الله على الذين كفروا، ونجي نوح والذين آمنوا معه، وأغرق الذين ظلموا أنفسهم.

(والحمد لله رب العالمين)



بعض الآيات ذات الدلالات في قصة نوح

الآية الأولى: ﴿ **قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ** ﴾ .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح: أنه قال لقومه: ﴿ **أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أي أخبروني ﴿ **إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى** ﴾ أي على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إلي من التوحيد والهدى، فخفي ذلك كله عليكم، و لم تعتقدوا أنه حق، أيمكنني أن ألزمكم به، وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل الله علي بها، ورحمني بإيتائها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن كان واضحًا جليًا لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله جل وعلا إليه.

الآية الثانية: ﴿ **وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾.

قال نوح لقومه بما معناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يفنيها شيء، فأدعوكم إلى اتباعي عليها. وَلا أَعْلَمُ أيضا الغَيْبَ وما خفي من سرائر العباد، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله، فأدّعي الربوبية وأدعوكم إلى عبادتي. وَلا أَقُولُ أيضا إنّي مَلَكٌ من الملائكة أرسلت إليكم، فأكون كاذبا في دعواي ذلك، بل أنا بشر مثلكم كما تقولون، أُمرت بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم. ﴿ **وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُم اللَّهُ خَيْرا** ﴾ فلا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله ووحدوه الذين تستحقرهم أعينكم، وقلتم إنهم أراذلكم: لن يؤتيكم الله خيرا، وذلك الإيمان بالله. ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ وهو أعلم بضمائر صدورهم واعتقاد قلوبهم، وهو وليّ أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهروا الإيمان بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحلّ ذلك. ﴿ **إِنّي إذا لِمنَ الظَّالمِينَ** ﴾؛ فإني إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان بالله: ﴿ **لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا** ﴾، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم مني بما في نفوسهم وطردهم بفعلي ذلك، أكون بذلك مِن الفاعلين ما ليس لهم فعله المعتدين ما أمرهم الله به وذلك هو الظلم.

الآية الثالثة: ﴿ **وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالاً في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجانًا من غير أخذ أجرة في مقابله.

وبين في آيات كثيرة: أن ذلك هو شأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، كقوله في سبأ عن نبينا ﷺ : ﴿ **قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ . وقوله فيه أيضًا في آخر سورة ص: ﴿ **قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ . وقوله في الطور والقلم ﴿ **أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ** ﴾.

وقوله في الفرقان: ﴿ **قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ .

وقوله في الأنعام: ﴿ **قُل لاَّ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ** ﴾ .

وقوله عن هود في سورة هود: ﴿ **يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ** ﴾ .

وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ **وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ .

وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس : ﴿ **ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا** ﴾ .

ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجانًا من غير أخذ عوض على ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام.

(والحمد لله رب العالمين)



قصة هود عليه الصلاة والسلام

فأما عاد فإن الله عز وجل أرسل إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها يقال لإحداها صداء وللآخر صمود وللثالث الهباء فدعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره وترك ظلم الناس فكذبوه وقالوا من أشد منا قوة فلم يؤمن بهود منهم إلا قليل فوعظهم هود إذ تمادوا في طغيانهم فقال لهم : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ *وَجَنَّاتٍ وَعُيُون * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ فردوا عليه ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ** ﴾ وزادوا في عنادهم؛ فقالوا ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾ .

وفي « **صحيح** » ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: « منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر » .

ويقال إن هودًا عليه السلام هو أول من تكلم بالعربية. وقيل : أول من تكلم بها نوح. وقيل: آدم وهو الأشبه، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود وجرهم، وطسم وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أو من تكلم العربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نـــزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود، أن عادًا - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان.
وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا.

فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً فَٱذْكُرُواْ ءَالآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٧٢].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَٰهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَٰقَوْمِ لآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ * قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** ﴾ [هود: ٥٠ - ٦٠].

وعاد - الأولى - هم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان. وذلك بين في قوله

لهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩] ، أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ والبلاغ يستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرًا، ولا يطلب منهم جعلاً؛ بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه، والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أما لكم تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحًا وهلك من خالفه من الخلق. وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرًا عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع.

فقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا بريء منها لاعن لها ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

فأنا متوكل على الله ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه،

فلست أبالي مخلوقًا سواه، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه. فأنتم جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم. وهذا وحده برهان قاطع على أن هودًا عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهًا. فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون : ٣٣-٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشريًا. وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا. ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾

[المؤمنون : ٣٥-٣٩].

فاستبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد من بعد موتها وصيرورتها ترابًا وعظامًا، وقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ .

ثم حذرهم بما قاله لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلاً كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] ؛ فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن « إرم » مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] قيل: هي القصور، وقيل: بروج الحمام وقيل:

مآخذ الماء (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعمارًا طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٥]

وقالوا له مما قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه؟ .

فإن كنت صادقًا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك. كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء : ١٣٨] . فالمراد به الدين أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نـــزال متمسكين به.

وجاءهم العذاب!! .

فقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته. وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عماليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال إنه: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري. قال: فبعث عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنـــزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا، يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان - أي مُغنيتان - ، قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف - عمل شعرًا يعرض لهم فيه بالانصراف، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنـــز، فأنشأ الله سحابات ثلاثًا: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب، فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها

أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: اخترت رماد رمددًا، لا تبقي من عاد أحدًا، لا والدًا يترك ولا ولدًا إلا جعلته همدا إلا بني اللوذية الهمدا.

قال: وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل ابن عنــز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا هذا عارض ممطرنا، فيقول تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ [الأحقاف: ٢٤ –٢٥]؛ أي تهلك كل شيء أمرت به.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها « مهد » ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت. فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحًا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، والحسوم الدائمة؛ فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.

واعتزل هود عليه السلام في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ماتلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وأنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا في « مسنده » يشبه هذه القصة عن ابن زيد البكري، قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله حاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا.

قال: فجلست، قال: فدخل منــزله – أو قال رحله – فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فسلمت فقال: « **هل كان بينكم وبين بني تميم شيء** » ؟ فقلت: نعم. وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب.

فأذن لها فدخلت، فقلت يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء، فإنها كانت لنا، قال: فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: فقلت: إن مثلي ما قال الأول: « **معزى حملت حتفها** » حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه.

قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تهامة، فقال: اللَّهم إنك تعلم أني لم أجىء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللَّهم اسق عادًا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي: منها اختر. فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رمادًا رمددًا، ولا تبقي من عاد أحدًا. قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل: وصدق، كانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد.

فكانت الريح ﴿ **تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ** ﴾ أخذهم أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال: ﴿ **مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ** ﴾ أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور** » .

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في « صحيحه » حيث قال: حدثنا أبو بكر الطاهر، حدثنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج حدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: « **اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وشر ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به** » قالت: وإذا غيبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** ﴾ .

وعن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم وقالت: كان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: « **يا عائشة ما يؤمني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا** » .

وروي الطبري بسنده عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام. والله أعلم.

تلك كانت مقتطفات من خبر النبي هود وقومه، اشتملت على مواعظ وعبر؛ سائلاً ربي أن يمطرنا مطر رحمة؛ لا مطر غرق ولا هدم ولا عذاب،

(والحمد لله رب العالمين)



قصة داود عليه الصلاة السلام و قومه

النبي دواد نبي من أنبياء الله الذين أتاهم الله من المعجزات الباهرات ما كان فيه من البيان الكافي، والجواب الشافي لقومه على ما لاقاه من صد وعناد، وقد جاء وصف لدواد في القرآن في قوله تعالى: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) فقد أعطي داود قوة في العبادة وفقهًا في الإسلام وقد ذكر أن داود عليه السلام كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر وكان يحرسه فيما ذكر في كل يوم وليلة أربعة آلاف.

وكان داود عليه السلام قصيرا أزرق قليل الشعر طاهر القلب نقيه. بارعًا في بعض العلوم والصنعات؛ فقد ورد ذلك في قوله: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ** ﴾ .

وروي عن بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ...** ﴾ الآية، قالوا: كانت قبل داود صفائح، قال: وكان أوّل من صنع هذا الحلق داود.

وقيل: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ قال: كانت صفائح، فأوّل من سَرَدَها وحَلَّقها داود عليه السلام.

❊ ❊ ❊

المعجزات الباهرات التي وهبها الله داود

لقد وهب الله الأنبياء معجزات بينات ودلائل واضحات باهرات تدل على صدق دعوتهم ، فلكل نبي معجزة خاصة به، ومن تلكم المعجزات التي وهبها الله داود عليه السلام ماذكره الله في كتابه بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ .

فقد كانت الجبال تسبِّح مع داود.

وأما الطَّيْرَ فقيل؛ الطير وجهان: **أحدهما** : أن الطير نُوديت كما نوديت الجبال، **والآخر**: فقلنا: سخرنا له الطير.

وألان الله لَهُ الحَدِيد؛ فكان الحديد في يده كالطين المبلول يصرِّفه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار، ولا ضرب بحديد. وكان يسوّيها بيده، ولا حتاج لأن يدخلها النار، ولا يضربها بحديدة.

وعهد الله إليه أن يصنع الدروع الحديد . وكان أوّل من صنعها داود، وكانت قبل ذلك صفائح.

وعهد الله إليه أن يصنع لتلك الدروع مسامير من حديد؛ وذلك في قوله تعالى ﴿ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ .

وقيل: إنما عنى بقوله تعالى ﴿ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ : أي وقدّر المسامير في حلق الدروع حتى يكون بمقدار لا تغلظ المسمار، وتضيق الحلقة، فتفصم الحلقة، ولا توسع الحلقة، وتصغر المسامير وتدقها، فتسلس في الحلقة.

ثم أمر الله داود وآله بطاعة الله فقال : ﴿ **واعْمَلُوا صَالِحا إنّي بمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ فإن الله بما يعمل داود وأتباعه ذو بصر لا يخفى عليه منه شيء، وأن الله مجازيه وإياهم على جميع ذلك.

* * *

حادثة الخصم الذين دخلوا على داود عليه السلام

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُمْ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَاطِ ۞ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۞ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِيۤ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾.

قال ابن عباس: إن داود قال: يا ربّ قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله، قال الله: إني ابتليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به، وأعطيتك كما أعطيتهم، قال: نعم، قال له: فاعمل حتى أرى بلاءك فكان ما شاء الله أن يكون، وطال ذلك عليه، فكاد أن ينساه فبينما هو في محرابه، إذ وقعت عليه حمامة من ذهب فأراد أن يأخذها، فطارت إلى كوّة المحراب، فذهب ليأخذها، فطارت، فاطّلع من الكوّة، فرأى امرأة تغتسل، فنـــزل نبيّ الله ﷺ من المحراب، فأرسل إليها فجاءته، فسألها عن زوجها وعن شأنها، فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السَّرية أن يؤمِّره على السرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يُصاب أصحابه وينجو، وربما نُصروا، وإن الله عزّ وجلّ لما رأى الذي وقع فيه داود، أراد أن يستنقذه فبينما داود ذات يوم في محرابه، إذ تسوّر عليه الخَصْمان من قِبَل وجهه فلما رآهما وهو يقرأ فزع وسكت، وقال: لقد استضعفت في مُلكي حتى إن الناس يتسوّرون عليّ محرابي، قالا له: لا تَخَفْ خَصْمان بَغَى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ولم يكن لنا بدّ من أن نأتيك، فاسمع منا قال **أحدهما**: إنَّ هَذَا أخي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أنثى ولي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقالَ أكْفِلْنيها يريد أن يتمم بها مئة، ويتركني ليس لي شيء وَعَزَّني في الخطاب قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشدّ مني، فذلك قوله: وَعَزَّني في الخِطابِ قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نعاجه... إلى قوله: وَقَليلٌ ما هُمْ ونسي نفسه ﷺ، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك، فتبسّم أحدهما إلى الآخر، فرآه داود وظنّ أنما فتن فاستغفر ربّه وَخَرَّ

رَاكِعا وأنابَ أربعين ليلة، حتى نبتت الخُضرة من دموع عينيه، ثم شدد الله له ملكه.ا.ه

وقال السديّ، في قوله: ﴿وَهَلْ أتاكَ نَبأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْرابَ﴾ قال: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يَقْضِي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه، ويوم يخلو فيه لنسائه وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقْرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال: يا ربّ إن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي، فأعطني مثل ما أعطيتهم، وافعل بي مثل ما فعلت بهم، قال: فأوحى الله إليه: إن آباءك ابتلوا ببلايا لم تبتل بها ابتلي إبراهيم بذبح ابنه، وابتُلي إسحاق بذهاب بصره، وابتُلي يعقوب بحُزنه على يوسف، وإنك لم تبتل من ذلك بشيء، قال: يا ربّ ابتلني بمثل ما ابتليتهم به، وأعطني مثل ما أعطيتهم قال: فأُوحِيَ إليه: إنك مبتلًى فاحترس.

قال: فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب، حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلي، فمدّ يده ليأخذه، فتنحى فتبعه، فتباعد حتى وقع في كوّة، فذهب ليأخذه، فطار من الكوّة، فنظر أين يقع، فيبعث في أثره. قال: فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها، فرأى امرأة من أجمل الناس خَلْقا، فحانت منها التفاتة فأبصرته، فألقت شعرها فاستترت به، قال: فزاده ذلك فيها رغبة، قال: فسأل عنها، فأخبر أن لها زوجا، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا قال: فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعث أهريا إلى عدوّ كذا وكذا، قال: فبعثه، ففُتح له. قال: وكتب إليه بذلك، قال: فكتب إليه أيضا: أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا، أشدّ منهم بأسا، قال: فبعثه ففُتح له أيضا. قال: فكتب إلى داود بذلك، قالَ: فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا، فبعثه فقُتل المرّة الثالثة، قال: وتزوّج امرأته.

قال: فلما دخلت عليه، قال: لم تلبث عنده إلا يسيرا حتى بعث الله مَلَكين في صورة إنسيين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا، فتسوّروا عليه المحراب، قال: فما شعر وهو يصلي إذ هو بهما بين يديه جالسين، قال: ففزع منهما، فقالا: لا تَخَفْ إنما نحن خَصْمان بَغَى بَعْضُنا على بَعْضٍ فاحْكُمْ بَيْنَنا بالحَقّ ولا تُشْطِطْ يقول: لا تحف وَاهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّراط: إلى عدل القضاء. قال: فقال: قصّا عليّ قصتكما، قال: فقال أحدهما: **﴿ إنَّ هَذَا أخي لَه تَسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾** فهو يريد أن يأخذ نعجتي، فيكمل بها نعاجه مئة. قال: فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: إن لي تسعا وتسعين نعجة،

ولأخي هذا نعجة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه، فأكمل بها نعاجي مئة، قال: وهو كاره؟ قال: وهو كاره؟ قال: إذن لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد، ضربنا منك هذا وهذا وهذا، وفسر: أسباط طرف الأنف، وأصل الأنف والجبهة قال: يا داود أنت أحقّ أن يُضرب منك هذا وهذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون نعجة امرأة، و لم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة، فلم تزل به تعرّضه للقتل حتى قتلته، وتزوّجت امرأته. قال: فنظر فلم ير شيئا، فعرف ما قد وقع فيه، وما قد ابتُلي به. قال: فخرّ ساجدا، قال: فبكى. قال: فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة منها، ثم يقع ساجدا يبكي، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه.

قال: فأوحى الله إليه بعد أربعين يوما: يا داود ارفع رأسك، فقد غفرت لك، فقال: يا ربّ كيف أعلم أنك قد غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء، إذا جاءك أهريا يوم القيامة آخذا رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أو داجه دما في قبل عشك يقول: يا ربّ سل هذا فيم قتلني؟ قال: فأوحى إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريا،فأستوهبك منه، فيهبك لي، فأثيبه بذلك الجنة، قال: ربّ الآن علمت أنك قد غفرت لي، قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه حتى قُبض ﷺ.

هذا وقد تكلم بعض أهل العلم في صحة تلك الرواية.

قال عطاء الخراساني، قال: نقش داود خطيئته في كفه لكيلا ينساها، قال: فكان إذا رآها خفقت يده واضطربت.

وقال آخرون: بل كان ذلك لعارض كان عرض في نفسه من ظنّ أنه يطيق أن يتم يوما لا يصيب فيه حوبة، فابتلي بالفتنة التي ابتلي بها في اليوم الذي طمع في نفسه بإتمامه بغير إصابة ذنب.

وفي رواية أخرى قال قتادة: بينما داود هو في المحراب،إذ تسوّر الملكان عليه، وكان الخصمان إذا أتوه يأتونه من باب المحراب، ففزع منهم حين تسوّروا المحراب، فقالوا: لا تَخَفْ خَصْمان بَغَى بَعْضُنا على بَعْض... حتى بلغ وَلا تُشْطِطْ: أي لا تمل وَاهْدنا إلى سَوَاءِ الصِّراطِ: أي أعدله وخيره ﴿ **إنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً** ﴾ ، وكان لداود تسع وتسعون امرأة

﴿ **وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ** ﴾ قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة فَقالَ ﴿**أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي**

الخطاب ﴾ أي: ظلمني وقهرني، فقال: ﴿ **لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نعاجه...** ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ** ﴾ فعلم داود أنما صُمِد له: أي عنى به ذلك ﴿ **فَخَرَّ رَاكِعاً وأنابَ** ﴾ .

قال: وكان في حديث مطر، أنه سجد أربعين ليلة، حتى أوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: ربّ وكيف تغفر لي وأنت حكم عدل، لا تظلم أحدا؟ قال: إني أقضيك له، ثم أستوهبه أو ذنبك، ثم أثيبه حتى يرضى، قال: الآن طابت نفسي، وعلمت أنك قد غفرت لي.

وعن أنس بن مالك سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ دَاوُدَ النَّبيّ ﷺ حِينَ نَظَرَ إلى المرأة فأَهَمَّ، قَطَعَ عَلى بَني إسْرَائيلَ، فأَوْصَى صَاحِبَ البَعْث، فقالَ: إذَا حَضَرَ العَدُوُّ، فقرِّبْ فُلانا بينَ يَدَي التَّابُوت، وكانَ التَّابُوتُ في ذلكَ الزَّمان يُسْتَنْصَرُ به، مَنْ قُدّمَ بينَ يَدَي التّابُوت لَمْ يَرْجِعْ حتى يُقْتَلَ أوْ يَنْهَزِمَ عَنْهُ الجَيْشُ، فَقُتلَ زَوْجُ المَرأة وَنَــزلَ المَلَكان على دَاوُدَ يَقُصَّان عَلَيْه قصَّتَهُ، فَفطنَ دَاوُدُ فَسَجَدَ، فَمَكَثَ أرْبَعينَ لَيْلَةً ساجدا حتى نَبتَ الزَّرْعُ من دُمُوعه عَلى رَأْسه، وأكَلَت الأرْضُ جَبينَهُ وَهُوَ يَقُولُ في سُجُوده** » .

فلم أُحص من الرّقاشيِّ إلا هؤلاء الكلمات: « **رَبّ زَلَّ دَاوُدُ زَلَّةً أبْعَدُ ما بينَ المَشْرِق والمَغْرب، إنْ لَمْ تَرْحَمْ ضَعفَ دَاوُدَ وَتَغْفرَ ذَنْبَهُ، جعلْتَ ذَنْبَهُ حَديثا في الخُلُوف منْ بَعْده، فَجاءَه جَبْرَائيلُ ﷺ منْ بَعْد الأرْبَعينَ لَيْلَةً، فَقالَ: يا دَاوُدَ إنَّ اللّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ الهَمَّ الّذي هَمَمْتَ به، فقالَ دَاوُدُ: عَلمْتُ أنَّ الرَّبَّ قادرٌ عَلى أنْ يَغْفرَ لي الهَمَّ الّذي هَمَمْتُ به، وَقَدْ عَرَفْتُ أنَّ اللّهَ عَدْلٌ لاَ يَميلُ فَكَيْفَ بفُلان إذَا جاءَ يَوْمَ القيامَة فقالَ: يا رَبّ دَمي الّذي عنْدَ دَاوُدَ فَقالَ جَبْرائيلُ ﷺ: ما سأَلْتسأَلْتُ رَبَّكَ عَنْ ذلكَ، وَلَئنْ شئْتَ لأَفْعَلَنَّ، فَقالَ: نَعَمْ، فَعَرَجَ جبْريلُ وَسَجَدَ دَاوُدُ، فَمَكَثَ ما شاءَ اللّهُ، ثُمَّ نَــزلَ فَقالَ: قَدْ سأَلْتُ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ يا دَاوُدُ عَنِ الّذي أرْسَلْتَني فيه، فَقالَ: قُلْ لدَاوُدَ: إنَّ اللّهَ يَجْمَعُكُما يَوْمَ القيامَة فَيَقُولُ: هَبْ لي دَمَكَ الّذي عنْدَ دَاوُدَ، فَيَقُولُ: هُوَ لَكَ يا رَبّ، فَيَقُولُ: فإنَّ لَكَ في الجَنَّة ما شئْتَ وَما اشْتَهَيْتَ عوَضا** » .

❊ ❊ ❊

سليمان عليه الصلاة والسلام

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ .

لا شك أن لقصة سليمان عليه السلام أبعادًا ذات دلالات معتبرة؛ فسليمان من الأنبياء الذي أوتوا الملك والنبوة معًا، وحصل له من المعجزات، وعُلم كلام الطير، وآتاه الله من فضله الكثير، والكثير.

روى الإمام الطبري رحمه الله: أن سليمان كان تاب إلى الله من خطيئته التي أخطأها، إذ عرض عليه بالعشيّ الصافن من الخيل، والأنثى: صافنة، والصافن منها عند بعض العرب: الذي يجمع بين يديه، ويثني طرف سُنْبك إحدى رجليه، وعند آخرين: الذي يجمع يديه.

وذُكر أنها كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة.

﴿ فَقَالَ إِنّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبّي حتى تَوَارَتْ بالحِجابِ ﴾، فَلهِيَ عن الصلاة حتى فاتته، وكان سليمان يحب المال والخيل، والخير من المال.

وعن أبي الصَّهباء البكري يقول: سألت عليّ ابن أبي طالب، عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر، وهي التي فتن بها سليمان بن داود. فشغلته حتى توارت الشمس بالحجاب، وتغيبت في مغيبها .

قال قتادة: فوالله ما نازعته بنو إسرائيل ولا كابروه، ولكن ولوه من ذلك ما ولاه الله.

فقال سليمان ردّوا عليّ الخيل التي عرضت عليّ، فشغلتني عن الصلاة، فكُّروها عليّ، فجعل يمسح منها السوق، وهي جمع الساق، والأعناق.

واختلف أهل التأويل في معنى مسح سليمان بسوق هذه الخيل الجياد وأعناقها، فقال بعضهم: معنى ذلك أنه عقرها وضرب أعناقها، من قولهم: مَسَحَ علاوته: إذا ضرب عنقه.

وعن قتادة ﴿ فَطَفِقَ مَسْحا بالسُّوقِ والأعْناقِ ﴾ قال: قال الحسن: قال سليمان لا والله

لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، فَكَسف عراقيبها، وضرب أعناقها.

وقال آخرون: بل جعل يمسح أعرافها وعراقيبها بيده حُبًا لها.

وهذا القول؛ ذكره عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبيّ الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذّب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها.

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

قيل: كان ذلك الحرث كَرْما قد أنبت عناقيده.

وقيل: إنما هو حرث الأرض. وجائز أن يكون ذلك كان زرعا، وجائز أن يكون غَرْسا، وغير ضائر الجهل بأيّ ذلك كان.

وقوله: **﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ ﴾** يقول: حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً، فرعته أو أفسدته. **﴿وكُنَّا لحكمهم شاهِدِينَ ﴾** يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حَكَما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث، شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب عنا علمه.

﴿ فَفَهَّمْناها ﴾ : أي ففهَّمنا القضية في ذلك سُلَيْمانَ دون داود. **﴿ وكُلاً آتَيْنا حُكْما وَعِلْما ﴾** .

وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يُبق من حرثي شيئا. فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك فقضى بذلك داود.

ومرّ صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود فقال: يا نبيّ الله إن القضاء سوى الذي قضيت. فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفي على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها

وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كلّ عام. فقال داود: قد أصبت، القضاءُ كما قضيتَ. ففهّمها الله سليمان.

وعن ابن عباس قال: قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرُّعاة معهم الكلاب، فقال سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وافيت أمركم لقضيت بغير هذا. فأُخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث، فيكون لهم أولادها وألبانها وسِلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه، أخذ أصحاب الحرث الحرث وردّوا الغنم إلى أصحابها.

وعن عامر، قال: جاء رجلان إلى شُرَيح، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غَزْلاً لي، فقال شريح: نهارا أم ليلاً؟ قال: إن كان نهارا فقد برىء صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن. ثم قرأ: ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمانِ في الحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ** ﴾ قال: كان النفش ليلاً.

هذا وقد ورد أنه قد دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطا لبعض الأنصار فأفسدته، فرفُع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القَوْمِ فقضى على البراء بما أفسدته الناقة، وقال: « **عَلى أصحَابِ المَاشِيَةِ حِفْظُ المَاشِيَةِ باللَّيْلِ، وَعَلى أصحَابِ الحَوَائِطِ حِفْظُ حِيطانِهِمْ بالنَّهارِ** » .

وقد سخر الله لسليمان الريح فقال تعالى: ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۞ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلأَصْفَادِ ۞ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ .

فكانت الرّيح تَجْري بأمْر سليمان رُخاءً حَيْثُ أصابَ سريعة طيبة، ليست بعاصفة ولا بطيئة. مُطيعة له حيث أراد.

وكذلك سخر الله له الشياطين؛ فقال تعالى ﴿ **والشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغوَّاصٍ** ﴾ فكان يستعملها فيما يشاء من أعماله من بنّاء وغوّاص؛ فالبُناة منها يصنعون محاريب وتماثيل، والغاصَة يستخرجون له الحُلِيّ من البحار، وآخرون ينحتون له جفانا وقدورا، والمَرَدة من

الشياطين في الأغلال مُقَرَّنون، ﴿ وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفادِ ﴾ . فيسلسلون وتجمع اليدين إلى أعناقهم.

فكان المُلك الذي أعطاه الله له ملكًا عظيمًا فكان يعطي لمن يشاء ويمنع عما يشاء.

وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ** ﴾ .

* * *

سليمان ملكًا

إن قال قائل: وما وجه رغبة سليمان إلى ربه في الملك، وهو نبيّ من الأنبياء، وإنما يرغب في الملك أهل الدنيا المؤثِرون لها على الآخرة؟ أم ما وجه مسألته إياه، إذ سأله ذلك مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، وما كان يضرّه أن يكون كلّ من بعده يُؤْتَى مثلَ الذي أوتي من ذلك؟ وذلك في قول سليمان ﴿ **وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** ﴾ .

قيل: أما رغبته إلى ربه فيما يرغب إليه من المُلك، فلم تكن إن شاء الله به رغبةٌ في الدنيا، ولكن إرادةٌ منه أن يعلم منـــزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه فيه،وقبوله توبته، وإجابته دعاءه.

وأما مسألته ربه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، فإنا قد ذكر فيما مضى قبلُ قولَ من قال: إن معنى ذلك: هب لي مُلكا لا أُسلبه كما سُلبتُه قبل. وإنما معناه عند هؤلاء: هب لي مُلكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يَسلُبنيه. وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني، فيكون حجة وعَلَما لي على نبوّتي وأني رسولك إليهم مبعوث، إذ كانت الرسل لا بدّ لها من أعلام تفارق بها سائر الناس سواهم. ويتجه أيضا لأن يكون معناه: وهب لي مُلكا تَخُصُّنِي به، لا تعطيه أحدا غيري تشريفا منك لي بذلك، وتكرمة، لتبين منـــزلتي منك به من منازل من سواي. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

الهدهد وسليمان

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

في ذات يوم تَفَقَّدَ سليمان الطيْرَ فَقالَ ماليَ لا أرَى الهُدْهُدَ. وكان سبب تفقده الطير وسؤاله عن الهدهد خاصة من بين الطير، ماروواه الطبري بسنده عن أبي مُجَلِّز، قال: جلس ابن عباس إلى عبد الله بن سلام، فسأله عن الهدهد: لم تفقّده سليمان من بين الطير. فقال عبد الله ابن سلام: إن سليمان نـــزل منـــزلة في مسير له، فلم يدر ما بُعْدَ الماء، فقال: من يعلم بُعْدَ الماء؟ قالوا: الهدهد، فذاك حين تفقده.

وعن ابن عباس أيضًا، قال: كان سليمان بن داود يوضع له ستّ مئة كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه، ثم تجيء أشراف الجنّ فيجلسون مما يلي الإنس، قال: ثم يدعو الطير فتظلهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، قال: فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، قال: فبينا هو في مسيره إذا احتاج إلى الماء وهو في فلاة من الأرض، قال: فدعا الهدهد، فجاءه فنقر الأرض، فيصيب موضع الماء، قال: ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب، قال: ثم يستخرجون الماء. فقال له نافع بن الأزرق: قف يا وقاف أرأيت قولك الهدهد يجيء فينقر الأرض، فيصيب الماء، كيف يبصر هذا، ولا يبصر الفخّ يجيء حتى يقع في عنقه؟ قال: فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر.

وعن وهب بن منبه، قال: كان سليمان بن داود إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجنّ والإنس حتى يجلس على سريره، حتى إذا كان ذات غداة في بعض زمانه غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه، فتفقد الطير. وكان فيما يزعمون يأتيه نوبا من كل صنف من الطير طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها قد حضره إلا الهدهد، فقال: مالي لا أرى الهدهد

وقال ابن زيد: أوّل ما فقد سليمان الهدهد نـــزل بواد فسأل الإنس عن مائه، فقالوا: ما نعلم له ماء، فإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالجنّ، فدعا الجنّ فسألهم، فقالوا: ما نعلم له ماء وإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالطير، فدعا الطير فسألهم، فقالو: ما نعلم

له ماء، وإن يكن أحد من جنودك يعلمه فالهدهد، فلم يجده، قال: فلذاك أوّل ما فقد الهدهد.

وقد اختلف عبد الله بن سلام والقائلون بقوله ووهب بن منبه، فقال عبد الله: كان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه ليستخبره عن بُعد الماء في الوادي الذي نـــزل به في مسيره. وقال وهب بن منبه: كان تفقده إياه وسؤاله عنه لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها والله أعلم بأيّ ذلك كان إذ لم يأتنا بأيّ ذلك كان تنزيل، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح.

فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير، إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بُعد الماء. والله أعلم.

وقوله: ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابا شَدِيدا** ﴾ يقول: فلما أخبر سليمان عن الهدهد أنه لم يحضر وأنه غائب غير شاهد، أقسم ﴿ **لأُعَذِّبَنَّه عَذَابا شَدِيدا** ﴾ وكان تعذيبه الطير فيما ذُكر عنه إذا عذّبها أن ينتف ريشها.

﴿ **أوْ لأَذْبَحَنَّه** ﴾ أي يريد قتله أو لأقتلنه.

قال: فتلقاه الطير، فأخبره، فقال: ألم يستثن: أي لم يقل: (أن شاء الله)؟

﴿ **أوْلَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مَبِين** ﴾ فأعطى سليمان للهدهد مهلة وفترة؛ وهي أن يأتيه ببينة يعذره بها عن تأخره وغيابه.

❊ ❊ ❊

سليمان عليه السلام مع بلقيس

غاب الهدهد قليلاً ليأتي لسليمان بما أمره به وهو - السلطان المبين - ؛ فما لبث أن عاد بالنبأ؛ فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وجد الهدهد امراة أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ قد يكون الملك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة، ومن كل أمور الدنيا.

وكان لها كرسي عظيم ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . وعُني بالعظيم في هذا الموضع: العظيم في قدره.

وعن ابن عباس، قال: سرير كريم، قال: حَسن الصنعة، وعرشها: من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ.

ووجد هذه المرأة أي ملكة سبأ، وقومها من سبأ، يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله. ﴿ وَجَدتُّها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَّمْس مِنْ دُونِ اللَّه ﴾ وحسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحبَّب ذلك إليهم ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ ﴾؛ فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه، ومعناه: فصدّهم عن سبيل الحقّ؛ فهم لما قد زين لهم الشيطان ما زين من السجود للشمس من دون الله والكفر به لا يهتدون لسبيل الحقّ ولا يسلكونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يتردّدون.

﴿ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ .

فكتب سليمان كتابًا لملكة سبأ يعوها للإسلام.

فأخذ الهدهد الكتاب برجله، فانطلق به حتى أتاها، وكانت لها كوّة في بيتها إذا طلعت الشمس نظرت إليها، فسجدت لها، فأتى الهدهد الكوّة فسدّها بجناحيه حتى ارتفعت الشمس ولم تعلم، ثم ألقى الكتاب من الكوّة، فوقع عليها في مكانها الذي هي فيه، فأخذته.

قرأت الملكة الخطاب وذهبت إلى وزراءها؛ ف ﴿ **قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ** ﴾ .

عن قَتادة، قال: بلغني أنها امرأة يقال لها بلقيس، أحسبه قال: ابنة شراحيل، أحد أبويها من الجنّ، مؤخر أحد قدميها كحافر الدابة، وكانت في بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاث مئة واثني عشر كلّ رجل منهم على عشرة آلاف، وكانت بأرض يقال لها مأرب، من صنعاء على ثلاثة أيام .

فلما جاء الهدهد بخبرها إلى سليمان بن داود، كتب سليمان الكتاب وبعث به مع الهدهد، فجاء الهدهد وقد غلّقت الأبواب، وكانت تغلّق أبوابها وتضع مفاتيحها تحت رأسها، فجاء الهدهد فدخل من كوّة، فألقى الصحيفة عليها، فقرأتها، فإذا فيها: ﴿ **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ وكذلك كانت تكتب الأنبياء لا تطنب، إنما تكتب جملاً.

وكان خطاب سليمان: أن لا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه . ﴿ **أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ** ﴾ فلا تتمنعوا من الذي دعوتكم إليه؛ فإن امتنعتم جاهدتكم، فمن الخير لكم أن أقبلوا إليّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة ﴿ **وأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ .

بعد أن قرأت ملكة سبأ الكتاب على أشراف قومها؛ طلبت مهم أن يشيروا عليها في الأمر الذي قد حضرها، وأمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقي إليّها، فجعلت المشورة فتيا ؛ ﴿ **قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ** ﴾ .

فقال الملأ من قوم ملكة سبأ، إذ شاورتهم في أمرها وأمر سليمان: نحن ذوو القوّة على القتال، والبأس الشديد في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، وعرضوا لها القتال، يقاتلون لها، والأمر إليك بعد هذا فانظري من الرأي ما ترين، فمُرينا نأتمرْ لأمرك . ﴿ **قالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وأُولُو بَأْسٍ فانْظُرِي ماذَا تَأْمُرِينَ** ﴾ .

وروي عن الأعمش، ومجاهد، قال: كان مع ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيول، مع كلّ قيول مئة ألف، والقيول بلسانهم: الملك تحت يد كلّ مَلِكٍ مئة ألف مقاتل.

فقالت: إني مرسلة إلي سليمان، لتختبره بذلك وتعرفه به، أملك هو، أم نبيّ؟ وقالت: إن

يكن نبيا لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا، إلا أن نتبعه على دينه، وإن يكن ملكا قبل الهدية وانصرف.

﴿ وإنّي مُرْسلَةٌ إلَيْهِمْ بِهَدِيَّة فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ﴾ .

فبعثت إليه بوصائف ووصفَاء، وألبستْهم لباسا واحدا حتى لا يعرف ذكر من أنثى، فقالت: إن زيَّل بينهم حتى يعرف الذكر من الأنثى، ثم ردّ الهدية فإنه نبيّ، وينبغي لنا أن نترك ملكنا، ونتَّبع دينه، ونلحق به.

وقيل: بعثت بجوارٍ لباسهم لباس الغلمان، وغلمان لباسهم لباس الجواري.

وأهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج؛ فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجنّ فموّهوا له الآجرّ بالذهب، ثم أمر به فألقي في الطرق فلما جاءوا فرأوه ملقى ما يُلتفت إليه، صغر في أعينهم ما جاءوا به.

روى الطبري بسنده عن وهب بن منبه، قال: كانت بلقيس امرأة لبيبة أديبة في بيت ملك، لم تملك إلا البقايا من مضى من أهلها، وكان دينها ودين قومها فيما ذُكر الزنديقية فلما قرأت الكتاب سمعت كتابا ليس من كتب الملوك التي كانت قبلها، فبعثت إلى المَقَاولة من أهل اليمن، فقالت لهم:

﴿ يا أيُّها المَلأُ إنّي أُلْقِيَ إلَيَّ كتابٌ كَرِيمٌ، إنَّهُ منْ سُلَيْمانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمينَ إلى قوله بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ثم قالت: إنه قد جاءني كتاب لم يأتني مثله من ملك من الملوك قبله، فإن يكن الرجل نبيا مرسلاً فلا طاقة لنا به ولا قوّة، وإن يكن الرجل ملكا يكاثر، فليس بأعزّ منا، ولا أعدّ.

فهيَّأت هدايا مما يُهدَى للملوك، مما يُفتنون به، فقالت: إن يكن ملكا فسيقبل الهدية ويرغب في المال، وإن يكن نبيا فليس له في الدنيا حاجة، وليس إياها يريد، إنما يريد أن ندخل معه في دينه ونتبعه على أمره، أو كما قالت.

فماكان من أمر الهدايا التي بعثت بها بلقيس وهي: وصائف ووصفاء يختلفون في ثيابهم، لتمييز الغلمان من الجواري؛

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ رسول بلقيس ؛ قال له أتُمدُّونَن بمَال وتلك الهدايا؛ ﴿ أتُمدُّونَن بمَال فَمَا آتانِيَ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ؛ فإنه قد آتاني الله من المال والدنيا

أكثر مما أعطاكم منها وأفضل؛ فما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليّ، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهدى إليكم، لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا، ومكاثرة بها، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ، ولأن الله تعالى قد مكّنني منها وملّكني فيها ما لم يُمَلِّك أحدا.

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ وهذا قول سليمان لرسول المرأة ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ ولا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعهم عما أرادوا منهم.

ولنخرجنّ من أرسلكم من أرضهم أذلة وهم صاغرون إن لم يأتوني مسلمين.

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . أو لتأتيني مسلمة هي وقومها.



سليمان والعفريت !

﴿ قَالَ يَأَيُّهَا ٱلْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَابِ أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

اختلف أهل العلم في الحين الذي قال فيه سليمان يا أيها المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها فقال بعضهم: قال ذلك حين أتاه الهدهد بنبأ صاحبة سبأ، وقال له: جِئْتُكَ مِنْ سَبأٍ بِنَبأٍ يَقِينٍ وأخبره أن لها عرشا عظيما، فقال له سليمان ﷺ: سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ فكان اختباره صدقه من كذبه بأن قال لهؤلاء: أيكم يأتيني بعرش هذه المرأة قبل أن يأتوني مسلمين.

وقالوا إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد إلى المرأة بعد ما صحّ عنده صدق الهدهد بمجيء العالم بعرضها إليه على ما وصفه به الهدهد، قالوا: ولولا ذلك كان محالاً أن يكتب معه كتابا إلى من لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا؟

وقالوا: وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتابا إلى المرأة قبل مجيء عرشها إليه، وقبل علمه صدق الهدهد بذلك، لم يكن لقوله له ﴿ **سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذِبِينَ** ﴾ معنى، لأنه لا يُلِم بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأوّل حين قال له: ﴿ **جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ قالوا: وإن لم يكن في الكتاب معهم امتحان صدقه من كذبه، وكان محالاً أن يقول نبيّ الله قولاً لا معنى له وقد قال: ﴿ **سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ** ﴾ علم أن الذي امتحن به صدق الهدهد من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه، على ما أخبره به الهدهد الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها.

فلما أخبر الهدهد سليمان أنه وجد سلطانا، أنكر أن يكون لأحد في الأرض سلطان غيره، فقال لمن عنده من الجنّ والإنس: ﴿ **يا أَيُّها المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي**

مُسْلِمِينَ؟ ﴾ .

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجنّ أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ، وإنّي عَلَيْهِ لَقَوِيّ أمينٌ؛ قال سليمان: أريد أعجل من ذلك.

قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب وهو رجل من الإنس عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأكبر، الذي إذا دعي به أجاب: ﴿ **أنا آتِيكَ به قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ ؛ فدعا بالاسم وهو عنده قائم، فاحتمل العرش احتمالاً حتى وُضع بين يدي سليمان، والله صنع ذلك؛ فلما أتى سليمان بالعرش وهم مشركون، يسجدون للشمس والقمر، أخبره الهدهد بذلك، فكتب معه كتابا ثم بعثه إليهم، حتى إذا جاء الهدهد الملكة ألقى إليها الكتاب قالَتْ: يا أيُّها المَلأُ إنّي أُلْقِيَ إليَّ كِتابٌ كَرِيمٌ... إلى وأْتُوني مُسْلِمِينَ .

فقالت لقومها ما قالت وإنّي مُرْسِلَةٌ إلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ.

وقال آخرون: بل إنما اختبر صدقَ الهدهد سليمانُ بالكتاب، وإنما سأل من عنده إحضاره عرش المرأة بعد ما خرجت رسلها من عنده، وبعد أن أقبلت المرأة إليه.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم، عن وهب بن منبه، قال: لما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان: قالت: والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به طاقة، وما نصنع بمكاثرته شيئا، وبعثت:

إني قادمة عليك بملوك قومي، حتى أنظر ما أمرك، وما تدعو إليه من دينك. ثم أمرت بسرير ملكها، الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب. وكانت إنما يخدمها النساء، معها ستّ مئة امرأة يخدمنها ثم قالت لمن خلفت على سلطانها، احتفظ بما قِبلك، وبسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى أتيك .

ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْلٍ معها من ملوك اليمن، تحت يد كلّ قَيْلٍ منهم ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجنّ. فيأتونه بمسيرها ومنتهاها كلّ يوم وليلة،حتى إذا دنت جمع مَن عنده من الجنّ والإنس ممن تحت يده، فقال: ﴿ **يا أيُّها المَلأُ أيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أنْ يأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ .

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله خصّ سليمان مسألة الملأ من جنده إحضار عرش هذه المرأة من بين أملاكها قبل إسلامها، فقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأنه أعجبه حين وصف له الهدهد صفته، وخشي أن تسلم فيحرُم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها ذلك قبل أن يحرُم عليه أخذه بإسلامها.

وقال آخرون: بل فعل ذلك سليمان ليعاتبها به، ويختبر به عقلها، هل تثبته إذا رأته، أم تنكره؟

قال سليمان لما أتى عرش بلقيس صاحبة سبأ، وقدمت هي عليه، لجنده: غيِّروا لهذه المرأة سريرها. ﴿ **قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ ، وتنكير العرش، أنه زيد فيه ونقص.

وقيل: إن سليمان إنما نكّر لها عرشها، وأمر بالصرح يعمل لها، من أجل أن الشياطين كانوا أخبروه أنه لا عقل لها، وأن رجلها كحافر حمار، فأراد أن يعرف صحة ما قيل له من ذلك.

ثم ذُكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبأ تريده، أمر الشياطين فبنوا له صرحا، وهو كهيئة السطح من قوارير، وأجرى من تحته الماء ليختبر عقلها بذلك، وفهمها على نحو الذي كانت تفعل هي من توجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكور منهم والإناث معاتبة بذلك كذلك.

﴿ **قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ** ﴾ .

عن وهب بن منبه، قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضا، ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس، ثم قال: ادْخُلِي الصَّرْحَ ليريها مُلكا هو أعزّ من مُلكها، وسلطانا هو أعظم من سلطانها؛ ﴿ **فَلما رأَتْهُ حَسِبَتْهُ لّجةً وكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها** ﴾ وهي لا تشكّ أنه ماء تخوضه، قيل لها: ادخلي إنه صرح ممرّد من قوارير فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وعاتبها في عبادتها الشمس دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجدا إعظاما لما قالت،

وسجد معه الناس وسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحكِ ماذا قلت؟ قال: وأُنْسيت ما قالت:، فقالت: ﴿ **رَبّ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وأسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانِ لله رَبّ العالَمِينَ** ﴾ وأسلمت، فحسُن إسلامها.

تلكم كانت قطوف من سيرة سليمان عليه السلام، وكيف كانت أحواله مع الجن والشياطين والعفاريت؛ نسأل الله أن يحفظنا من شياطين الإنس والجن.

(والحمد لله رب العالمين)



أيوب عليه السلام

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيوب يا محمد، إذ نادى ربه وقد مسه الضرّ والبلاء. ﴿ رَبِّ إنّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِين فَاسْتَجَبْنا لَهُ ﴾؛ فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا، فكشفنا ما كان به من ضرّ وبلاء وجهد. وكان الضرّ الذي أصابه والبلاء الذي نـــزل به، امتحانا من الله له واختبارا.

عن وهب بن منبه يقول: كان بدء أمر أيوب الصديق صلوات الله عليه، أنه كان صابرًا نعم العبد.

وذكر أن لجبريل بين يدي الله مقاما ليس لأحد من الملائكة في القُربة من الله والفضيلة عنده، وإن جبريل هو الذي يتلقى الكلام، فإذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبرائيل منه ثم تلقاه ميكائيل، وحَوْله الملائكة المقرّبون حافين من حول العرش. وشاع ذلك في الملائكة المقرّبين، صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات، فإذا صلت عليه ملائكة السموات، هبطت عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض.

وكان إبليس لا يُحْجَب بشيء من السموات، وكان يقف فيهنّ حيث شاء ما أرادوا، ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة. فلم يزل على ذلك يصعد في السموات، حتى رفع الله عيسى ابن مريم، فحُجب من أربع، وكان يصعد في ثلاث. فلما بعث الله محمدا ﷺ، حُجب من الثلاث الباقية، فهو محجوب هو وجميع جنوده من جميع السموات إلى يوم القيامة ﴿ إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فأتْبَعَهُ شهابٌ ثاقِبٌ ﴾ ، ولذلك أنكرت الجنّ ما كانت تعرف حين قالت: ﴿ وَأنَّا لَمَسْنا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسا شَدِيدا ﴾ ... إلى قوله: ﴿ شِهابا رَصَدا ﴾ .

قال وهب: فلم يَرُعْ إبليس إلا تجاوبُ ملائكتها بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره

الله وأثنى عليه. فلما سمع إبليس صلاة الملائكة، أدركه البغي والحسد، وصعد سريعا حتى وقف من الله مكانا كان يقفه، فقال: يا إلهي، نظرت في أمر عبدك أيوب، فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك، وعافَيْتَهُ فحمدك، ثم لم تجرّبه بشدة و لم تجرّبه ببلاء، وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرنّ بك ولينسينك وليعبدنّ غيرك قال الله تبارك وتعالى له: انطلق، فقد سلّطتك على ماله، فإنه الأمر الذي تزعم أنه من أجله يشكرني، ليس لك سلطان على جسده ولا على عقله فانقضّ عدوّ الله، حتى وقع على الأرض، ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم، وكان لأيوب البَثَنية من الشام كلها، بما فيها من شرقها وغربها، وكان له بها ألف شاة برعاتها، وخمس مئة فدان يتبعها خمس مئة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، وحمل آلة كل فدان أتانٌ، لكل أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك.

فلما جمع إبليس الشياطين، قال لهم: ماذا عندكم من القوّة والمعرفة؟ فإني قد سُلطت على مال أيوب، فهي المصيبة الفادحة، والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال.

قال عفريت من الشياطين: أعطيتُ من القوّة ما إذا شئت تحوّلت إعصارا من نار فأحرقت كل شيء آتي عليه. فقال له إبليس: فأت الإبل ورُعاتَها. فانطلق يؤمّ الإبل، وذلك حين وضعت رؤسها وثبتت في مراعيها، فلم تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ منها أرواح السَّموم، لا يدنو منها أحد إلا احترق، فلم يزل يُحْرقها ورعاتَها حتى أتى على آخرها فلما فرغ منها تمثل إبليس على قَعُود منها براعيها، ثم انطلق يؤم أيوب، حتى وجده قائما يصلي، فقال: يا أيوب قال: لبيك قال: هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترت وعبدت ووحدت بإبلك ورعائها؟ قال أيوب: إنها ماله أعارنيه، وهو أولى به إذا شاء نــــزعه، وقديما ما وطَّنْت نفسي ومالي على الفناء. قال إبليس: وإن ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاتَها، حتى أتى على آخر شيء منها ومن رعاتها، فتركت الناس مبهوتين، وهم وقوف عليها يتعجبون، منهم من يقول: ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا في غرور ومنهم من يقول: لو كان إله أيوب يقدر على أن يمنع من ذلك شيئا لمنع وليه، ومنهم من يقول: بل هو فَعَل الذي فعل ليشمت به عدوّه وليفجع به صديقه.

قال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نــــزع مني، عُرْيانا خرجت من بطن أمي،

وعريانا أعود في التراب، وعريانا أحشر إلى الله، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارَك الله وتجزع حين قبض عاريَّته، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع ملك الأرواح، فآجرني فيك وصرت شهيدا، ولكنه علم منك شرًّا فأخرك من أجله فعرّاك الله من المصيبة وخلصك من البلاء كما يخلص الزُّوان من القمح الخلاص.

ثم رجع إبليس إلى أصحابه خاسئا ذليلاً، فقال لهم: ماذا عندكم من القوّة، فإني لم أُكُلِم قلبه؟ قال عفريت من عظمائهم: عندي من القوّة ما إذا شئت صِحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه. قال له إبليس: فأت الغنم ورعاتَها فانطلق يؤمّ الغنم ورعاتها، حتى إذا وَسَطها صاح صوتا جَثَمَتْ أمواتا من عند آخرها ورعاءَها. ثم خرج إبليس متمثلاً بقَهْرمان الرِّعاء، حتى إذا جاء أيوب وجده وهو قائم يصلي، فقال له القول الأوّل، وردّ عليه أيوب الردّ الأوّل.

ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه، فقال لهم: ماذا عندكم من القوّة، فإني لم أَكْلِم قلب أيوب؟ فقال عفريت من عظمائهم: عندي من القوّة إذا شئت تحوّلت ريحا عاصفا تنسف كل شيء تأتي عليه حتى لا أبقي شيئا.

قال له إبليس: فأت الفدادين والحرث فانطلق يؤمهم،وذلك حين قَرَّبوا الفَدَادين وأنشئوا في الحرث، والأتن وأولادها رُتوع، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف تنسف كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن. ثم خرج إبليس متمثلاً بقهْرمان الحَرْث، حتى جاء أيوب وهو قائم يصلي، فقال له مثل قوله الأوّل، وردّ عليه أيوب مثل ردّه الأوّل.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله و لم ينجح منه، صعد سريعا، حتى وقف من الله الموقف الذي كان يقفه فقال: يا إلهي، إن أيوب يرى أنك ما متعته بنفسه وولده، فأنت معطيه المال، فهل أنت مسلطي على ولده؟ فإنها الفتنة المضلّة، والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال، ولا يقوى عليها صبرهم. فقال الله تعالى له: انطلق، فقد سلَّطتك على ولده، ولا سلطان لك على قلبه ولا جسده ولا على عقله فانقضّ عدوّ الله جوادًا، حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم، فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل يناطح الجُدُر بعضها ببعض، ويرميهم بالخشب والجندل، حتى إذا مَثَّل بهم كل مُثْلة، رفع بهم القصر، حتى إذا أقَلّة بهم فصاروا فيه

منكّسين، انطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلّم الذي كان يعلمهم الحكمة، وهو جريح، مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه متغير لا يكاد يعرف من شدّة التغير والمُثْلة التي جاء متمثلاً فيها. فلما نظر إليه أيوب هاله وحزن ودمعت عيناه، وقال له: يا أيوب، لو رأيت كيف أفلتّ من حيث أفلت والذي رمانا به من فوقنا ومن تحتنا، ولو رأيت بنيك كيف عُذّبوا وكيف مُثّل بهم وكيف قُلِبوا فكانوا منكّسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم ودماغهم من أنوفهم وأجوافهم وتقطر من أشفارهم، ولو رأيت كيف شُقّتْ بطونهم فتناثرت أمعاؤهم، ولو رأيت كيف قُذِفوا بالخشب والجندل يشدخ دماغهم، وكيف دقّ الخشب عظامهم وخرق جلودهم وقطع عصبهم، ولو رأيت العصب عُريانا، ولو رأيت العظام متهشمة في الأجواف، ولو رأيت الوجوه مشدوخة، ولو رأيت الجدُرُ تَناطَحُ عليهم، ولو رأيت ما رأيت، قطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه، ولم يزل يرقّقه حتى رقّ أيوب فبكي، وقبض قبضة من تراب فوضعها على رأسه، فاغتنم إبليس عند ذلك، فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به.

ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر، فاستغفر، وصَعَد قرناؤه من الملائكة بتوبة منه، فبدروا إبليس إلى الله، فوجدوه قد علم بالذي رُفع إليه من توبة أيوب، فوقف إبليس خازيا ذليلاً، فقال: يا إلهي، إنما هوّن على أيوب خَطَر المال والولد أنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلّطي على جسده؟ فأنا لك زعيم لئن ابتليته في جسده لينسينك، وليكفرنّ بك، وليَجْحَدنّك نعمتك؛ قال الله: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله.

فانقضّ عدوّ الله جوادا، فوجد أيوب ساجدا، فعجّل قبل أن يرفع رأسه، فأتاه من قِبَل الأرض في موضع وجهه، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فترهّل، ونبتت ثآليل مثل أليات الغنم، ووقعت فيه حكّة لا يملكها، فحكّ بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكّ بالعظام، وحكّ بالحجارة الخَشنة وبقطع المُسوح الخشنة، فلم يزل يحكّه حتى نَفِد لحمه وتقطع.

ولما نَغِل جلد أيوب وتغير وانتن، أخرجه أهل القرية، فجعلوه على تلّ وجعلوا له عريشا. ورفضه خلق الله غيرَ امرأته، فكانت تختلف إليه بما يُصلحه ويلزمه. وكان ثلاثة من

أصحابه اتبعوه على دينه؛ فلما رأوا ما ابتلاه الله به رفضوه من غير أن يتركوا دينه واهموه، يُقال لأحدهم يلدد، وأليفر، وصافر.

قال: فانطلق إليه الثلاثة وهو في بلائه، فبكّتوه فلما سمع منهم أقبل على ربه، فقال أيوب ﷺ: ربّ لأيّ شيء خلقتني؟ لو كنتَ إذْ كرهتني في الخير تركتني فلم تخلقني يا ليتني كنت حَيْضة ألقتني أمي ويا ليتني مِتّ في بطنها فلم أعرف شيئا و لم تعرفني ما الذنب الذي أذنبت لم يذنبه أحد غيري؟ وما العمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني؟ لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي، فأسوة لي بالسلاطين الذين صُفّت من دونهم الجيوش، يضربون عنهم بالسيوف، بخلاً بهم عن الموت وحرصا على بقائهم، أصبحوا في القبور جاثمين، حتى ظنوا أنهم سيخلّدون. وأُسوة لي بالملوك الذين كنــزوا الكنوز، وطَمروا المطامير، وجمعوا الجموع، وظنوا أنهم سيخلدون. وأُسوة لي بالجبارين الذين بنوا المدائن والحصون، وعاشوا فيها المئين من السنين، ثم أصبحت خرابا، مأوى للوحوش ومثنى للشياطين.

قال أليفر اليماني: قد أعيانا أمرك يا أيوب، إن كلّمناك فما نرى للحديث منك موضعا، وإن نسكت عنك مع الذي نرى فيك من البلاء، فذلك علينا. قد كنا نرى من أعمالك أعمالاً كنا نرجو لك عليها من الثواب غير ما رأينا، فإنما يحصد امرؤ ما زرع ويُجزَى بما عمل. أشهد على الله الذي لا يُقْدر قدر عظمته ولا يُحْصَى عدد نعمه، الذي ينــزل الماء من السماء فيحيي به الميت ويرفع به الخافض ويقوّي به الضعيف، الذي تضلّ حكمة الحكماء عند حكمته وعلم العلماء عند علمه حتى تراهم من العيّ في ظلمة يموجون، أن من رجا معونة الله هو القويّ، وإن من توكل عليه هو المكفيّ، هو الذي يكسر ويجبر ويجرح ويداوي.

قال أيوب: لذلك سكتّ فعَضِضْت على لساني ووضعت لسوء الخدمة رأسي لأني علمت أن عقوبته غيرت نور وجهي، وأن قوّته نــزعت قوّة جسدي، فأنا عبده، ما قضي عليّ أصابني، ولا قوّة لي إلا ما حمل عليّ لو كانت عظامي من حديد وجسدي من نُحاس وقلبي من حجارة، لم أطق هذا الأمر، ولكن هو ابتلاني وهو يحمله عني أتيتموني غِضابا،

رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم من قبل أن تُضربوا، كيف بي لو قلت لكم: تصدّقوا عني بأموالكم لعلّ الله أن يخلصني، أو قرّبوا عني قربانا لعلّ الله أن يتقبله مني ويرضى عني؟ إذا استيقظت تمنّيت النوم رجاء أن أستريح، فإذا نمت كادت تجود نفسي.

تقطّعت أصابعي، فإن لأرفع اللقمة من الطعام بيديّ جميعا فما تبلغان فمي إلا على الجهد مني، تساقطت لَهَواتي ونخر رأسي، فما بين أذنيّ من سداد، حتى إن إحداهما لُترى من الأخرى، وإن دماغي ليسيل من فمي.

تساقط شعري عني، فكأنما حُرِّق بالنار وجهي، وحدقتاي هما متدليتان على خدي، ورمّ لساني حتى يكتفي، فما أُدخل فيه طعاما إلا غصني، وورمت شفتاي حتى غطَّت العليا أنفي والسفلى ذقني.

تقطَّعت أمعائي في بطني، فإني لأدخل الطعام فيخرج كما دخل، ما أحسه ولا ينفعني.

ذهبت قوّة رجليّ، فكأنهما قِرْبتا ماء مُلئتا، لا أطيق حملهما. أحمل لحافي بيديّ، وأسناني فما أطيق حمله حتى يحمله معي غيري. ذهب المال فصرت أسأل بكفي، فيطعمني من كنت أعوله اللقمةَ الواحدة، فيمُنّها عليّ ويعيِّرني.

هلك بَنِيَّ وبناتي، ولو بقي منهم أحد أعانني على بلائي ونفعني. وليس العذاب بعذاب الدنيا، إنه يزول عن أهلها، ويموتون عنه، ولكن طوبَى لمن كانت له راحة في الدار التي لا يموت أهلها، ولا يتحوّلون عن منازلهم، السعيد من سعد هنالك والشقيّ من شقي فيها.

قال يلدد: كيف يقوم لسانك بهذا القول وكيف تفصِح به؟ أتقول إن العدْل يجور، أم تقول إن القويّ يضعف؟ ابْكِ على خطيئتك، وتضرّع إلى ربك عسى أن يرحمك ويتجاوز عن ذنبك، وعسى إن كنت بريئا أن يجعل هذا لك ذخرا في آخرتك وإن كان قلبك قد قسا فإن قولنا لن ينفعك، ولن يأخذ فيك هيهات أن تنبت الآجام في المفاوز، وهيهات أن ينبت البَرْديّ في الفلاة؛ من توكل على الضعيف كيف يرجو أن يمنعه، ومن جحد الحقّ كيف يرجو أن يوفَّىَ حقه؟.

وتلك القصة التي رواها الإمام الطبري رحمه الله على تمامها؛ لا أراها إلاّ من ادعاءات أهل الكتاب!!.

قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ** ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والثانية في « صٓ » ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ** ﴾ .

وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: « **بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رِجل من جراد من ذهب** » الحديث.

وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا.

وفي الصحيح واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنـــزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه مَحْضًا لم يُشَب، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿ **هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾ [البقرة: ٧٩] ، ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنـــزل عليكم، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة. والله أعلم.

أما ماورد في تفسير قوله تعالى ﴿ **هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ﴾ .

قال الإمام القرطبي: أي فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه. وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه. ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل: نبعت عين حارّة واغتسل فيها فخرج صحيحًا، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذبًا. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده. والمغتسل الماء الذي يغتسل به؛ قاله القتبي. وقيل: إنه الموضع الذي يغتسل فيه؛ قاله مقاتل. الجوهري: واغتسلت بالماء، والغسول الماء الذي يغتسل به، وكذلك المغتسل، والمغتسل أيضًا الذي يغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل

الموتى والجمع المغاسل. واختلف كم بقي أيوب في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب بن منبّه: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين، وعُذّب بُخْتَنصَّر وحُوِّل في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمان عشرة سنة. رواه أنس مرفوعًا فيما ذكر الماوردي.قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يومًا أيوب، وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

فالله أعلم بمقدار لبثه، وقد صبر أيوب على الابتلاء، حتى صار صبره مثلاً وعبرة لكل مبتلى، والله غالب على أمره.

(والحمد لله رب العالمين)



قصة ثمود والنبي صالح عليه السلام

من الأمم التي تكرر ذكرها في القرآن قوم ثمود، والنبي صالح؛ ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** ﴾ .

﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ** ﴾ .

أرسل الله إلى ثمود أخاهم صالحا، فقال لهم يا قوم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلوهية، فما لكم من إله غيره يستوجب عليكم العبادة، ولا تجوز الألوهية إلاّ له. ﴿ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ** ﴾ ؛ فهو سبحانه ابتدأ خلقكم من الأرض. وإنما قال ذلك لأنه خلق آدم من الأرض، فخرج الخطاب لهم إذ كان ذلك فعله بمن هم منه. ﴿ **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها** ﴾ وجعلكم عُمَّارا وأسكنكم فيها أيام حياتكم.

﴿ **فاسْتَغْفِرُوهُ** ﴾ واعملوا عملاً يكون سببا لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح. ﴿ **ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** ﴾ واتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه. ﴿ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** ﴾ فهو سبحانه قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه.

فقالت ثمود لصالح نبيهم: ﴿ **يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فينا مَرْجُوًّا** ﴾ : أي كنا نرجو أن تكون فينا سيدا قَبْلَ هَذا القول الذي قلته لنا من أنه مالنا من إله غير الله. ﴿ **أتَنْهانا أنْ نَعْبُد ما يَعْبُدُ آباؤُنا** ﴾ فقد كنا نعبد الآلهة التي كانت آباؤنا تعبد، ﴿ **وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيب** ﴾ فكذبوه وشكوا في صحة ما يدعوهم إليه من توحيد الله، وأن الألوهة لا تكون إلا له خالصا.

فقال صالح لقومه من ثمود: يا قَوْمِ أرأَيْتُمْ إنْ كُنْت على بينة من ربي وكنت على برهان

وبيان من الله قد علمته وأيقنته وآتاني منه النبوّة والحكمة والإسلام، فمن الذي يدفع عني عقابه إذا عاقبني إن أنا عصيته، فيخلّصني منه، فما تزيدونني بعذركم الذي تعتذرون به من أنكم تعبدون ما كان يعبد آباؤكم غير تخسير لكمْ يخْسِركم حظوظكم من رحمة الله.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ .

ثم جاء صالح قومه من ثمود ببينة لما قالوا له ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ وسألوه الآية على ما دعاهم إليه؛ فقال لهم: ﴿ يا قَوْمِ هَذِه نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ ؛ فهذه حجة وعلامة، ودلالة على حقيقة ما أدعوكم إليه. فلا تقتلوها ولا تنالوها بعقر، فإنكم إن تمسوها بسوء يأخذكم عذاب من الله غير بعيد فيهلككم. ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِه نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَذَرُوها تَأْكُلُ فِي أرْضِ اللَّهِ . وَلا تَمَسُّوها بسُوء ﴾ .

فكذّبوه فعقروها. ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ ؛ فعقرت ثمود ناقة الله. فأمهلهم صالح ليستمتعوا في دار الدنيا بحياتهم ثلاثة أيام.

ذُكر أن صالحا حينَ أخبرهم أن العذاب أتاهم لبسوا الأنطاع والأكسية، وقيل لهم: إن آية ذلكَ أن تصفرّ ألوانكم أوّل يوم، تم تحمرّ في اليوم الثاني، ثم تسودّ في اليوم الثالث وذُكر أنهم لما عقروا الناقة ندموا وقالوا: عليكم الفصيلَ فصعد الفصيل القارة والقارة الجبل حتى إذا كان اليوم الثالث، استقبل القبلة وقال: يا ربّ أمي يا ربّ أمي ثلاثا. قال: فأرسلت الصيحة عند ذلك.

وكان ابن عباس يقول: لو صعدتم القارة لرأيتم عظام الفصيل. وكانت منازل ثمود بحجرْ بين الشام والمدينة.

روى البخاريّ عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لما نـزل الحجر في غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها. فقالوا: قد عَجَنَّا وٱستقينا.

فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهَرِيقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين. وفي الصحيح عن ٱبن عمر: أن الناس نـزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود، فاستقوْا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهَرِيقوا ما استقوْا ويعلفوا الإبل العجين،

وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدها الناقة. وروي أيضًا عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا رسول الله ﷺ: « **لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذَرًا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم** » ثم زجر فأسرع.

وذلك دليل على أنهم قوم قد لعنهم الله، ونجى صالحًا، وكبت عدوه.

(والحمد لله رب العالمين)

تلكم كانت قطوف من قصص القرآن، أسأل الله أن ينفع بها، وبما حوت من عبر ومواعظ، وما اشتملت عليه من الفوائد؛ إنه قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويجيب المضطر ويكشف السوء، سبحانك ربي؛ رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊